طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس (١)

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ ـ حزيران ١٩٨٨م

الجزء الثالث ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

المحرم الحرام ١٤٠٩هـ ـ ايلول ١٩٨٨م

الجزء الرابع ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م

طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس (١)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

عضو المجمع

نسبه وأيامه الأولى

هو طارق بن زياد بن عبدالله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُّوم بن بنزغاسن بن وَلْهَاص بن يَطُّوفْت بن نَفْزاو (٢) ، فهو بربريّ من نَفْزَة (٣) ، وهو مولى لموسى بن نُصَير (٤) من سبي البربر (٥) ، ويكون اسمه الكامل : طارق بن زياد النَّفْزاوي البربري (٦) من إفريقية (٧) .

---

(١) أصل مصطلح الأندلس ، مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني ، احتلت شبه الجزيرة الأيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها : (فاندلسيا Vandalusia)، أي : بلاد الوندال ، ثم نطقت بالعربية : (الأندلس) . أما مدلول هذا المصطلح ، فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون على كل شبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، والتي يسمونها أيضاً : (الجزيرة الأندلسية) ، ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الايبيرية ، انظر التاريخ الأندلسي (٣٧) وجغرافية الأندلس (٥٩) والروض المعطار (٤ – ٦ – و ١٩) ونفح الطيب (١/١٣٣ – ١٣٥) ومعجم البلدان (١/٣٤٧–٣٥٠) والمسالك والممالك (٣٥) وتقويم البلدان (١٦٥ – ١٦٦) .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢ / ٥) .

(٣) نفزة : هي نفزاوة ، قبيلة من قبائل البربر الكبيرة ، والبربر قسمان : البرانس والبتر ، ونفزاوة قبيلة من قبائل البتر ، انظر : محمد علي دبوس – تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) – القاهرة – ١٣٨٢ هـ – ط ١ ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٤) موسى بن نصير : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي(١/٢٢١ – ٣٠٩).

(٥) انظر تفاصيل القبائل البربرية في : جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٦٤) .

(٧) إفريقية : اسم بلاد واسعة ، حدها من طرابلس الغرب شرقاً إلى بجاية أو مليانة غرباً ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨) ، وأنظر نسبته إلى إفريقية في المغرب ، نقلا عن الطيب (١/٢٣٠) .

وهذا هو الذي نعتمده لطارق بن زيادة نسباً وموطنا ، لأنه أقرب الى العقل والمنطق ، ومع ذلك لابد من ذكر الاختلاف في نسبه وموطنه ، لتعليل أسباب هذا الاختلاف .

فقد ذكروا أنه طارق بن عمرو (٨) ، لا طارق بن زياد ، والمعروف في المصادر المعتمدة التاريخية والأندلسية ، أنه : طارق بن زياد ، فهو الاسم المشهور به على أوسع نطاق ، والمصادر التي ذكرته بأنه : طارق بن عمرو قليلة جداً ، لا تُعدّ شيئاً بالنسبة للمصادر المعتمدة التي ذكرته باسم : طارق بن زياد . كما انّ المصادر القليلة التي ذكرته باسم : طارق بن عمرو ، ذكرته بعد ذكر اسمه المعروف به والمشهور به وهو : طارق بن زياد ، وكان ذكره باسمه الجديد بهذا التعبير : « وقيل : طارق بن عمرو »(٩) ، ولا يخفى أنّ مثل هذا التعبير بالنسبة للمؤلفين القدامى ، يدلّ على عدم الثقة بصحّة المعلومات الواردة بعد تعبير : « قيل » ، أو أنها أقل أهمية من المعلومات الموثّقة الشائعة .

وذكروا أنّ طارق بن زياد ، كان فارسيّاً هَمَدَانيّاً (١٠) – نسبة إلى مدينة هَمَدان الفارسيّة – وهذا غير منطقيّ ولا معقول أيضاً ، ولعلّ الذين نسبوا طارقاً إلى الفُرْس ، استهدفوا قسماً من عَقِبِهِ الذين كانوا في الأندلس وأصبح لهم شأن يُذكر فيها ، للحطّ من منزلتهم الاجتماعية ، باعتبار تميّز العنصر العربي على عهد بني أُمية على العناصر الأعجمّية ، وبذلك استهدفوا بهذا الغمز قسماً من عَقِب طارقٍ ولم يستهدفوا طارقاً بالذات . كما يمكن أن يكون الذين نسبوا طارقاً إلى الفرس ، بعد أن أصبح علماً من الأعلام البارزة قدراً وجلالا ، ليفخروا بنسبته إليهم ، فكلّ أُمّة من الأمم تحاول أن تنسب إليها أصحاب الصفحات الناصعة في التاريخ ، لتفخر بهم بين الأمم . ومن

(٨) بغية الملتمس (١٠) ونفح الطيب (٢٣٠/١) نقلا عن ابن بشكوال .
(٩) بغية الملتمس (١٠) .
(١٠) أخبار مجموعة (٦) لمؤلف مجهول ، ونفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

الواضح أنّ نسبة طارق إلى الفُرس تمّت بعد وفاته ، فهو لم يعرف هذا النسب في حياته ، وما كان يمكن أن ينسب إليه وهو لايزال على قيد الحياة .

وذكروا أنّه رجل من صَدِف(١١) ، وقيل : إنّه من موالي صَدِف ، وليس بمولى موسى بن نُصَيْر (١٢) ، وكان بعض عقب طارق بالأندلس ينكرون ولاءه لموسى إنكاراً شديداً (١٣) .

وذكروا أنه طارق بن زياد اللَّيْثيّ (١٤) من بني لَيْث من قُضاعة (١٥) ، أي أنه عربيّ من قُضَاعة .

ويقال : إنّ طارقاً مولى الوليد بن عبدالملك بن مروان (١٦) ، وقد تولّى الوليد الخلافة بعد وفاة أبيه عبدالملك بن مروان .

وطارق ليس من الصَّدِف ولا من بني لَيْث العرب ، والذين نسبوه إلى بني الصَّدِف ، أرادوا أنّه من مواليهم (١٧) ، كما أن الذين نسبوه إلى بني ليث قصدوا أنّه من مواليهم (١٨) أيضا ، لأنهم يعلمون حقّ العلم أنّه بربريّ وليس عربيا . ومن المحتمل أنّ قسماً من عقبه في الأندلس ، ادّعوا انتسابهم

(١١) الصدف : هم قبيلة الصدف ، من بني حضرموت ، وهو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٦١) ، وكانوا في إشبيلية وهم بنو حضرموت ويسمون : بنو خلدون الأشبيليون ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٦٠) ، وانظر نسبة طارق إلى قبيلة صدف في : نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي ، و (٢٣٩/١) .

(١٢) أخبار مجموعة (٦) .

(١٣) نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

(١٤) ابن خلدون (٤ / ١١٧) وأنظر نفح الطيب (١/ ٢٣٢) ، وبنو ليث هم : بنو ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ - ٤٤٥) .

(١٥) انظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ - ٤٤٤) .

(١٦) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١) .

(١٧) أخبار مجموعة (٦) .

(١٨) الأعلام (٣١٣/٣) .

للعرب ، في وقت كان للعرب فيه مكان مرموق ، فأقحم بعض المؤرخين عن قصد أو عن غير قصد هذا الأدّعاء ، الذي لا سند له من الواقع ولا من التاريخ .

اما الادّعاء بأنّه مولى للوليد بن عبدالملك ، فادّعاء لا أساس له من الصحّة، إذ لو كان مولى للخليفة الوليد لولاّه القيادة ، ولم يترك توليته للقائد موسى بن نُصَير . ولا نعلم أنّ طارقاً رحل إلى المشرق واتصل بالوليد ، ولا نعلم أنّ الوليد قدم المغرب واتّصل بطارق ، فلا صلة من ناحية الولاء بين طارق والخليفة الوليد من قريب ولا من بعيد ؛ وليس من المستبعد أنّ بعض عَقِب طارق ، أراه أن يرفع درجة ولاء جدّهم طارق ، من رتبة مولى موسى بن نُصَيْر ، أحد ولاة الخليفة وأحد قادته إلى رتبة مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وهي أرفع من رتبته الأولى على كلّ حال .

وكان من نتائج كلّ تلك الادّعاءات ، إنكار بعض عَقِب طارق بالأندلس ولاءه موسى إنكاراً شديداً .

ولو لم يكن طارق مولى لموسى بن نُصَيْر حقّاً ، لما أنكر (بعض) عَقِبه هذا الولاء ، ولم ينكره (جميع) عقبه ، ومن الواضح أنّ المُنكِرين ادّعوا انتسابهم للعرب تارة ، والولاء للعرب تارة ، والولاء للخليفة تارة أخرى ، لأنّ هؤلاء المُنْكِرين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا موالى للموالى ، لأنّ موسى بن نُصَيْر مولى لعبدالعَزيز بن مروان أخ الخليفة عبدالملك بن مروان ، وطارق مولى لموسى بن نُصَيْر ، فعَقِبُه يكونون موالى للموالى ، وهذا ما لم يستطيعوا تحمّله ولا تقبّله ، وبخاصة بعد أن تبدّلَ حالهم غير الحال ، وأصبحوا من ذوي المكانة والمكان في الأندلس .

نستطيع أن نستنتج ، أنّ طارق بن زياد بربريّ من قبيلة نَفْزاوة إحدى قبائل البتر من البربر ، وهو مولى لموسى بن نُصَير ، الذي اكتشف كفاياته

القياديّة والادارية ، فولاّه أولاً على طَنْجَة (١٩) ، ثم ولاّه على قوّات فتح الأندلس ، كما سيرد تفاصيل ذلك وشيكا .

ولابدّ أن يكون إسلام طارق وحسنُ إسلامه ، أحدَ المزايا التي حملت مولاه موسى بن نُصَيْر على الثقة به والاعتماد عليه ، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الاسلام ، إذ أسلم والد طارق أيام عُقْبَة بن نافع الفِهْريّ(٢٠). والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان إذ ذاك صغير السنّ ، ولكنّه كان يتمتّع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الاسلامي ، جعاه من أشدّ المقرّبين إلى موسى بن نُصَير ، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصّهم بسرّه وثقته المطلقة ، وأشركه مشاركة عمليّة في رفع راية الاسلام (٢١) .

ويبدو أنّ جدّ طارق ، وهو عبدالله ، كان مسلماً ، بدليل اسمه العربيّ الاسلامي ، مما يدلّ على أنّ طارقاً وُلد في بيت إسلامي وترعرع في هذا البيت ، وشبّ في مجتمع إسلاميّ ، ولعلّ تدينه العميق لفت إليه الأنظار . بالاضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى ، وكان قربه من موسى بن نُصَيْر قد أتاح له الفرصة المناسبة لتوليّ المناصب الادارية والقيادية المناسبة ، فنجح في الادارة وفي الفتح معا .

(١٩) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط ، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان (٦/٦١٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٢٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠ – ١٣٦) وكتابنا عقبة بن نافع .

(٢١) الشيخ محمد ابو زيد طنطاوي – فتح العرب للأندلس – مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ – ٤٤) – العدد الثاني – السنة العاشرة – رمضان ١٣٩٧ هـ – مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

في فتح طنجة

بعد أن تمّ لموسى بن نُصَيْر ، إخضاع المغرب الأوسط (٢٢) والمغرب الأقصى (٢٣) ، من صحراء دَرْعَة (٢٤) . إلى السُّوْس الأقصى (٢٥) إلى بلاد المصامدة (٢٦) ، تطلّع موسى نحو طَنْجَة التي كانت تخضع للأمير الرُّومِيّ يُلْيَان (جوليان Julian) منذ أيام عُقْبَة بن نافع .

والمقصود بطنجة هنا ، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر ، وليس المدينة فقط (٢٧) .

وقد خرج موسى بن نُصَيْر من القَيْروان (٢٨) لفتح طنجة ، وجعل على مقدّمته مولاه طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى

(٢٢) . المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ – ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ – ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ – ٨٨) وصفة المغرب (٢ – ٢٩) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣ – ٣٨) ، وهو جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٣) . المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً ، ومن سبتة الى مراكش ثم الى سجلماسة وما في سمتها شمالا وجنوباً ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، والمصادر المنوه عنها في المادة (١) أعلاه مباشرة ، وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٤) . درعة : مدينة بالمغرب ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ /٥٣) .

(٢٥) . السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ، ذات المدن والقرى الكثيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٢٦) . المصامدة : جمع مصمودة ، وهي قبيلة مصمودة بن برنس ، من قبائل البربر البرانس ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠) .

(٢٧) . تاريخ المغرب العربي (٢١٢) .

(٢٨) . القيروان : مدينة كبيرة معروفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ – ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ – ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

بلغ مدينة طنجة ، وهي قصبة بلادهم وأُمّ مدائنهم (٢٩) . فلما دنا موسى من طنجة ، بثّ السَّرايا ، فانتهت خيله إلى السّوس الأدنى (٣٠) ، فوطئهم وسباهم ، وأدّوا إليه الطّاعة ، وولّى عليهم والياً أحسن فيهم السَّير (٣١) .

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها (٣٢) ونزلها ، وهو أوّل مَنْ نزلها واختطّ فيها للمسلمين (٣٣) ، فأسلم أهلها ، وخطّ موسى قيرواناً للمسلمين(٣٤).

وسار موسى إلى مدائن على شطّ البحر ، فيها عُمّال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن مدينة سَبْتَة (٣٥) ، وعليها يُلْيَان (جوليان) ، فقاتله موسى ، فألفاه في نَجْدَةٍ وقوّة وعُدَّة ، فلم يُطِقْهُ ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على مَنْ حولهم والتّضييق عليهم ، والسُّفن تختلف إليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قِبَل ملكها غَيْطَشَة ، فهم يذبّون عن سبتة ذبّاً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامّة (٣٦) . وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس (٣٧) ، مما ساعد على ثباتها بوجه المسلمين الفاتحين .

وكان بطنجة من البربر بطون البُتْر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطّاعة(٣٨)

---

(٢٩) . نفح الطيب (١/٣١٥) و (١/٢٣٠) .

(٣٠) . السوس الادنى : كورة كبيرة بالمغرب، مدينتها طنجة، والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٢) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٣١) . فتح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٢) . نفح الطيب (١/٢١٥) و (١/٢٣٤) .

(٣٣) . البلاذرى (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٤) . نفح الطيب (١/٢٣٤) .

(٣٥) . سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٦) .

(٣٦) . نفح الطيب (١/٢٣٤) .

(٣٧) . معجم البلدان (٥/٢٦) .

(٣٨) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، وانظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب : الاسلام والعرب (١٤٠) .

فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط فيها مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكنّ مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد (٣٩) .

وبذلك تمّ فتح المغرب الأقصى ، إلاّ إقليم سبتة ، وانتشر الاسلام في أرجائه انتشاراً سريعاً وواسعا .

وعاد موسى إلى القيروان ، بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد،وترك معه تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدَّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وخلّف موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ، ليعلِّموا البربر القرآن الكريم وفرائض الاسلام (٤٠) .

وفي الطريق الى القيران ، فتح موسى مدينة مَجَّانة (٤١) على مسيرة خمسة أيام من القيران (٤٢) ، على الحدود الجزائريّة – التونيسّة الحالية (٤٣) ، وكانت مجَّانة قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان (٤٤) ، فاستعاد موسى فتحها ، لأنّها سبق أن فتحها بِسْر بن أبي أرْطاة (٤٥).

لقد افتتح موسى بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تُعدّ ولا تُوصف)، وله بها مقامات مشهورة هائلة (٤٦) ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبثّ

(٣٩) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٥) .
(٤٠) . نفح الطيب (٢٢٤) .
(٤١) . مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٢) . معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٣) . تاريخ المغرب العربي (٢١٤) .
(٤٤) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .
(٤٥) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٢٨٦/٧) ، وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة في : قادة فتح المغرب العربي (٢/١٣-٣٥).
(٤٦) . البداية والنهاية (١٧١/٩) .

فيهم الدين والقرآن (٤٧) ، فكان يأمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين (٤٨) ، فلم يبق في إفريقية مَنْ ينازعه (٤٩) ، غير منطقة سَبْتَة وعلى رأسها يُلْيَان (جوليان) .

لقد لمع اسم طارق بن زياد ، قائداً مرءوساً لموسى بن نُصَيْر ، في مسيرة الجهاد الطويلة ، التي بدأت من القيروان ، واستمرت غرباً حتى تمّ لها فتح طنجة ، وكان طارق على مقدّمة موسى في هذا الفتح المبين ، وتولية طارق قيادة المقدمة ، في مسير الاقتراب ، وفي المناوشات التي تكلّلت لأوّل مرة بفتح طنجة ، دليل على ثقة موسى الكبيرة بطارق ، ودليل على كفاية طارق القيادية .

وبعد أن عاد موسى إلى القيروان التي اتخذها مقراً له ، خلّف طارقاً على طنجة . والياً على المدينة ومنطقتها الشاسعة المهمة ، وبخاصة في موقعها الحيويّ السَّوْقِيّ ، الذي هو بتماس شديد مع يليان في سبتة الذي أثبت جدارته في الدفاع عن حوزة سبتة وما حولها ، وقاوم المسلمين مقاومة عنيفة ، فاستطاع أن يصدّهم عن فتح بلاده إلى حين . كما أنّ طارقاً في منطقة طنجة السَّوْقِيّة ، هو بتماس شديد مع دولة الأندلس وحماتها الذين كانوا وراء نجاح يليان في دفاعه العنيف ونجاحه في دفاعه الذي تميز بالحركة التّعبويّة ، وكلّ ذلك دليل قاطع على ثقة موسى بطارق . الذي أصبح والياً على منطقة طنجة . وقائداً لحامية مدينتها بخاصة والمجاهدين من البربر بعامة ، ومشرفاً على نشر الاسلام وتعليم القرآن وتعاليم الدين الحنيف ، فأثبت أنّه أهل لتلك الثقة ، وقادر على النهوض بواجباته الكثيرة . بكفاية عالية وحماسة وإيمان واندفاع .

---

(٤٧) . البداية والنهاية (١٧٢/٩) .

(٤٨) . البيان المغرب (٣٦/١) .

(٤٩) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

وقد أتاح الاتّصال المباشر لطارق بموسى بن نُصير ، فرصة إظهار مواهبه الادارية والقيادية ، فولاّه موسى منصب الوالي على طنجة ومنصب القائد على قوّاتها المسلحّة . ولكنّ هذا الاتّصال المباشر لطارق بموسى باعتبار أنّ طارقاً هو مولى لموسى ، ليس السبب لتولية طارق هذين المنصبين الرفيعين ، في أخطر منطقة من مناطق الشمال الافريقي بعد فتحه ، إذ لا يمكن إسناد مثل تلك المناصب في أخطر الظروف والأحوال ، إلاّ لمن يستحقها كفايةً واقتدارا ، وإلاّ كانت نتيجة تولية غير ذوى الكفاية والقدرة كارثة محققّة أكيدة تصيب الفتح والفاتحين ، وتؤدي إلى خسارة المنطقة بكاملها بالاضافة إلى خسائر بالأرواح والممتلكات وتحطّم المعنويات ، وهذا مالا يمكن أن يقع فيه قائد مجرِّب حصيف مثل موسى بن نُصَيْر ، ومن المشكوك فيه أن يقع فيه قائد غير مجرِّب وغير حصيف أيضاً .

إنّ الأتصال المباشر لطارق بموسى ، أتاح له الفرصة لاظهار كفاياتهُ الادارية والقيادية ، وهذه الكفايات اتّصاله المباشر بالقائد العام لشمالي إفريقية ، هي التي جعلت المناصب الادارية تسعى إليه ولا يسعى إليها . وقد أتاحت المسيرة الطويلة في الجهاد لموسى ، أن يكتشف عن كثب كفايات طارق ، فولاّه الادارة والقيادة عن اقتناع ، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) ، وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب ، مُهمّتهم نشر تعاليم الاسلام بين البربر (٥٠) .

(٥٠) . ابن حبيب (٢٢٢) وابن عبدالحكم (٢٠٤ — ٢٠٥) وذكر بلا د الأندلس (٨٣ — ٨٤) رقم ٨٥ ج وابن الأثير (٥٤٠/٤) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) والبيان المغرب (٤٢/١) والنويري (٢٢/٢٢) وابن خلدون (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٣٩/١) ، وانظر تاريخ المغرب العربي (٢١٤) والفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس (١٤٣)

وليس كالأتصال المباشر في ميدان الجهاد ، في أحرج الظروف والأحوال ، وفي مواجهة المعضلات الادارية وإيجاد الحلول الناجعة لها ، ما يظهر المرء على حقيقته في كفاياته ومزاياه واقتداره ، وهذا أبرز طارقاً إدارياً وقائداً .

جهاده في الأندلس

١ ـ مقدّمات الفتح

أ ـ الأسباب

كان فتح الأندلس نتيجة طبيعيّة لتمام فتح المغرب ، لأنّ الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب (٥١) ، ولأنّ الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الاسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الافريقي ، واستقرار الفتح فيه بانتشار الاسلام في ربوعه ، وبوجود القوّة الضّاربة بجانب العرب المسلمين والبربر المسلمين .

ولم تستعص على موسى بن نُصَيْر غير مدينة سَبْتَةَ (Geuta) لمناعتها ووصول الأمدادات إليها من إسبانيا القوطيَّة عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قَبل القُوْط (٥٢) حاكم اسمه : جوليان ، أو كما يسميه الاسبان (خوليان Julian) ويسميه العرب : يُلْيَان (٥٣) ، أو إليان (٥٤) ، او يوليان (٥٥) . وقد اختلفت المصادر في شخصيّة يليان . فبعضها يذكر أنّه قُوطيّ ، وبعضها يزعم أنّه روميّ . وبعضها ينسبه إلى بربر قبيلة غمارة (٥٦) . والواقع أنّ

(٥١) . المسالك والممالك للأصطخري (٣٣) .
(٥٢) . يذكر صاحب : أخبار مجموعة ، أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس ، على رأسها سبتة ، انظر : اخبار مجموعة في فتح الأندلس (٤) .
(٥٣) . البيان المغرب (٦/٢) .
(٥٤) . صفة المغرب للبكري (١٠٤) .
(٥٥) . ابن الأثير (٢١٣/٤) .
(٥٦) . انظر تاريخ المسلمين في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ ـ ٥٣) .

يليان كان حاكماً عاماً على إقليم موريطانيا الطنجيّة ، وهي تابعة لموريطانيا القيصريّة ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطيّة ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولّت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوّطية(٥٧)، وقد بدأ يليان ولايته لهذا الاقليم في سنّ مبكّرة ، وأنه أقام مدّة طويلة في في أرض المغرب ، حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربرّياً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنّه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة ، واضطراب أمور بيزنطة في تلك الأيام (٥٨) .

وكان يليان حليفاً لملك إسبانيا غيطشة (Witiza) الذي تولىّ عرش البلاد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه إخيكا (Egica) ، وقد خُلع غيطشة عن العرش على أثر ثورة قام بهـا نفرٌ من أنصار لذريق (٥٩) (Robrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش الاسباني نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبّوا على هـذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشّرعيّ ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ، ظلّت مستمرّة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفرّ ابن غيطشـة المدعو وقلة (Achila) الذي تولىّ العرش بعـد أبيه إلى إفريقيّة ، وأقام عند يليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه

(٥٧) . ذكر الحميري أن يوليان هذا ، كان عامل لذريق على سبتة – انظر الحميري – صفة جزيرة الأندلس – نشره ليفي بروفنسال – القاهرة – ١٩٣٧٧ م .

(٥٨) . انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ – ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣–٥٤) .

(٥٩) . ورد اسمه في تاريخ الطبري (٢٤٥/٥) : ادرينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) : لذريق ، وفي ابن الأثير (٢١٣/٤) : رذريق ، وفي ابن خلدون (١١٧/٤): لذريق ، وفي اليعقوبي (٢٩/٣) : أدريق .

للملك غيطشة وأولاده ، بينما استبقى لذريق ولدى غيطشة الآخرين وهما : أرطباس (Arzavasdcs) والمند (Almundo) إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة . وساءت حال البلاد في عهد لذريق ، اذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة ، لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه . ويبدو أنّه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطيّة ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في طُلَيْطِلَة (٦٠) . فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يُصغ لنصحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب ، وهي أسطورة بيت الحكمة (٦١) .

وقد حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يُلْيَان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، بعد أن كان قسم من العلماء الغربيين ، قد ذهبوا إلى أنّه شخصيّة أسطوريّة خلقها خيال العرب (٦٢) .

---

(٦٠) . طيليطلة : مدينة كبيرة في الأندلس ، على شاطي نهر تاجة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٥٦) وتقويم البلدان (١٧٦ - ١٧٧) .

(٦١) . خلاصة هذه الأسطورة ، أنه كان في طليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط . وكانت العادة ، أنه إذا تولى من القوط ملك ، زاد على البيت قفلا ، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكابرهم ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن انه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، الا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل ، فأمر بفتح التابوت ، فألفاه فارغاً ليس فيه شيء غير شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم ، متقلدي السيوف ، متنكبي القسي ، رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت فاذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصورة ، فأن الأمة المصورة قد تغلب على الأندلس وتملكها .

انظر التفاصيل حول هذه القصة في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ - ٣٣) والبيان المغرب (٢/٤) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/٢٣١ - ٢٣٢) و (١/٢٣٥) .

(٦٢) . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٥٢ - ٥٣) .

وقد عرف المسلمون يليان أوّل مرّة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٩ م) ، وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة ، وكان الودّ معقوداً بينه وبين يليان (٦٣) . فلما أراد المسلمون فتح سبتة ، دافع عنها يليان دفاعاً شديداً ، واستطاع صدّ المسلمين عن فتحها ، كما ذكرنا ذلك (٦٤) .

وكان موسى يتوق إلى افتتاح سبتة ، وتطهير إفريقية من البقيّة الباقية من الأعداء . وبينما كان يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنيّة ، جاءته رسالة من يليان ، يعرض فيها تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح إسبانيا . وتختلف الروايات في أمر هذا الاتّصال ، فيقال إنّ موسى ويليان اتّصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتّصلا بالمقابلة الشخصيّة ، وأنّ يليان استدعى موسى إلى سبتة ، وهناك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنّهما اجتمعا في سفينة في البحر (٦٥) . وتقول روايات أخرى ، بأنّ يليان سار إلى طارق بن زياد والي طنجة ، وأخبره بأنّه مستعد للتعاون مع جيشه في حربه إسبانيا أرض القوط (٦٦) . ولا تناقض بين تلك الروايات ، كما يبدو ذلك لأول وهلة ، فالذي حدث هو أنّ يليان فاوض موسى بن نُصَيْر أولاً ،لأنّه القائد العام في إفريقيّة،فلما عادموسى إلى القيروان أكمل يليان مفاوضاته مع طارق بن زياد ، لأنه قائد المنطقة القريبة منه والمسئول عن المنطقة والمخوّل من القائد العام موسى بن نصير لاكمال المفاوضات . وقد كان طارق رجلاً سياسياً بحق بعيد النظر ، فصادق يليان ليستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر ، وهم كثيرون »(٦٧) .

(٦٣) . فجر الأندلس (٥٤) .
(٦٤) . راجع ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢) ، وانظر : أخبار مجموعة (٥) وفتح الأندلس (٣ -) .
(٦٥) . النويري (٢٥/٢٢ - ٢٦) والحميري (٧ - ٨) ونفح الطيب (٢٥١/١ - ٢٥٣) .
(٦٦) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وتاريخ افتتاح الأندلس (٧-٨) والبيان المغرب (٦/٢ - ٧) وابن خلدون (٢٠٣/٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١ - ٢٣٣) .
(٦٧) . فجر الأندلس (٥٤ - ٥٥) .

ومن الواضح أنّ السّلام الذي رفرفت راياته على المسلمين ويليان سببه المباشر، انقطاع المدد من إسبانيا بعد رحيل غيطشة وتولى لذريق ، ذلك المدد الذي أعانه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين . فلما انقطع المدد لانشغال لذريق عن يليان بالاضطرابات الداخلية ، كما سيرد تفصيل ذلك ، أصبح يليان ضعيفاً أمام المسلمين وأصبح ثباته في سبتة تجاه تفوّق المسلمين وانتشار الاسلام في البربر انتشاراً واسعاً صعباً للغاية ، لذلك فاوض موسى وطارقا ، وقام السّلام بين يليان والمسلمين، وأصبح التعاون بين الجانبين ممكناً وقائماً .

وسبب إقدام يليان المباشر على عرض تعاونه في فتح الأندلس قائم على أساس أنّ لذريق اعتدى على شرف ابنة يليان ، فحقد يليان على لذريق وأقسم على الانتقام منه (٦٨) .

ويرى أكثر المؤرخين العرب ، أنّ السبب الرئيس لفتح الأندلس ، هو قصّة ابنة يليان التي اغتصبها الملك لذريق واعتدى على شرفها قسرا ، ولكنّ بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم قسم من المستشرقين ، يرون بأنّ قصّة ابنة يوليان في بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع ، وقد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين (٦٩) . وهناك مايسوّغ التّشكيك في هذه القصّة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين ، والهدف من هذا التشكيك واضح ومفهوم ، ولكن متابعة المؤرخين العرب والمسلمين للأجانب في هذا

---

(٦٨) . مجمل القصة ، أن يليان أرسل ابنته إلى بلاط لذريق لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك ، وقد سحر جمالها الملك الذي حاول أن ينال منها ، فقاومته ورفضت ، فلجأ الى العنف واغتصبها رغم ارادتها ، انظر التفاصيل في : أخبار مجموعة (٥) وابن الأثير (٤/٥٦٠ – ٥٦١) والنويري (٢٢ – ٢٥ – ٢٦) والحميري (٧) ونفح الطيب (١/٢٥١–٢٥٣).

(٦٩) . قارن : Saavedra'pp, 58 - 59 وفجر الأندلس (٥٩ – ٦٠) ومحمود علي مكي – ملحمة آخر ملوك القوط – المجلة (٣٠ – ٣٥) – العدد ٧٤ – ١٩٦٣ ومحمد عبدالله عنان – دولة الاسلام في الأندلس (١/٣٥ – ٣٧) والفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٠) .

التشكيك في هدفه غير واضح ولا مفهوم ، ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب شككوا في وجود شخصيّة يليان وذهبوا إلى أنّه شخصيّة أسطوريّة خلقها خيال العرب ، كما ذكرنا قبل قليل ، فتابعهم في هذا التشكيك قسم من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة . حتى إذا حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يليان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، عاد المقلدون إلى متابعة الغربيين من جديد ، فكانوا في كلتا الحالتين مقلّدين ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص .

وقصّة ابنة يليان تنتظر مَن يحقّق وقوعها من المؤرخين الغربيين لتصبح حقيقة بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير . ولا أرى أنّ تلك القصة لا يمكن حدوثها ، وبخاصة في تلك الأيام التي اتّسمت بالانحراف الذي أصبح قاعدة في القوط ، وبالاستقامة التي أصبحت استثناءاً فيهم ، كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته غصبا ، كما أنّ ذكرها في المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيّد وقوعها ، ولا عبرة بالمصادر التي لم تتطرّق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى ، إذ لو كانوا لايصدّقونها لأبدوا رأيهم حولها ، ولكنهم لم يفعلوا (٧٠) ، ومثل هذه القصة تكرّرت قديماً في محيط الواقع ولا تزال تتكرر ، وأكثرنا سمع أمثالها ، فلماذا نكذّبها ، ونكذّب قصة ابنة يليان لأنّ مصادرها المعتمد عربيّة إسلامية ؟ !

ولست مع الذين يُشككون في هذه القصة ، ولكنني لا أراها السبب الرئيس لتعاون يليان مع المسلمين ، بل السبب الرئيس هو أنّه كان يتلقى الامدادات عَدداً وعُدَداً من إسبانيا في عهد غيطشة (٧١) ، ولكن عندما جاء لذريق

(٧٠) . البلاذري (٢٣٠ - ٢٣١) برواية الواقدي ، والبيان المغرب (٢/٦) برواية الواقدي و (٢/٤) برواية عريب بن سعد ، وابن الشباط (١٠٥ - ١٠٦) برواية عريب بن سعد.

(٧١) . اخبار مجموعة (٤) .

الى العرش ، وبسبب مشاكله الداخليّة، توقف عن مساعدة يليان، فاستاء يليان من هذا التوقف ، وبدأ بالتعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد على القوط في إسبانيا ، خاصة بعدما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة ، وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجاً .

ويمكن أن نلخِّص أسباب فتح الأندلس بثلاثة أسباب رئيسة : الأول ، نشر الاسلام واعلاء كلمة الله في الأرض . إنّ الفاتحين حملوا الاسلام الى الناس بالفتح ، ولم يحملوا الناس بالفتح على الاسلام .

والثاني ، ترصين الفتح الأسلامي في شمالى إفريقيّة بعامة ، وفي منطقتي طنجة وسبتة بخاصة ، وذلك بفتح الأندلس ، فكما كانت منطقتا طنجة وسبتة تعتبران الخط الدفاعي الأمامي عن الأندلس ، فانّ الأندلس تعتبر الخط الدفاعي الأمامي للدفاع عن منطقتى طنجة وسبتة . وقد رأينا كيف قاومت سبتة المسلمين الفاتحين مقاومة عنيفة ، وثبتت تجاه محاولاتهم المتكرِّرة لفتحها ، بفضل الأمدادات التي كانت تردها بحراً من القوط في إسبانيا ، فلما تخلّى القوط عن تزويدها بالأمدادات صالحت المسلمين أو استسلمت لهم على أصح تعبير ، لأنها عجزت عن مقاومتهم .

إنّ وجود قوّات معادية قويّة في الأندلس ، خطر على الفاتحين وعلى مصير الفتح وبخاصة في منطقتي طنجة وسبتة ، لذلك بادر المسلمون بالتعرّض بالقوط في الأندلس وفتح هذه البلاد ، والهجوم هو أجدى وسيلة للدفاع .

والثالث ، هو معاونة يوليان للمسلمين وتعاونه معهم في الفتح ، وتشجيعهم عليه وحثّهم على إنجازه ، فقد سهّل يليان على المسلمين الفتح بدون شك ؛ ولكنّهم كانوا يُقْدِمون عليه حتى لو لم يتعاون معهم يليان ولم يعاونهم ، فذ لك كان قدرهم في تلك الأيام .

ب ــ الاستطلاع :

بدأ موسى بن نصير استشارته للخلافة في دمشق ، وكان الخليفة حينذاك هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ ــ ٩٦ هـ) بعد اتصالاته بيليان ، أو قبل اتّصالات يليان بموسى . وقد تردّدت الخلافة باديْ الأمر بالموافقة على القيام بمثل هذه العمليّة الكبيرة ، خوفاً على المسلمين من ركوب البحر ، ومن مصاعب القتال بحراً وبرّا ، وهي تعلم أنّ خبرة العرب المسلمين في فنون القتال البحري قليلة جداً ، وربما كان يدور في خلدها وصف عمرو بن العاص للبحر في رسالته إلى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه التي جاء فيها : « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلاّ السمّاء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرّك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قِلّةً ، والشكّ كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق . . . . » . . . . .

ولكنّ موسى بن نُصَيْر ، أقنع الخليفة الوليد بن عبد الملك بالأمر ، فتمّ الاتّفاق على أن يسبق الفتح اختبار مواقع الانزال بالسرايا الاستطلاعيّة .

وأرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجريّة (٧١٠ م) سرية استطلاعيّة إلى جنوبي الأندلس ، مكوّنة من خمسمائة مجاهد ، منهم مئة فارس والباقي مُشاة ، بقيادة طَريف بن مالك الملقّب بأبي زُرْعَة ، وهو مسلم من البربر (٧٢) .

وعبر هذا الجيش الزُّقاق ، والزُّقاق اسم يطلق أحياناً على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقيّة (٧٣) ، من سبتة ، بسفن يُليان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما Jsla de Las Palomas في الجانب الاسباني ، وعُرفت

(٧٢) . نفح الطيب (١٦٠/١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣) والروض المعطار (٨ و١٢٧) والبيان المغرب (٥/٢) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٥) .

(٧٣) . تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط ، وللروض المعطار (٨٣ و١٢٧) ومقدمة ابن خلدون (٤٢٧/١) ونفح الطيب (١٢٧/١ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢) .

هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القــائد جزيرة طَريف(٧٤) (Tarifa) . ومن ذلك الموقع ، الذي اتخذه طريف قاعدة أمامية متقدِّمة لعملياته الحربية ، قام طريف وسريته الاستطلاعيّة القتاليّة ، بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الجنوبي الأندلسي بارشاد يليان ، وخفّت قوّة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعون المسلمين ، كما قامت تلك القوة بحراسة موقع إنزال المسلمين في أرض الأندلس ، للاستفادة منه في مرحلة العودة من غارتهم الى قاعدتهم الرئيسة على البر الافريقي في منطقة طنجة ، وكانت نتيجة الغارة الاستطلاعية التي قادها طريف ، أنّ المسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وقوبلوا بالاكرام والترحيب ، وشهدوا كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، وعادوا في أمنٍ وسلام ، وقصّ قائدهم على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفتح ، وجدّ في أهبة الفتح ، كما تشجّع موسى وأخذ يستعدّ لارسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام (٧٥) .

لقد كانت مهمة سرية طريف ، مهمة استطلاعية ، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض ، والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم ، وتفاصيل قياداتهم ومبلغ الثقة المتبادلة بين القيادة والسكان ، ومبلغ حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وكان لقيام طريف بعدة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة (٧٦) نتيجة مهمّة واحدة ، هي عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح وبالنسبة للمسلمين الفاتحين .

---

(٧٤) . دولة الاسلام في الأندلس (٤٠/١) وفجر الأندلس (٦٧) ، وانظر الفتح والاستقرار العربي والاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٢) .

(٧٥) . Saavedra. op. cit. pp, 64,

(٧٦) . أخبار مجموعة (٦) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٥) وذكر بلاد الأندلس(٨٤) وابن الأثير (٥٦١/٤) والبيان المغرب (٥/٢) والنويري (٢٦/٢٢) ونفح الطيب (١٦٠/١) و (٢٥٣/١ – ٢٥٤) .

ولكن مهمّة سرية طريف الاستطلاعية ، لا تقتصر على هذه الناحية حسب ، بل تتعدّاها الى استطلاع حقيقة نوايا يليان ومن يشايعه تجاه السُّلطة القائمة في الأندلس والمتمثلة بالملك لذريق ، وحقيقة نواياه ومَنْ يشايعه تجاه المسلمين الفاتحين ، وقد أثبتت مهمة سرية طريف الاستطلاعية ، أنّ يليان ومَنْ يشايعه يحقدون على لذريق ولا يتأخرون عن التشبّث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه ، وأنهم من أجل التنفيس عن حقدهم عملياً ، يضعون كلّ طاقاتهم المادية والمعنوية للتعاون مع المسلمين في ميدان القتال ومعاونتهم . وكان التأكد من تلك النوايا ، ضرورياً لاستكمال الاعداد للفتح ، وقد تأكد لموسى وطارق ، أنَّ يليان ومَن يشايعه صادقون في معاونتهم وتعاونهم مع المسلمين الفاتحين ، وأنّ عرضهم التعاون والمعاونة ليس خدعة ، بل حقيقة لا غبار عليها .

وقد وصفت المصادر العربية هذه العملية ، فذكرت أنّ موسى بن نُصَيْر كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك بالذي دعاه إليه يُلْيَان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خضها بالسَّرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . وراجعه ، أنّه ليس ببحر زخّار ، إنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه . فكتب إليه : وإن كان ، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذاك رجلاً من مواليه اسمه طريف ، يُكنىّ : أبا زُرعه ، في أربعمائة رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل في جزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم : « جزيرة طريف ، لنزوله بها » (٧٧) .

وهذا مثال لحرص المسؤولين يومئذ ، قادة وخلفاء ، على أرواح المسلمين ، وقد أدى طريف ومَن معه واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام .

---

(٧٧) . نفح الطيب (٢٥٣/١) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان لا بن خلكان(٣٢٠/٥) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٦) .

٢ ـ الفتح :

أ ـ الخطة العامّة :

جهّز موسى بن نُصَيْر جيشاً تعداده سبعة آلاف جندي من البربر ، ليس فيهم من العرب المسلمين إلاّ القليل (٧٨) ، وينتمي البربر في هذا الجيش إلى قبيلة مَصْمُودَة وغيرها من القبائل البربريّة مثل جراوة ، ومطغرة ، ومكناسة ، ومَدْيُونَة (٧٩) ، وضمّ الجيش سبعمائة مقاتل من السودان (٨٠) ، ويمكن أن يكون هؤلاء السودان من المتطوّعة الذين اعتنقوا الاسلام ، فكان لهم دور كبير في مساعدة طارق في الفتح ، لأنّ قتالهم كان قتال المجاهدين الصادقين لا قتال المجنّدين المرتزقة الذين جُلبوا إلى ميدان القتال قسراً .

وعبر طارق بجيشه البحر تباعاً من سبتة في سفن يليان التجارية (٨١) ، وكان عبوره من سبتة بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للانزال على الشاطىء الاسباني في منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة ، ولكنّ طارقاً تخلّى عن الانزال في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع إنزال قوّاته ، فأبحر منه ليلاً إلى مكانٍ وعرٍ من الشاطىء . وقد حاول تسهيل عمليّة الانزال (الابرار) ، باستخدام المجاذيف والبراذع الخاصة بالسيول ، التي أُلقيت على الصخور لتلافي خطرها ، وبهذه الطريقة تمكّن طارق من الانزال المفاجىء من غير أن يراه أحد من العدو على الشاطىء (٨٢) .

---

(٧٨) . الروض المعطار (٩) ونفح الطيب (٢٣١/١ و ٢٣٩ و ٢٥٤) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) .

(٧٩) . ومصمودة من البرانس ، وجراوة من زناتة التي هي من البتر ، ومطغرة من البتر أيضا ، ومكناسة من البتر ايضاً ، وكذلك مديونة ، انظر ما جاء حول مشاركة هذه القبائل البربرية في جيش طارق الفاتح في : عبيدالله بن صالح (تحقيق بروفنسال ص (٢٢٤) وعبيدالله بن صالح (المخطوط) ص (٢٨) وابن خلدون (٢٣٩/٦ و ٢٥٦ و٢٦٥ و٤٦٢) ، وانظر : الفتح والا ستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس(١٦٢).

(٨٠) . ذكر بلاد الأندلس (٨٤) رقم ٨٥ ج وفتح الأندلس (٨٥) .

(٨١) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٦) ، وقارنه Gayangos. vol. 1. pp. 519 - 520

(٨٢) . ابن الكردبوس (٤٦) وانظر البيان المغرب (٩/٢) .

وقد نُفذّت عملية الانزال في الليل ، واستغرق الانزال أكثر من ليلة واحدة ، بسبب قلة المراكب ، التي كانت دائبة على نقل الرجال بين الشاطئين إلى أن تمّ إنزال جيش طارق بسلام على أرض إسبانيا . ويقول بعض المؤرخين : إنّ طارقاً كان آخر مَن عبر إلى إسبانيا (٨٣) ، ويقول آخرون إنه أبحر في اللّيل مع أوّل جماعة ، وإنه أخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية ، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لتعود ببقية رجاله (٨٤) ، وعلى ذلك فيكون طارق قاد فعلاً المجموعة الأولى من قوّاته إلى الشاطيء الاسباني ، ولكن ما إن هبطت هذه المجموعة بسلام ، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة ، لكي يشرف على نقل بقية رجاله بنفسه ، ومن ثم أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال .

وتمّ الانزال على صخرة تسمى : جبل كالبي (Mons Calpe) التي أتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم ، فأصبحت تسمى : بجبل طارق ، وجرى الانزال يوم الأثنين الخامس من شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٨٥) (٢٧ نيسان — أبريل — سنة ٧١١ م) .

وهكذا يكون القائد الحق ، يُشرف على إنزال الوجبة الأولى ، لأنّ إنزالها يكون من أخطر الوجبات ، ولأنّها تكون رأس الجسر للقوات التي يجري إنزالها بالتعاقب ، فيشرف القائد على إنزال سائر الوجبات ، حتى يكون مع وجبة الانزال الأخيرة ، ليطمئن أنّ قوّاته أكملت عبورها ، وجرى إنزالها في المكان المناسب ، ويتأكد من عدم تخلّف فرد من أفراد قوّاته عن العبور لسبب من الأسباب .

ولكن ، لماذا استعان طارق بسفن يُليان التجاريّة ؟

---

(٨٣) . البيان المغرب (٢/٦) ونفح الطيب (٢٥٤/١) .
(٨٤) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥ — ٢٠٦) .
(٨٥) . نفح الطيب (١١٩/١) والبيان المغرب (٢/٦) .

« كان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك ، ويظنون أنّ المراكب تختلف بالتجّار » (٨٦) ، وهذا يدلّ على أنّ طارقاً استعان بسفن يليان التجارية ، لأنه أراد أن يحيط عمليّة الانزال بالسرية التامّة ،وذلك باستعمال مراكب تجارية لا تعود للمسلمين ، لا لأنّ المسلمين لا يمتلكون السُّفن الكافية .

ومن الواضح ، أنّ المسلمين حينذاك ، كانوا يمتلكون سفنهم الخاصة بهم ، فقد كان اهتمام المسلمين بصناعة السُّفن مبكراً ، إذ أدركوا حاجتهم إليها ، فأقاموا عدّة دور لصناعة السُّفن ، مثل دار الصناعة في تونُس التي التي أقامها حسّان بن النُّعمان الغسّانيّ (٨٧) ، بل إنّ معركة كاملة خاضها المسلمون على شواطىء تونس سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة أو أربع وثلاثين الهجريةوهي معركة ذات السّواري ، استخدموا فيها أسطولهم المكون من مئتي سفينة (٨٨) .

وكان قد مضى على فتح الشمال الافريقي عقود من السنين قبل فتح الأندلس ، وكانت شواطئه الطويلة الممتدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الرُّوم) والأطلسي ،تجعل المسلمين بحاجة إلى السُّفن. وهو أمر لايتم بالاعارة والاستئجار . وقد سبق للمسلمين نشاط بحريّ انطلق من شمالى إفريقية ، ففي سنة ست وأربعين الهجريّة . وجّه معاوية بن حُدَيج (٨٩) والي إفريقية أُسطولاً عدّته

---

(٨٦) . البيان المغرب (٦/٢) .

(٨٧) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١٧٦/١ - ٢٢٠) ، وانظر كتاب : وصف افريقية (٣٨ - ٣٩) حول إنشاء دار الصناعة في تونس ، وانظر كذلك : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لا بن أبي دينار (١٥ و ٣٥) .

(٨٨) . انظر الاستيعاب (٩١٩/٣) والعبر (٣٤/١) ، وانظر تاريخ علماء الأندلس لا بن الفرضى (٣١١/١) .

(٨٩) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٩/١ - ١٣٦) .

مئتا سفينة لفتح جزيرة صِقِلّية (٩٠) . وفي سنة ست وثمانين الهجرية وجّه موسى بن نُصَير حملة على صِقِلِّيَّة محمولة على مراكب صُنعت في تونس(٩١).

وكل ذلك يؤكد أنّ للمسلمين دور صناعتهم ، ولكن استعانة طارق في عبور قوّاته بسفن يليان كان لتأمين مباغتة القوط الكاملة ، لا عن حاجة للسفن ، وبعد انكشاف حركة إنزال المسلمين الأولى ، نُقل المدد الى طارق بالسفن الاسلامية : « وكان موسى منذ وجّه طارق لوجهه ، قد أخذ في عمل السُّفن ، حتى صار عنده منها عدّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً » (٩٢) .

وجرى تجمّع جيش طارق بعد اكمال إنزاله في الطرف الاسباني ، على جبل طارق عُرف فيما بعد باسم : جبل طارق (٩٣) (Gibraltar) ، كما عرف به المضيق باسم : مضيق جبل طارق ، وبكل اللغات ، وهذا ذكرى لطارق وعملية إنزال جيشه ، وتخليد لبطولته .

ومنذ بدأ إنزال جيش طارق على السّاحل الأندلسيّ ، بدأ رجال طارق بتحصين موضع الانزال ، الذي أصبح منطقة التجمع لجيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات (٩٤) ، « فلما حصلوا في الجبل ، بنوا سوراً على أنفسهم يسمى : سور العرب ... الخ » (٩٥) ، فشكّك بعض المؤرخين الغربيين وتابعهم في هذا التّشكيك بعض المؤرخين العرب المسلمين

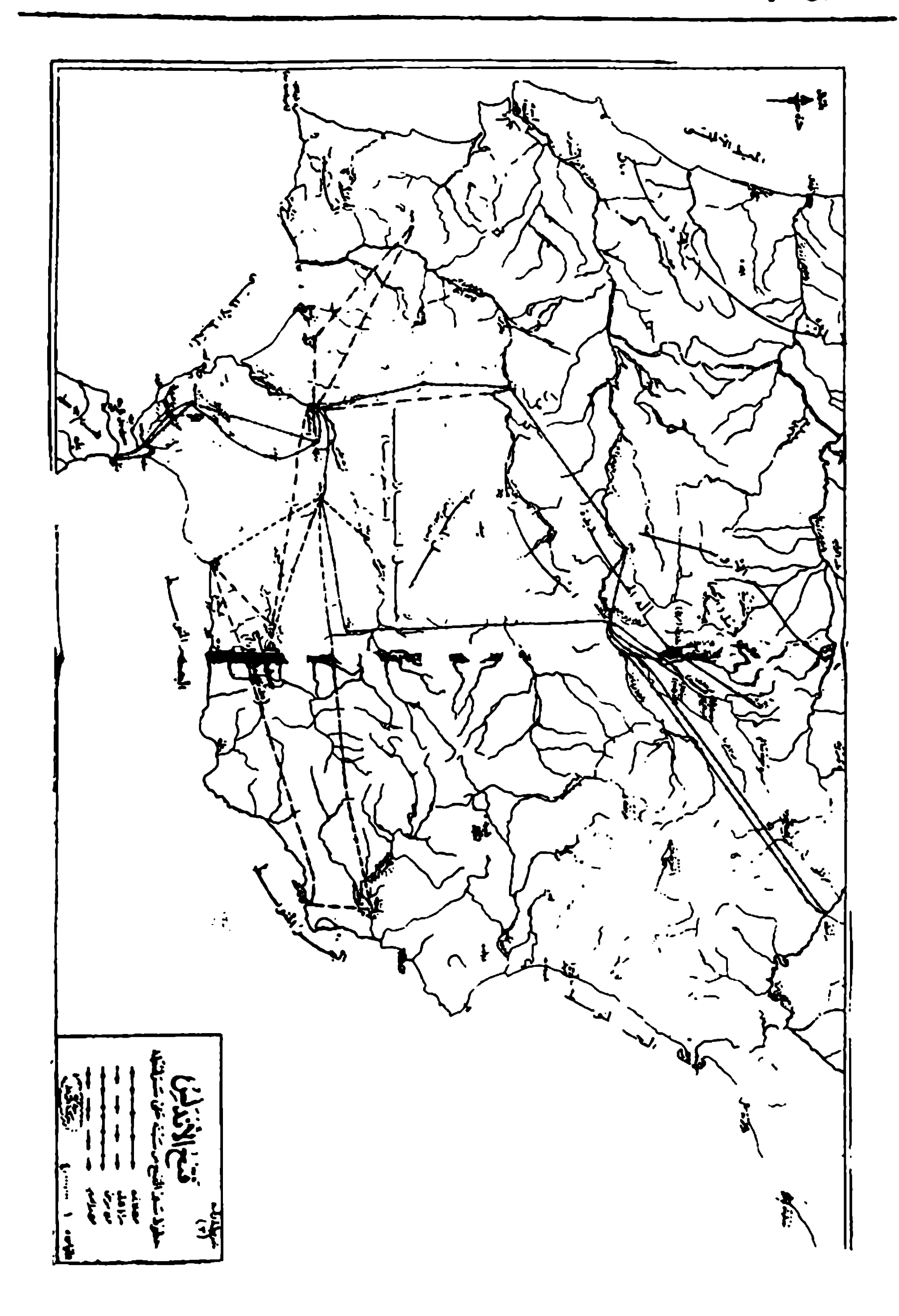
(٩٠) . البيان المغرب (١٦/١ – ١٧) .
(٩١) . البيان المغرب (٤٢/١) .
(٩٢) . نفح الطيب (٢٥٧/١) .
(٩٣) . نفح الطيب (١٤٥/١ – ١٤٦ و ١٥٩ – ١٦٠) .
(٩٤) . ذكر بلاد الأندلس (٨٤ – ٨٥) والبيان المغرب (٩/٢) وابن خلدون (٢٤٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١) .
(٩٥) . البيان المغرب (٩/٢) .

تقليدا ، فقالوا من جملة ما قالوا : « ومن غير المحتمل . أن يكون طارق قد حصّن منطقة تجمّع جيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات ، لأنّ هدفه الأول لم يكن البقاء على الصخرة ، بل فتح المناطق المجاورة للجزيرة الخضراء ، والسيطرة على الجانب الاسباني من المضيق . لحماية تجهيزاته ومواصلاتها في شمالي إفريقية » ، وهذا هو مجمل ما جاء في تشكيكهم أو اعتراضهم . على ما ورد في المصادر العربية المعتمدة حول التحصين .

ومن الواضح ، أنّ المؤرخين الغربيين الذين اعترضوا على ما سجّلته المصادر العربية ، حول تحصين منطقة تجمّع جيش طارق في جبل طارق ، وشايعهم على اعتراضهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين ، لم يفهموا المعنى الدقيق للتحصين الذي سجّلته المصادر العربية المعتمدة ، فحفر الخنادق في المواضع الممكن حفرها هو تحصين ، فاذا كانت الأرض صخرية كما هو الحال في منطقة جبل طارق ، فانّ التحصين يتمّ باقامة جدار من الصخور المتيسّرة والأحجار . يحتمي وراءه المقاتلون من سهام العدو المصوّبة نحوهم ليلاً أو نهاراً . وإقامة الجدار للحماية بالصخور والأحجار هو تحصين أيضاً ، وهو ما قصدته المصادر العربية المعتمدة ، لا إقامة الحصون المشيدة ، كما فهمها بعض المؤرخين الغربيين ومَنْ شايعهم من المؤرخين العرب والمسلمين . والمدنيوّن الذين لم ينتسبوا للسلك العسكري في يوم من الأيام معذورون في سوء فهمهم لتعبير : التحصين (٩٦) ، كما ينبغي .

---

(٩٦) . في الكليات العسكرية ، يتلقى الطلاب درساً مهما هو درس : التحصين ، يتدربون فيه على حفر انواع الخنادق ، في الأماكن الممكن حفرها ، واقامة المنعات من الحجارة والصخور وزرع الربايا في المناطق الجبلية ، ثم يعملون في التمارين التعبوية على تحصين مواقعهم بالخنادق او الصخور والحجارة فور الوصول اليها ، حتى ولو كان بقاؤهم فيها مدة قليلة جداً ، وعملهم في الحفر وإقامة المنعات والربايا الصخرية ، يسمى . التحصين ، وهو من اول واجباتهم بعد وصولهم الى اي موقع من المواقع . وفي اللغة ، حصن المكان : منع .


فتح الأندلس

إنَّ من واجب كلّ مقاتل ، أن يحصِّن موقعه ، حتى ولو بقي فيه ساعة من نهار أو ليل ، ومن واجب القائد ورجاله ألاّ يغفلوا عن تحصين مواقعهم ، استعداداً لأسوأ الاحتمالات ، وذلك للدفاع تجاه تعرّض معادٍ محتمل ، فهذا هو دأب القائد الجيِّد والمقاتلين الجيِّدين .

وهكذا أصبح لجيش طارق رأس جسر على برّ الأندلس ، ومنطقة تجمع في جبل طارق ، أصبحت بعد تحصينها قاعدة أماميّة متقدّمة ، يستند أليها ذلك الجيش ، في انطلاقه نحو أهدافه لفتح الأندلس ، تحقيقاً لخطة الفتح المرسومة .

(ب) المناوشات التمهيديّة :

لم يكد طارق يكمل تحصين منطقة تجمّع جنده في جبل طارق ، حتى أصبحت تلك المنطقة قاعدة أمامية متقدمة أَمِيْنَة للمسلمين ، صالحة للانطلاق منها للفتح . وحين فرغ من تحصين قاعدته الأمامية المتقدمة ، أرسل أحد قادته المرءوسين . وهو عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري على رأس فرقة مختارة من رجاله . سارت بحذاء . الساحل شمالاً بغرب . فاستولت على مدينة من مدن الأندلس اسمها : قَرْطاجَنَّة الجزيرة(٩٧)(قرطاية Carteya Torrede Cartagena) ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء (٩٨) (Algeciras) في مقابل جبل طارق وهناك وقعت مناوشات مع قوات القوط ، انتصر فيها المسلمون . ويذكر صاحب تحفة الأنفس . أنّ قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق . « فاقتتلوا ثلاثة أيام . وكان على القوط تُدْمير ، استخلفه

(٩٧) . قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس ، تعرف بقرطاجنة الخلفاء ، قريبة من آلش ، من أعمال تدمير ، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بافريقية ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) والمشترك وضعاً (٤٣٢) ، وانظر ما جاء حول هذا الفتح في البيان المغرب (٣/٢) .

(٩٨) . الجزيرة الخضراء مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي ، وهي مدينة طيبة نزهة توسطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ - ١٧٤) .

لذريق ملك القوط ، وكان قد كتب إلى لذريق ليعلمه بأنّ قوماً لا يُدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السّماء ، قد وطئوا إلى بلادنا ، وقد لقيتهم ، فلتنهض إليّ بنفسك »(٩٩) . وتُدمير هو تيودومير القوطي ، عامل لذريق على تلك المنطقة من الأندلس وقائدها ، وكانت بامرته قوات محلية تابعة لعامل لذريق وبقيادته ، فكان الاصطدام الأول بين المسلمين وقوات القوط ، اصطداماً على نطاق الجيش المحلي أو القوات المحلية لمنطقة جنوبي الأندلس ، ولم يكن اصطداماً على نطاق القوّة الضاربة للملك القوطيّ . وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كلّه بيد المسلمين فعهد طارق الى يليان ومن معه من الجند ، حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم متوقع ،وأمن المسلمون من أن يعبر عدوّ إلى مواقعهم عند جبل طارق ، فيهدّد تلك المواقع وطريق مواصلاتهم التي تربطهم بقواعدهم في إفريقية (١٠٠)

وسارع لذريق بأرسال ما تيسر له من قوات خفيفة بقيادة ابن أخيه بَنْج (١٠١) (Banj) وهو (بالاسبانية Sancho أو Bancho) ولكن طارقا قضى على تلك القوّات ،ولم ينج من جندها إلاّ واحد اسمه : بِلّياسِن (Beliasin Williesindo) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بَنْبُلُونَة (١٠٢)، وأخبره نزول المسلمين البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب ، حتى دخل قُرْطُبَة (١٠٣) ، ثم أخذ يستعد للحركة جنوباً للقاء المسلمين (١٠٤) . ومن الواضح أنّ بلياسن

---

(٩٩) . تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ص (٧٠) – علي بن عبدالرحمن بن هذيل .

(١٠٠) . Saavedra, pp . 65 .

(١٠١) . البيان المغرب (٢/١٠) .

(١٠٢) . بنبلونة : مدينة أندلسية ، في غربي الأندلس ، خلف جبل الشارة ، انظر تقويم البلدان (١٨٠ – ١٨١) .

(١٠٣) . قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، كانت عاصمة لملكها وقصبتها، انظر– التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٧/٥٢) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) .

(١٠٤) . نفح الطيب (١/١٤٩) .

حمل إلى لذريق أخبار إبادة قوات ابن أخيه بنج الخفيفة ، وأنّ الذي حمل إليه أخبار إنزال العرب في الأندلس هو تدمير .

وأقصد بالقوات الخفيفة ، القوات التي تتحرك بسرعة على ظهور الخيل ، ومن المحتمل أنّ تلك القوات جُمّعت من القوات القوطية المحلية ، وقد أصبحت خيولهم غنائم للمسلمين (١٠٥) .

والذي يبدو ، انّ قرار لذريق السريع ، بعد علمه بانزال المسلمين في جبل طارق ، وفتحهم جنوبي إسبانيا بالكامل تقريباً ، وتوقعه أن ينطلقوا شمالاً لاستكمال الفتح ، هو أنه أمر ابن أخيه بنج ، أن يلتقي بالمسلمين على عجل ، ويحاول إيقاف تقدمهم في الأندلس أولا ، وإجلاءهم عن الساحل الذي فتحوه ، ليعودوا من حيث أتوا إلى قواعدهم الأمامية في سبتة وطنجة . ولتحقيق النّصر على المسلمين ، عمد بنج إلى حشد قواته المحلية الخفيفة من الخيّالة ، وأسرع نحو الجنوب لمواجهة المسلمين الفاتحين . دون أن يعرف أنّ المسلمين كانوا في مواضع حصينة لا يسهل التغلب عليها . وفي معنويات عالية تساعدهم على التغلب بسهولة وسرعة على عدوّهم . ولهم قيادة واعية تحسب لكلّ شيء حسابه وتضع الحلول المناسبة لما قد يصادفها من معضلات ، ولهم جنود من المجاهدين الذين يتوخّون إحدى الحُسْنَيين: النصر أو الشهادة . ولديهم مخابرات نشطة ترصد لهم تحركات العدو وسكناته ، وتجعلهم يجاهدون وهم في النور لا في الظلام .

وكان نتيجة المعركة التصادفية التي خاضها بنج على رأس قواته المرتجلة ، نكبة قاصمة للظهر عليه وعلى قواته . فلم ينج منهم إلاّ واحد نجا باعجوبة ، ليحمل أنباء الكارثة التي حلّت ببنج وقواته إلى الملك لذريق .

---

(١٠٥) . الرازي – نشر سافيدرا (١٤٩ – ١٥٠) والبيان المغرب (٢/٨) .



والسبب في عدم إرسال لذريق قوات كافية من القوات التي بامرته ، هو بعد تلك القوات عن مسرح العمليّات ، حيث كانت في أقصى الشمال ، ومسرح العمليّات في أقصى الجنوب ، وتنقّل القوات من الشمال إلى الجنوب يحتاج إلى وقت طويل ، يؤدي إلى ترصين مواضع المسلمين وتقويتها ، في وقت يكون فيه القوط بحاجة ماسة إلى السّرعة ، للتغلب على المسلمين الفاتحين قبل أن يرسخوا اقدامهم في الأندلس ، لذلك كان قرار لذريق السريع ، هو تكليف ابن أخيه بقيادة قوات خفيفة ، للتغلب على الفاتحين بسرعة قبل فوات الأوان ، فأخطأ لذريق في إصداره مثل هذا القرار السريع ، لأنه لم يكن على علم يقين بأنّ المسلمين جاءوا إلى الأندلس فاتحين ليبقوا فيها ، ولم يأتوا إليها بغارة للمغانم ثم يرحلوا عنها . كما أخطأ بنج بعدم اطّلاعه على واقع المسلمين الفاتحين مادياً ومعنوياً ، وبعدم كفاية قواته عدداً وعُدَداً للنهوض بواجبها كما ينبغي ، في تحقيق النصر على المسلمين الفاتحين .

وقد كان لمرحلة : المناوشات ، من مراحل فتح الأندلس ، نتائج عظيمة على الطرفين المتحاربين : المسلمين ، والقوط ، فقد ارتفعت معنويات المسلمين ، نتيجة لانتصاراتهم على القوط ، وبقيادتهم الواعية القادرة . كما أصبح للمسلمين قاعدة متقدّمة أمامية محصّنة ومحروسة ، يمكن الاعتماد عليها والانطلاق منها للفتح . كما ازدادت معلومات المسلمين الفاتحين عن قيادة عدوّهم وقواتهم ، وطبيعة بلادهم ، ونقاط ضعفهم وقوتهم ، فاستغلوا هذه المعلومات المفيدة للغاية في الجهاد . وهذه النتائج الثلاث مجتمعة ، أدت إلى إصرار المسلمين قيادة وجنوداً على استكمال الفتح حتى يشمل الأندلس بحدودها الطبيعية المعروفة ويتعدّاها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

أما بالنسبة للقوط ، فقد انهارت معنوياتهم ، نتيجة لهزائمهم المتوالية أمام المسلمين ، ولقيادتهم الضعيفة العاجزة ، ولخسارة جزء من بلادهم لعجزهم عن حمايتها والدفاع عنها . كما ارتبكت المعلومات عن المسلمين لدى القوط ،

فمنهم مَن يظن أنّ الفاتحين سيرحلون عن بلاد الأندلس ، ومنهم مَن يظن أنّهم جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا ، ومنهم وهم الأكثرية من اختلطت عليهم الأمور ، فشُغل بالجدل عن الاستعداد للقتال وعن مباشرة القتال .

وكان لهذه النتائج على الطرفين ، تأثير حاسم في الفتح ، كما سنجد ذلك في مراحل الفتوح المقبلة .

٣ ـ معركة وادي بَرْباط(١٠٦) أو وادي لكة(١٠٧)
المعركة الحاسمة في فتح الأندلس

(أ) الموقف العام :

اولاً : موقف القَوْط :

كان لذريق عند معرفته بالنّكبة التي حلّت بقوات ابن أخيه بنج ، مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك (١٠٨) في منطقة جبال البرانس (١٠٩) التي تفصل بين الأندلس وفرنسا ، يحارب بعض الخوارج عليه في الولايات الشمالية للأندلس ، وهذا ما تنص عليه المصادر العربية المعتمدة ، وهو ما أرجّحه لأنّه منطقيّ معقول ، أو أنّ لذريق كان يصدّ هجوماً فرنسياً على نافار (Navarre) ، كما يزعم بعض المستشرقين(١١٠)، إذ لو كان هذا الزّعم حقّاً ، لما استطاع لذريق الانسحاب من تلك الجبهة بيسر وسرعة ، وهي مهدّدة باعتداء خارجي لايقل خطراً عن المسلمين ،

---

(١٠٦) . وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال مدينة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ١٠٣) .

(١٠٧) . وادي لكة : اسمه في البيان المغرب (٢/ ١٠) : وادي الطين ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ورد اسمه : وادي أم حكيم ، وهو وادي برباط .

(١٠٨) . ابن حبيب (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وفتح الأندلس (٦) وابن الأثير (٤/٥٦٢) والنويري (٢٢/٢٧) ونفح الطيب (١/٢٣١ و ٢٥٥) والأمامة والسياسة (٢/٧٤-٧٥) .

(١٠٩) . البرانس : جبال تفصل إسبانيا عن فرنسا ، انظر التفاصيل في : الموسوعة العربية الميسرة (٣٣٩) .

(١١٠) . Saavedra. pp. 64 - 65

إن لم يكن أكثر خطراً منهم ، بموجب التفكير السّائد على الملك وحاشيته وقادته حينذاك ، إذ كانوا يعتقدون أنّ المسلمين يقومون بغارة من أجل الغنائم ، بينما الفرنسيون يهدفون ان يحتلوا بلادهم إذا انتصروا عليهم ، فليس من المعقول ترك الجبهة لهم ، خالية من المقاومة ، يسرحون فيها ويمرحون كما يشاءون .

وكان لذريق ملكاً شجاعاً وافراً المقدرة والحزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والسّخط (١١١) .

وعلى كلّ حال ، عندما وصلت أنباء طارق إلى لذريق ، ترك في الحال ما كان يجابهه في الشمال من مشاكل ، وزحف نحو الجنوب ، مرسلاً الرّسل إلى أتباعه ليوافوه في قرطبة (١١٢) ، وقد كتب من هناك إلى أفراد أسرة غيطشة (Witiza) وإلى القوط الآخرين لينظمّوا إليه في قتال العدو المشترك . وخشية من دخول قرطبة ، عسكر أبناء غيطشة وأتباعهم عبر نهر شقندة (Secunda) (١١٣) .

وتمّت المصالحة بين لذريق وأبناء غيطشة ، فعهد لذريق بقيادة ميمنة جيشه إلى سشبرت (Sisbert) والميسرة إلى (أبه (Oppa) ، وهذان الاثنان كما يقول مؤلّف كتاب : أخبار مجموعة ، هما من أبناء غيطشة (١١٤) ،

(١١١) . Cardonmigid. pp. 62

(١١٢) . فتح الأندلس (٦) وابن الشباط (١٠٦) برواية عريب ، وابن الكردبوس (٤٧) والحميري (٩) ونفح الطيب (١/٢٥٦) .

(١١٣) . ابن القوطية (٣) والحميري (١٠٤) ونفح الطيب (١/٢٦٥ – ٢٥٧) ، وشقندة هي حي الربض جنوبي قرطبة في الضفة الاخرى من الوادي الكبير (Guadalquivir) وكان هذا الربض يعرف باسم : شقندة (Seeunda) معرب عن اللاتيني ، انظر كتاب ، جغرافية الأندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك للبكري– تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (١٣٩) – بيروت – ١٣٨٧ ه ط ١ .

(١١٤) . أخبار مجموعة (٨) ، وقارن فتح الأندلس (٦) .

ويقال أيضاً بأنهما ابنا أخيكا (Egica) وليس لغيطشة (١١٥) ، وهذا هو الصواب ، لأنّ ابنى غيطشة اللذين بقيا في الأندلس ، كما ذكرنا هما أرطباس (Artavasdcs) والمند (Almunde) ، وأسماء أبناء غيطشة معروفة لدينا ، وليس بينهم أسماء مَن توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، وإذا ما كانوا في سنّ لا يسمح لهما أن يتوليا الحكم في سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠ م)، فانهّ من غير المحتمل أن يكون لذريق قد عهد إليهما بالقيادة في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٧١١ م) . فلا يبقى إلاّ أن يكون اللّذان توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، هما ابنى أخيكا ، وغيطشة هو ابن أخيكا ، فيكون قائدا الميمنة والميسرة أخوى غيطشة لا ابنيه ، ويكونان عميّ أبناء غيطشة ، ويكون لذريق قد استعان بأفراد من العائلة المالكة السابقة في قيادته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحلية ، وحشد جهود القوط كافةً لحرب المسلمين . وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتحاد، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، واجتمع يومئذ للقوط جيش تقدّره بعض الروايات بمائة ألف مقاتل (١١٦) ، وأقل تقدير له أربعون ألفاً (١١٧) ، ولا يمكن معرفة تعداده اليوم بالضبط ، فهو على كلّ حال بين هذين التّعدادين، أي نحو سبعين ألفاً ، كما جرى تقديره في بعض المصادر العربية المعتمدة (١١٨). ويبدو أنّ الجيش القوطيّ كان يشعر بقوّته ، وكان متأكداً من إمكان تغلّبه

---

(١١٥) . ابن القوطية (٢-٣) ، وقارن : فجر الأندلس (٧٣) و Livermore, pp. 291 .

(١١٦) . ابن الأثير (٢١٤/٤) ونفح الطيب (١٢٠/١) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، انظر نفح الطيب (١١٢/١) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدر جنس القوط بتسعين ألفاً او مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) ، ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين الفاً فقط ، انظر ابن خلدون (١١٧/٤) .

(١١٧) . ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١) .

(١١٨) . نفح الطيب (١١٢/١)

على المسلمين ، إلى درجة أنهم أعدّوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين ، كما يذكر ابن الكردبوس : « فلما انتهى خبره إلى لذريق ، خرج إلى لقائه في مائة ألف فارس ، ومعهم العَجَل تحمل الأموال والكِساء ، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات ، وعليه قُبَّة مكلّلة بالدرّ والياقوت ، وعلى جسمه حلّة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الأبريسم ، ومعه أعداد دواب لاتحمل غير الحبال لكتاف الأسرى ، إذ لم يَشُكّ في أخذهم » (١١٩) .

ومن الواضح أنّه يمكن أن نستنتج من هذا الوصف لقوّات القوط ، أنّ لذريق وهو القائد العام كان مترفاً جداً ، ولا يمكن أن يقاتل المترف كما يقاتل الرجال ، لأنّه يحرص على ترفه أكثر مما يحرص على الموت . كما أنّ الجيش القوطي كان على حالة إداريّة متميِّزة ، يحمل الأموال والكساء ، وتحمله الخيول ، ولا تنقصه مادة إداريّة تؤثّر في نشاطه القتالي . كما يمكن استنتاج أنّ القوط قد أعجبتهم أنفسهم ، فضمنوا لهم النصر على المسلمين ، والأعجاب بالنفس قبل نشوب القتال ، لا يؤدي إلى خيرٍ أبدا . ويبدو أنّ إعداد الحبال للأسرى قبل المعركة ، كان محاولة من لذريق لرفع معنويات القوط ، مما يدلّ على أنّ معنوياتهم قبل الاشتباك لم تكن عالية ، ولا نصر لقوات لا تتحلّى بالمعنويات العالية .

ثانياً : موقف المسلمين :

لمّا علم طارق بأخبار حشود القوط الكثيفة لقتال المسلمين ، كتب إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ، فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل ، بقيادة طَريف بن مالك (١٢٠) ، حملتهم سفن صنعها المسلمون ، ولعلّ يُلْيَان قدّم التَسهيلات لعبور هذا المدد إلى الأندلس ، فأصبح تعداد الجيش الاسلامي في الأندلس اثنى عشرة ألف مقاتل ، جلّهم من البربر المسلمين (١٢١).

---

(١١٩) . تاريخ الأندلس (٤٧) وانظر الأمامة والسياسة (٢/٧٤) .
(١٢٠) . العبر (٤/٢٥٤) ونفح الطيب (١/٢٣٣) .
(١٢١) . نفح الطيب (١/١/٢٣١ و٢٣٩) .

وفي ذلك يقول صاحب : أخبار مجموعة ، إنّ طارقاً ، « كتب إلى موسى يستمدّه ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وأنّه قد زحف إلى ملك الأندلس بما لا طاقة له به . وكان موسى مذ وجّه طارقاً أخذ في عمل السُّفن ، حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشرة ألفاً » (١٢٢) .

ويبدو أنّ نيّة طارق ، كانت السّير مباشرةً إلى قرطبة عاصمة بيْطِي (١٢٣) (بيتِس) (Baetis) ، لأنّه تقدّم بحذاء السّاحل حتى أدرك جزيرة طَريف ، ومن ثمّ اتّجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومرّ بين جبلي (سِبليا دل بابا) و (سييرا دل رِتين) ، واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التي تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلاً متّسعاً بعض الاتّساع حصيناً ، لانّ البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى ، واستمرّ حتى أدرك نُهير البرباط الذي يخترق بحيرة الخندق (لا خاندا) ، وكانت بهذا الموضع في تلك الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ، يسميها العرب : بكّه ، ولهذا سمّوا هذا النُّهير : وادي بكّه ، وحرّفه بعضهم إلى : لِكّه أو وادي لِكّه ، ونقله الأسبان خطأً ، فسمّوه : وادي لِيتّه (١٢٤) .

وهنا عرف طارق من عيونه المنتشرة في كلّ مكان ، أنّ لذريق سائر إليه بجنده ، وأنّه وصل إلى قُرطبة واستقرّ فيها قليلاً لاستكمال حشد جيشه ، ثمّ تقدّم جنوبيّها ، وأقام معسكره عند شَذُونَة (١٢٥) (Medinasidonia

(١٢٢) . أخبار مجموعة (٧) .

(١٢٣) . بيطى : هو الاسم القديم لنهر الوادي الكبير Gvadɪgivurvir ، انظر جغرافية الأندلس واوروبا (٥٨) .

(١٢٤) . أقرب ما قيل ، إن وادي لكه ، تحريف للفظ (Lago - Lacus) أي البحيرة ، والمقصود هذا بحيرة الخندق ، انظر التفاصيل في : فجر الأندلس (٧١) الهامش (١) .

(١٢٥) شذونة : مدينة بالأندلس ، تتصل نواحيها بنواحي موزور ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٢٤٤) . وفي ابن خلدون (١١٧/٤) ، أنّ الجيشين التقوا بفحص شريش ، والصحيح انّها وقعت في فحص شذونة ، لانّ شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

واستعدّ لقبول المعركة في سهل البرباط، على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية (١٢٦) .

وفي هذا الموضع الذي وصل إليه طارق ، وصل المدد الذي تعداده خمسة آلاف مقاتل إلى طارق ، وهو المدد الذي بعث به موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس ، فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس من معه . والغالب أنّ قسماً كبيراً من المدد كان من الفرسان ، لأنّ المصادر تحدّثنا أنّ قوّة طارق الأولى كانت كلّها من الرجّالة ، في حين سنرى للمسلمين قوّة من الخيالة في المعركة الحاسمة (١٢٧). ويبدو أنّ تقدم المسلمين الموّفق في الأندلس إلى هذه اللّحظة ، قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق ، فانضمّ منهم الى المسلمين نفر كبير أعانوهم بالقوة والرأي (١٢٨) . وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه ، فبدأت نفوسهم تحدّثهم لانتهاز الفرصة للانقلاب عليه في حالة اشتباكه بالمسلمين . ويقال : إنّ سششبرت وأبّه أخوى غيطشة ، كانا على رأس هذا الفريق الذي عزم على الخيانة ، وإنّهما انتظرا اللّحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة (١٢٩) .

ويبدو أنّ لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أنّ نفراً من جنده يدبّر له الخيانة ، فأحبّ قبل أن يلقي المسلمين . أن يتعرف على مالديهم

---

(١٢٦) فجر الأندلس (٧١ ــ ٧٢) .

(١٢٧) يذهب ساقدرا ــ اعتماداً على المصادر المسيحيّة ــ الى انّ عدد جيش طارق بلغ قبل المعركة الحاسمة خمسة وعشرين الفاً ، بسبب من انضمّ اليهم من النصارى من انصار غيطشة واعداء لذريق من أهل البلاد . إذ ان من انضم اليه من النصارى يبلغ ثلاثة عشر الفاً ، وهذا مستبعد . بيد انّ بضعة آلاف من النصارى انضموا الى المسلمين ، انظر فجر الأندلس (٧٢) الهامش (١) .

(١٢٨) البيان المغرب (١١/٢) ونفح الطيب (١٦٢/١) ، ويفهم مما ورد في نفح الطيب ، أن الذي دبر الخيانة ، لم يكن أبناء غيطشه وأخواه فقط ، وإنما نفر عظيم من القوط كانوا غضاباً على لذريق .

(١٢٩) افتتاح الأندلس (٣) والبيان المغرب (٨/٢) ونفح الطيب (١٦٣/١) وأخبار مجموعة (٦) .

من القوّة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً شديداً ، فولّت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال المسلمين وما هم عليه من الحميّة والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه (١٣٠) .

ولا بدّ من التوّقف قليلاً ، لمناقشة التحاق القوط النصارى بالجيش الاسلامي قبل المعركة الحاسمة ، ومعاونتهم للمسلمين وتعاونهم معهم في تلك المعركة ، على جيش لذريق من القوط النصارى ، في مثل ذلك الموقف الحرج الخطير للغاية ، في بلاد هي بلاد القوط النصارى وليست بلاد الجيش الأسلامي ، بحجة عداوتهم للذريق ، هذا الالتحاق القوطيّ بالمسلمين يمكن تصديقه بحجة أنّ الملتحقين هم أعداء لذريق ، وعدو عدوّك صديقك كما يقول المثل العربي المشهور ، ولكن ليس من المعقول أنّ طارقاً اشركهم في القتال .

ومن الواضح ، أنه يمكن أن نستنتج من هذا العرض لموقف المسلمين ، أنّ طارقاً كان كأحد رجاله مأكلاً ومشرباً وسكنا ، فلم يكن مترفاً ، بل كانت حياته أقرب إلى التّقشف منها إلى الترّف . وكان حذراً كلّ الحذر يقظاً كلّ اليقظة ، يعرف عدوّه وحركاته وسكناته ، ولاتخفى عليه من أمره خافية . كان يُعدّ لكل أمرٍ عدّته ولكلّ معضلة حلّها ، لاينام ولا ينيم . وكان المسلمون في حالة إدارية أقل بكثير من حالة الجيش القوطي ، ولكنّهم اعتادوا على الحياة القاسية ولم يعرفوا الترف والرخاء ، فكانت حالتهم الادارية غير المتميِّزة ليست مشكلة بالنسبة إليهم . ولم يكن المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم ، فهم يعلمون أنّ عدوّهم متفوّق عليهم عَدَداً وعُدَدا ، ولكنّهم متفوّقون على عدوّهم بقيادتهم ومعنوياتهم العالية . ولم يهتم المسلمون بالمظاهر الخارجية والدعاية ، كما اهتم القوط بها ، فلم يعدّوا الحبال لربط الأسرى ، ولم يتباهوا بالمظاهر الخلابّة ، بل كانوا في نفسية متواضعة لاتتبدل في حالي النصر والاندحار .

(١٣٠) نفح الطيب (١٦٣/١) .

لقد كان تعداد جيش طارق اثنى عشر ألفاً(١٣١) من المجاهدين الصادقين، وأنضم إليهم يليان في قوّة صغيرة من صحبه وأتباعه (١٣٢) ، وهؤلاء هم الذين شهدوا المعركة الحاسمة مع المسلمين على القوط . أما أعداء لذريق الذين انضموا إلى المسلمين قُبيل تلك المعركة نكاية بلذريق ، فمن الصعب تصديق أنّ المسلمين أشركوهم بالمعركة الحاسمة معهم على لذريق ، لاحتمال وجود مندسّين وعملاء بينهم يُظهرون غير ما يُبطنون ، فلا يمكن الاعتماد على مثل هؤلاء في الحرب ، إذ قد ينقلبون على المسلمين في وقت من الاوقات الخطرة في الحرب، أو يثبطون عزائم المسلمين المجاهدين ، أو يهربون فيسرى الهرب بالعدوى بين المقاتلين ، أو ينقلون أسرار المسلمين إلى أعدائهم ، ومثل هذه الاحتمالات قائمة بالنسبة للقوط النصارى غير المجربين من المسلمين ولم يحظوا بالثقة الكاملة بهم . ومن المحتمل أنّ المسلمين استقبلوا أعداء لذريق في مواضع آمنة ، واكتفوا بتحييدهم بالنسبة للذريق ، ونقلوهم إلى الخلف بعيداً عن الجبهة ، انتظاراً لنتيجة المعركة المتوّقعة ، وهم بعيدون عن أخطار الحرب ، آمنون على أنفسهم وعلى أموالهم وأملاكهم ، وحسب المسلمين منهم أنّهم لم يحاربوا في صفوف لذريق ، ولم ينصروه في ميادين القتال ، وكان حيادهم نصراً لا ريب فيه للمسلمين .

٤ ـ خطبة طارق وحرق السفن

(أ) الخطبة :

اولاً الرّفض :

كان ممن احتار في خطبة طارق المشهورة ، الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، فقال : « تلك الخطبة الطنّانة . التي لو حاول مثلها قِسّ بن ساعدة أو سَحْبان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها ، ولقد كنتُ أفكرّ مليّاً في

(١٣١) نفح الطيب (٢٣١/١ ، و ٢٣٩) وأخبار مجموعة (٧) .
(١٣٢) دولة الأسلام في الأندلس (٤٢) .

أمر هذه الخطبة وأقول بي نفسي . . هذا لغز من ألغاز التاريخ ، لا ينحلّ معنـاه بالسّهـولة . . . . » ، وحقيقة هـذا اللّغز ، لدى أمير البيـان ، أنّ طارقاً بربريّ ، والخطبة تُعد من روائع الخطب العربيّة ، ولم يستطع التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ، وقد حاول ولكنّه لم يسترح لمحاولاته ، وأخيراً زال تردّده عندما جزم الأستاذ عبد الله كنّون بأنّ هذه الخطبة من جملة انطباع البربر بالطابع العربي البحث (١٣٣) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة لطارق الأستاذ عبد الله عنّان ، فيقول : « على أنّه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فانّ معظم المؤرخين المسلمين ، ولا سيما المتقدمين منهم ، لايُشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري ، وهم من أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ ولم تُشر إليها المصادر الأندلسيّة الأولى ، ولم يُشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أنّ كثيراً من قادة الغزوات الاسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان ، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق ، وهو بربريّ لم يكن عريقاً في الاسلام والعروبة . والظّاهر أنّها من إنشاء بعض المتأخّرين ، صاغها على لسان طارق ، مع مراعاة ظروف المكان والزمان » (١٣٤) .

كما يرتاب بي نسبة هذه الخطبة إلى طارق الدكتور أحمـد هيكل ، ويبني شكّه على : أنّ طارقاً بربريّ حديث عهد بالاسلام والعربية ، لأنّه لم يرتبط بموسى بن نُصَيْر إلاّ عندما ولى هذا الأخير قيادة المغرب سنة تسع وثمانين

(١٣٣) دكتور عبد السلام الهراس – دعوة الحق – العدد الخامس – السنة الحادية عشرة –٣١٨٨هـ ص (١٢٦) ، وانظر : النبوغ المغربي (١/٢٢ – ٢٣) .
(١٣٤) دولة الأسلام في الأندلس (٤٧) .

الهجرية ، وبين هذا التاريخ وتاريخ الفتح في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة مدّة وجيزة ، يُستبعَد معها أن يجيد طارق العربية بحيث تسمح له بالقاء الخطب ونظم الشّعر .

كما أنّ المصادر الأولى ، عربيةّ وأندلسيّة ، قد سكتت عن هذه الخطبة ، ولم تُشر إليها ، ولا تنصّ عليها سوى المصادر المتأخرة كثيراً عن الفتح ، مثل نفح الطيب .

ثمّ إنّ أسلوب الخطبة بما فيه من الصحة والزُّخرف ، لاينسّب إلى عصر طارق الأدبيّ ، وإنما إلى عصرٍ متأخرٍ جداً عن القرن الأوّل ، ولذلك يرى أنّ هذه الخطبة ، هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسيّ ، وربما إلى ما بعد ذلك .

كما أنّ ورود هذه العبارة في الخطبة : « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانا » ، مما يزيد من حظّ الشك ويقوي الارتياب ، لأنّ الجنود لم يكونوا عربا ، بل كانوا برابرة .

واعتماداً على هذه الأدلّة الأربعة ، يخلص الدكتور أحمد هيكل ، إلى حكم ، يرجّح فيه أن تكون الخطبة وضعت على لسان طارق من بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسيّ ، وربما العصر المملوكيّ .

ويرى بعد ذلك ، أنّ طارقاً قد يكون خطب جنوده ، وقد يكون قد تغنىّ انتصاراته مفاخراً مباهياً ، ولكنّ المعقول أن يكون فعل ذلك بلغته البربريّة ، التي كان يجيدها ، والذي كان جنوده يفهمونها (١٣٥) .

(١٣٥) انظر كتابة : الأدب الأندلسي (٨٠ – ٨٣) نقلا عن مقال بمجلة دعوة الحق – العدد الخامس (١٢٦ – ١٢٧) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، الدكتور عبد الرحمن علي الحجيّ ، ويبني شكّه على : أنّ تعرّض القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرين دون المتقدّمين – للخطبة ، قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها ، وهو أمر يمحو أويقلّل الثقة بواقعيتها . كما لم تذكر المصادر الأندلسيّة ، لاسيّما المبكّرة منها ، هذه الخطبة . ولم تكن الخطبة بما فيها من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري) ، وغير متوقّع لقائد جيش أن يعتّني بهذا النوع من الصياغة . والمعاني التي تناولتها الخطبة لاتتلائم والروح الاسلامي العالية ، التي توفرّت لدى الفاتحين ، ومقدار حبّهم للاسلام وإعلاء كلمته ، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك . . . . . (١٣٦) .

ويلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ، ويلاحظ بها التناقض في المعاني ، وبعض ما فيها يخالف لحقائق تأريخيّة ، كاستعمال : « اليونان » التي ربما جاء ذكرها للسّجع ، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الرّوم (١٣٧) ،وكذلك: (العلوج والعجم ، أو المشركين والكفار(١٣٨) ، وليس لدينا نصّ يحتوي على مثل هذا الاستعمال . ثمّ : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين . . . . »(١٣٩) ، فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد .

وكان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلاميّة أخرى ، تناسب المقام ، كالمعهود (١٤٠) ، ثمّ إنّ طارقاً وأكثر الجيش

(١٣٦) تاريخ افتتاح الأندلس (١٣٨ – ١٣٩) .
(١٣٧) انظر : نفح الطيب (٢٦٤/١ و ٢٦٩) والأحاطة (١ / ١٠٠) .
(١٣٨) انظر : نفح الطيب (٢٥٩/١ و ٢٦١ و ٢٦٣ و ٢٧٠ و ٢٧١) والبيان المغرب(١٤/١).
(١٣٩) ابن خلكان (٥ / ٣٢١ – ٣٢٢) ونفح الطيب (٢٤٠/١) .
(١٤٠) انظر : مثلا : تحفة الأنفس (٢٩ – ٣٣) .

كانوا من البربر ، مما يجعل من المناسب إن يخاطبهم بلغتهم ، إذ من المتوقع ألاّ تكون لغتهم العربية قد وصلت الى مستوى عال (١٤١) . كما أن وضوح تنافي الجُمل الأخيرة من الخطبة : « ولم يعوزكم بطل عاقل » ، « واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله .... » ، وأسلوب الفتح وحقيقته وأهدافه ، فضلا عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقّتها التنظيميّة ومطالبها الفنيّة ، دليل أنّ طارقا لم يقل هذه الخطبة .

ويرى بعد ذلك ، أن كلّ ما تقدم، لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام ، وأنه خطب جنده ، يحثهم على الجهاد (١٤٢) .

ويرتاب الدكتور احمد بسّام السّاعي في نسبة هذه الخطبة الى طارق بن زياد ، فيرى : أنّ أسلوبها ليس أسلوب ذلك العصر – سنة اثنتين وتسعين الهجرّية – أي أواخر القرن الأول الهجري ، فالسجع الذي انتظم كثيرا في عباراتها ، والذي كان يتتالى على مدى خمس جُمل أحياناً ، لم يعرفه العرب في أساليب تلك المدة الزمنية . ثمّ إنّ طارق بن زياد ، كان أول عهده بالاسلام والعربية عام تسع وثمانين للهجرة ، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نُصير على المغرب ، فاستولى الاسلام على قلوب أهلها ، واستولت لغته العربيّة على ألسنتهم ، فهل يُعقل أن يكون قد اكتسب في هذه السنوات الثلاث اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغيّة الرفيعة التي تُؤهّله لالقاء مثل هذه الخطبة التي احتلّت تلك المكانة الرفيعة بين خطب فصحاء العرب؟ أما العربان الذينً ذكرهم طارق في خطبته : « وقد انتخبكم الوليد من الأبطال عربانا » ، فلم يكونوا في حقيقة الأمر . وتبعاً للمصادر التاريخيّة الموثوقة ، عربانا ، بل كان معظم أفراد الجيش الذي جهز منه طارق حملته من برابرة المغرب . وإذن ، فلابد من

---

(١٤١) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٨) .
(١٤٢) التاريخ الأندلسي (٥٨ – ٦١) .

الوقوف وقفة شكّ كبير أمام هذا التنافر بين الواقع التاريخي بجوانبه المتعددة ، وواقع الخطبة التي بين أيدينا .

ومما يزيد هذا الشك رسوخاً ، تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الاسلامية عامة — ولاسيما في تلك القرون الأولى من حملات الاسلام — وهي أنّ هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو والغنائم التي ينالها الغزاة عامة ، بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة .

ثم يقول : « ..... ومع ذلك ، فنحن لا نملك أن نجزم بأنّها ليست لطارق ابن زياد حقا » (١٤٣) .

وكان بطرس البستاني ، قد شكّك في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فهو يرى أنّ طارقاً فارسيّ الأصل متعرِّب لا بربريّ حديث العهد بالعربية والاسلام وأنّه كان حسن الكلام فما هو تأثير خطبته في جيش من البرابرة يجهل العربية في مجموعة ، ولم يزل على طفولته في الدين الجديد ، تعنى فئة قليلة من العرب بتعليمه القرآن وفرائض الاسلام كما يتعلّمها كلّ شعب غريب إذا أسلم ، وكان يجهل العربية . ولا يبعد أن يكون فيه من البرابرة الذين لم يتركوا دينهم القديم ، وإنّما هم مرتزقة حاربوا مع المسلمين رغبة في الغزو والغنيمة ......

ومما يحمل على الشك في خطبة طارق قوله لجيشه : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك من الأبطال عربانا » ، فجمعُ العربان ليس من اللغة الفصحى ، ولا يصحّ أن ينطق به خطيب في صدر الاسلام ، ثمّ كيف يجعلهم عرباً وهم ... من البرابرة ، ليس فيهم إلاّ ثلاثمائة من العرب ؟ فلا يعقل أن يوجه بخطبته إلى الفئة القليلة دون السَّواد الأعظم ، والبرابرة أحوج من العرب المسلمين إلى التّحضيض والأغراء .

---

(١٤٣) مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٣ – نسيان (أبريل) ١٩٨٣ م – (٩٦ – ٩٧) .

ثم يقول : « فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة ...... ، فما ينبغي الركون إليها ولو أثبتها بعض المؤرخين » (١٤٤) .

تلك هي موجز أمثلة من آراء الرافضين من العرب المسلمين وغير المسلمين أيضاً ، ذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، وهي في نقاطها الجوهرية تضرب على وتر واحد ، تكاد تتفق في المعاني وتختلف في الألفاظ .

ثانياً : القبول :

تصدّى الأستاذ عبدالله كنّون مفنّداً بعض أدلة الرافضين ، ومجمل ماذكره : أنّ طارقاً البربري ، نشأ في حضن العروبة والاسلام ، فأبوه هو الذي أسلم بدليل اسمه : « زياد » ، ولاشكّ أنّه كان من مسلمة الفتح المغربيّ الأول ، وانتقل إلى المشرق حيث نشأ ولده في كنف موسى بن نُصَيْر . ولا غرابة في نبوغ طارق البربري في العربيّة ، فقد نبغ فيها أمثاله كعِكْرِمة البربري وسلمان الفارسيّ . وليس في الخطبة من الصنعة البيانية ما يمنع نسبتها لطارق ، أنّ بلاغتها في معانيها ، والمعـــاني ليست وقفاً على عربيّ ولا عجميّ .

ثم يضيف : نعم قد تكون الخطبة تعرّضت لبعض التّصرف بالزيادة أو النقصان من الرواة ، غير أن هذا لا يسوِّغ نفى أصل الخطبة ، وليس بحجّة للتشكيك في نصّها الكامل (١٤٥) .

ويردّ الدكتور عبدالسلام الهرّاس على الدكتور أحمد هيكل فيذكر : أنّه لا يشاطر الدكتور هيكل في حكمه الذي بناه على حيثيات لا يعتمد البعض منها إلاّ على افتراضات ، والبعض الآخر يعتمد على أساس النص الوارد في : نفح الطيب . فكون طارق مثلا حديث عهد بالاسلام ، لم يتصل بموسى بن نُصير إلاّ عند تولية هذا قيادة المغرب سنة تسع وثمانين الهجريّة — أمر لا يمكن

---

(١٤٤) بطرس البستاني — معارك العرب (١/ ٥٥ — ٥٦) — بيروت — ١٩٤٤ م — ط ١ .
(١٤٥) النبوغ المغربي (١/٢٢ — ٢٣) ، نقلا عن مجلة : دعوة الحق — العدد الخامس (١٢٧) .

التّسليم به ، لأنّ طارقاً ابن لمسلم وهو زياد ، وحفيد لمسلم وهو عبدالله ، حسبما ذكره ابن عذاري في نسبه ، فله على الأقل أبوان في الاسلام ، وهكذا لم يعد هذا القائد البربري حديث عهد بالاسلام ، ولم تعد المدّة التي قضاها في الاسلام لا تتعدى ثلاث سنوات . وما لنا لا نفترض — وهو أقرب الى المعقول ، أنّ أباه وجدّه هو الذي كان في المشرق ؛ فنشأ الابن والحفيد في بيئة عربية صرف ، أتاحت له حذق لغتها والنبوغ فيها ، والفوز بثقة بلاط دمشق ليتولىّ مكانة مرموقة في الدولة الأموية ، مما أهّله لقيادة جيش الفتح . ثم إنّ أحداً من القدماء ، لم يقل بأن طارقاً خطبَ بالبربريّة ، أو نفى الخطبة بالعربية . أما كونها لم ترد إلاّ في المصادر المتأخرة كثيراً ، كنفح الطيب ، فليس الأمر كذلك ، إذ وردت في مصادر أقدم بكثير من عصر المقري ، فقد أوردها ابن خلكان وهو من القرن السابع الهجريّ ، ووردت في تحفة الأنفس لابن هذيل وهو من القرن الثامن الهجري ، وأهـمّ من هذا أن صاحب الامامة والسياسة قد أثبتها وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، كما وردت قطعة منها في كل من : « ريحانة الألباب » ، للمراعيني (توفي ٥٧٠ هـ — ١١٦٨م) وكتاب : « استفتاح الأندلس » ، لعبدالملك بن حبيب (١٤٦) .

وقد أضاف الشيخ عبدالله كنّون إلى المصادر الخمسة التي ذكرت خطبة طارق في صفحاتها والتي ذكرها الدكتور عبدالسّلام الهرّاس مصدراً جديداً ، فذكر أنّه يضيف إلى هذه المصادر مصدراً آخر لا يقل عن : ابن خلكّان ، تثبّتاً وتحرّياً وثقة ، وهو من أهل القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . الامام أبو بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب : « سراج الملوك » : وقد ذكر خطبة طارق غير شاعر بأدنى شكّ في صحـّة نسبتها إليه ، وأورد طرفاً منها

(١٤٦) مجلة دعوة الحق — العدد الخامس (١٢٧ — ١٢٨ .)

في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها . (١٤٧) .

وأضاف الأستاذ عبدالعزيز الساوري مصدراً سابعاً إلى المصادر المذكورة ، هو كتاب صلة السِّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى في الفخر المحمّدي ، للمؤرخ التونسيّ محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري ، الذي عاش في القرن السابع الهجري ، وتوفى بمدينة توزر سنة إحدى وثمانين وستمائة الهجريّة (١٢٨٢ م) . فقد ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شك في صحّة نسبتها إليه (١٤٨) .

وأستطيع أن أذكر ، بعض ما يمكن أن يعتبر ردّاً علمياً على الرافضين نسبة خطبة طارق إليه ، فمن الواضح أنّ طارقاً لم يتصل بموسى بن نُصَير سنة تسع وثمانين الهجريّة ، بل لابدّ أن يكون اتّصاله به قبل ذلك ، فأبو طارق وجدّه مسلمان ، وقد عاش في بيئة إسلامية ، ومثل هذه البيئة لها صلة مباشرة قويّة بالعربيّة الفصحى تكلماً وتعلّما . وحتى في هـذه الأيام ، في القرن الخامس عشر الهجري لا نجد بيئة إسلامية شرقاً وغربا ، إلاّ وفيها مَنْ يُتقن العربية الفصحى ، فاذا أضفنا أنّ والد طارق وجدّه مسلمان ، في أيام الفتوح والاتصال المباشر بين الأقوام والأمم ، تحت ظلّ الاسلام ، فلا نستبعد أنّ والد طارق وجدّه انتقلا إلى بلاد العرب ، وكان معهما طارق ، فأتقن العربية الفصحى ، وحتى لو لم ينتقل إلى المشرق ، فأنّ إسلامه يشجعه على قراءة القرآن وتفهّم الحديث وأقوال الدعاة العرب المسلمين ، فكثير

(١٤٧) سراج الملك (١٥٤) – المطبعة الأزهرية – القاهرة ، انظر مجلة : دعوة الحق – العددان السادس والسابع السنة الحادية عشرة – صفر ١٣٨٨ هـ – ص (١١١) .

(١٤٨) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط – نصان جديدان – ص (١٥٤ – ١٥٥) – تحقيق د . أحمد مختار العبادي – معهد الدراسات الاسلامية – مدريد – (١٩٧١م) نقلا عن مجلة : دعوة الحق – العدد (٢٢٥) – ص (١٠٠ – ١٠١) .

ممن نراهم في الهند وباكستان والاتحاد السوفيتي مثلا ، ممن يتقنون العربية الفصحى ، لم ينتقلوا الى البلاد العربية ، بل تعلّموا العربية الفصحى في عقر دارهم ، وأذكر أنني كنت في زيارة رسمية للباكستان سنة (١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤م) ، فصلّيتُ الجمعة في مسجد كراجي الكبير ، وكان خطيب الجامع يخطب بالعربية الفصحى ، ولم يخطب بالأوردية اللغة المحلية ، فقيل للخطيب : « لماذا لا تخطب بلغة قومك ؟ » ، فقال : « لا أخطب بغير لغة القرآن ولغة النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم » ، فما يدرينا أنّ طارقاً خطب بالعربية الفصحى في مثل ذلك الموقف العصيب ، الذي يكون فيه المرء أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وهو يوقن بأنّ النصر من عند الله ، فهو بهذه النيّة يخطب بهذه اللّغة تبرّكاً وتقرّباً إلى الله ورسوله .

وقد عملت في الجندية ردحاً طويلاً من الزمن ، وخطبت بالضباط والجنود في الوحدات الصغرى والكبرى بالتدريج ، حسب تقدمي رتبة ومنصباً . وكثيراً ما كانت الوحدة التي أقودها مؤلفة من غير العرب ، كالأكراد مثلا ، فكنت ألقي خطبتي بالعربية ، وأضع مع مَن لا يفهم العربية مَن يترجم لهم كلامي نصاً وروحاً ، وهذا ما فعله طارق حين خطب بالعربية الفصحى في رجاله البربر ، فلم ينس أن يجعل بينهم مَنْ ينقل إليهم كلماته ، وليس ذلك صعباً بل هو سهل ميسور .

وكانت الحماسة للاسلام في البربر عظيمة جداً ، وأكبر دليل على ذلك إنجازهم الرائع في الفتوح واستقتالهم في ميدان القتال ، والاستقتال عادة يكون من أجل العقيدة . والحماسة للعربية الفصحى متساوقة مع الحماسة للاسلام ، لأنّ العربية الفصحى لغة الدين الحنيف ، فلا يستغرب إقبال البربر على تعلم العربية الفصحى بحرص واندفاع ، ليتفهموا القرآن وتعاليم الدين ، وطالما رأينا مسلمين من غير العرب ، يفهمون العربية ولا يحسنون الكلام بها ، ومن الممكن أن يكون مسلمو البربر يومئذ كذلك .

ولا أدري إلى متى يبقى المؤرخون العرب والمسلمون ، يثقون بما يقوله الأجانب أكثر من ثقتهم بما يقوله أبناء أُمّتهم ودينهم ؟

وفي دراستي لطارق بن زياد وفتح الأندلس ، وهي هذه الدراسة التي تقرأ في هذا البحث ، اكتشفت أنّ قسماً من مؤرخي الأجانب ادّعوا أنّ يليان شخصية أُسطورية لا وجود لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب والمسلمين . وأخيراً جاء مَنْ يثبت ، أن يليان شخصية حقيقية لا مجال للشك ولا للتّشكيك فيها ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب أيضاً ، ورجع مَنْ بقي منهم على قيد الحياة عن متابعتهم الأولى !!!

ويزعم بعض مؤرخي الغرب من الأجانب ، أنّ قصة اعتداء لذريق ، على على عفاف ابنة يليان وأثر ذلك في يليان من ناحية التعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس ، قصة أسطورية لا نصيب لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك كثير من مؤرخي العرب والمسلمين ، مع أن القصة لا يُستغرب حدوثها قديماً وحديثاً ، ولا أدري كيف يصدّق مؤرخو العرب والمسلمين تشكيك المؤرخين الأجانب ، ويكذّبون المصادر العربيّة الاسلامية المعتمدة دون مسوغ منطقي معقول .

بل لا أدري كيف يتابع قسم من مؤرخي العرب والمسلمين ، ويقتبسون مزاعم قسم من المؤرخين الأجانب ، وبخاصة ممن ثبت انحرافهم وتحريفهم وثبتت عداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، ولا يتابعون المؤرخين العرب والمسلمين ، فيتقبسون حقائقهم الثابتة ، وبخاصة ممن ثبتت استقامتهم وعدلهم ، وثبت إخلاصهم للعربية لغةً والاسلام دينا !!

والمؤرّخون العرب والمسلمون حقاً ، يرصدون مؤتمرات : إعادة كتابة التاريخ ، لقسم من البلاد العربية ، فلا يُدعى إلى تلك المؤتمرات غير المستشرقين المنحرفين المحرّفين المعروفين بعداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، وغير

المستغربين المقلّدين للمستشرقين ، من مؤرخي العرب والمسلمين الذين لا صلة لهم بالعربية لغةً والاسلام دينا ، وصلتهم بالمستشرقين المنحرفين المحرِّفين صلة عضويّة أنستهم مؤرخي العرب والمسلمين القُدامى والمحدثين .

والتقيت أحدهم في المجمع العلمي العراقي ، فسمعته يُباهي باصدار مؤتمرهم مجلّدات في التاريخ ، فقلت له : « لقد أضفتم مجلّدات جديدة إلى مجلّدات كايتاني ، فاتّقوا الله في العرب والمسلمين يا أبناء العرب والمسلمين » .

ومن المذهل حقاً ، أن نجد مَن يشايع المنحرفين من المستشرقين في انحرافهم من مؤرخي العرب والمسلمين ومَن يوافقهم منهم على تحريفهم ، يفخرون بالانحراف والتحريف ، ما دام قادماً من الأجنبي ، وكأن ذلك علامة من من علامات التحرّر وسمة من سمات الانطلاق ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

إنّني مع الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضون نسبتها إليه ، أو يشكّون في نسبتها إليه ، أو يشكّكون في نسبتها إليه ، لأنّ الأدلة مع مَن ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضونها . كما أعلم منزلة الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق صدقاً واستقامة وعلماً وتثبّتاً ، فما ينبغي رفض ما يقولون دون مسوِّغ ، وبخاصة إذا علمنا أنّ الذين شكّوا في تلك الخطبة او شكّكوا بها ابتداءاً من المؤرخين الأجانب ، ثم سرى شكّهم وتشكيكهم الى مؤرِّخي العرب المسلمين بحسن نيّة او بسوء نيّة ، فما ينبغي أن نصدِّق كلّ مستورد من الخارج . وإلاّ خسرنا كلّ شيء دون أن نربح شيئاً .

إنّ الاستعمار الفكري من أخطرّ أنواع الاستعمار ، ولم نفعل شيئاً إذا لم نطهرٌ عقولنا ونفوسنا معاً منه إلى الأبد .

ثالثاً : في المصادر والمراجع :

١ - في المصادر :

نص ابن حبيب(١٤٩)

عبدالملك بن حبيب الألبيرى (ت ٢٣٨هـ)

في كتابه

استفتاح الأندلس

روى بعض أصول الخطبة المعروفة حالياً ، فقال : « فلما بلغ طارقاً دنوُّه منه ، قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حضّ النّاس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثم قال :

« أيّها الناس ، أين المفرّ ؟ والبحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصِّدق والصّبر ، ألا وإني عامدٌ إلى طاغيتهم بنفسي ، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه » .

نصّ ابن قُتَيبة(١٥٠) (ت ٢٧٦هـ)

في كتابه

الامامة والسياسة(٢)

فلما بلغ طارقاً دنوُّه (أي لذريق) منهم ، قام في أصحابه، فحمد الله ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط لهم في آمالهم ، ثمّ قال :

« أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس ثمّ والله إلاّ الصدق والصبر ، فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضرّ معهما قِلّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل

(١٤٩) مجلة معهد الدراسات الأسلامية في مدريد (٥ / ٢٢٢) - (القسم الفرنجي) ، نقلا عن كتاب : التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجي (٥٩) .

(١٥٠) هناك من يرى أن هذا الكتاب ليس لابن قتيبة ولكنه منسوب إليه .

والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إنْ حملتُ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أُخالطه أو أقتل دونه (١٥١) ، فان قُتلت فلاتهنوا ولا تحزنوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدّبر لعدوّكم ، فتبدّدوا بين قتيل وأسير . وإيّاكم أن ترضوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أُحِلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فإنّكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحملتي(١٥٢)» فحمل وحملوا .

نصّ ابي بكر(٢) الطرطوشيّ (ت ٥٢٠هـ)
في كتابه
سراج الملوك

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً بها ، غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه . وأورد طرفاً منها ، وذلك في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها(١٥٣).

وهذا هو نصّ الخطبة في هذا الكتاب .

ولما عبر طارق مولى موسى بن نُصَيْر إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بافريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء ، وتحصّنوا في الجبل الذي يسمى اليوم : (جبل طارق) ، وهم في ألفٍ وتسعمائة رجل ، فطمعت

(١٥١) في الأصل : (وأقتل) ، وهو تصحيف .
(١٥٢) الأمامة والسياسة (٧٤/٢) - القاهرة - ١٣٧٧ هـ - ط ٢ .
(١٥٣) الأستاذ عبد الله كنون - مجلة دعوة الحق - العددان السادس والسابع - صفر ١٣٨٨ هـ - ص (١١١) .

الرُّوم فيهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، وكان على الرُّوم تدمير ، استخلفه لذريق ملك الرّوم ، وكان قد كتب إلى لذريق يُعلمه : أنّ قوماً لا ندري هم من الأرض أم من السّماء قد وصلوا إلى بلادنا ، وقد لقيتهم ، فانهض إليّ بنفسك . فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان ، فلقيهم طارق وعلى خيله مُغيث الرُّوميّ مولى الوليد بن عبدالملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشدّ قتال . فرأى طارق ما الناس فيه من الشدّة ، فقام فحضّهم على الصّبر ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط آمالهم ، ثمّ قال :

« أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس إلاّ الصّبر منكم والنّصر من ربّكم . وأنا فاعل شيئاً ، فافعلوا كفعلي ، فو الله لأقصدنّ طاغيتهم ، فامّا أن أقتله ، وإما أن أُقتل دونه .. .... » (١٥٤) .

نصّ ابي محمّد بن ابراهيم « ابن خيرة » المراعينى الأشبيلى (ت ٥٦٤هـ) في كتابه ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب(١٥٥)

« ولما أجاز طارق البحر . وعظ أصحابه وأمرهم (١٥٦) وقال : « إنّكم بين عدوّين : بين أهل الكفر ، وبين البحر ، فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحا . وأحرق سفن الجواز ... فلما أشرف على جمعهم ، قال لأصحابه :

---

(١٥٤) سراج الملك (١٥٩) – المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، نقلا عن مجلة دعوة الحق – العددان السادس والسابع ص (١١١) .

(١٥٥) مخطوط بالخزانة الملكية (الرباط) ، وتوجد منه نسختان : الأولى رقمها ١٤٠٦ ورقة ١٣٧ ، والثانية رقمها ٢٦٤٧ ص ٣٨١ ورقة وهو لأبي محمد بن إبراهيم المراعيني .

(١٥٦) في الأصل : ودمرهم ، وهو تحريف ولعل الصواب ما أثبتناه .

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين). وإنني مصمم بنفسي نحو طاغيتهم ، حتى يحكم الله بيني وبينه ، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة ، فاحملوا كما أمركم الله ينصركم : (وإنْ ينصركم الله فلاغالب لكم) (١٥٧) ، وحمل المسلمون يكبرون الله ... » (١٥٨) ، وبعد هذا يقول : « قال عبدالملك بن حبيب : دخل الأندلس من التابعين زهاء عشرين رجلا » .

وقد بذلت غاية الجهد للحصول على نصّ خطبة طارق كما هي مسجّلة في ريحان الألباب الخطيّ ، واتصلت بالسفير المغربي ببغداد ، وكتبت عدّة رسائل للمسؤولين في المغرب ، دون جدوى . واخيراً وبعد انتظار استمر اكثر من سنة اسعفني الأخ الدكتور عبدالسلام الهراس بدراسته عن خطبة طارق ، فتسلمت هذه الدراسة ، بعد أن فُقدت النسخة الأولى التي بعث بها إليّ بالبريد او حجبت عني عمداً ، والله أعلم ، فانتفعت بهذه الدراسة كثيراً وكان المفروض أن احظى بنص كتاب المراعيني من المغرب اشاعة للعلم ومعاونة للعلماء والباحثين ، ولكن ما كل ما يعني المرء يدركه .

نصّ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
في كتابه
وفيّات الأعيان وانباء ابناء الزّمان

فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه ، كتب تُدْمِير إلى لذريق الملك ، أنّه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السّماء هم أم من الأرض ،

(١٥٧) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : (١٦٠) .

(١٥٨) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمراعيني ، ليس به ترقيم الصفحات ، مخطوط الخزانة الملكية المغربية رقم (٢٦٤٧) نقلا عن بحث : طارق بن زياد وخطبته ، للدكتور عبد السلام الهراس ، مستخرج من دراسات عربية وإسلامية - القاهرة - ١٤٠٣هـ ، كما جاءني النص من الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي مدير المعهد الجامعي في المغرب بتاريخ ١٩٨٦/٥/١٣ ، أما السفارة المغربية فقد بعثت إلى مشكورة بنص الكتاب مرسل من الأستاذ الجليل عبد الرحمن الفاسي ، فلهم شكري وتقديري .

فلما بلغ ذلك لذريق ، رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَل يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبّة مكلّلة بالدرّ والياقوت والزبرجد . فلما بلغ طارقاً دنوُّه ، قام من أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثمّ قال :

أيّها الناس ، أين المفرّ ، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصبّر . واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (١٥٩)، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة . ولا حملتكم على خطّة أرخَص مُبتاع فيها النفوس إلاّ وأنا أبدأ فيهـا بنفسي . واعلمـوا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا . استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفر من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا (١٦٠) . ورَضيكم للملوك

(١٥٩) في طبعة بولاق (١٧٧/٢ - ١٧٨) م : هذه الطاغية ، وكذلك في النسخة (ب) من هذا الكتاب .

(١٦٠) وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة ، عزبان : جمع عزب ، وسنعلق على ذلك في المتن بعد تسجيل نصوص الخطبة .

هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه معكم ثواب الله على أعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أنّي أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنّهم بعده يخذلون » (١٦١) .

نصّ ابن الشباط (ت ٦٨١هـ)
محمد بن علي بن محمدّ بن الشباط المصري التوزريّ
في كتابه
صلة السّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى
في الفخر المحمّديّ

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه ، وأوردها في النصّ الذي عقده لذكر فتح الأندلس في كتابه المذكور .

إلاّ أنّه يجب أن أشير مسبّقاً ، إلى أنّ هناك اختلافاً يسيراً ما بين نصّ هذا العالم ونصّ ابن قُتَيْبَة في : الامامة والسياسة ، وهو اختلاف بسيط لا يخرج عن دائرة اللغة .

وهذا هو النصّ :

---

(١٦١) وفيات الأعيان (٤ / ٤٠٤ - ٤٠٥) - تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٣٦٧ هـ - ط ١ .

« ...... ولما بلغ طارقاً دنوُّه منهم ، قام في أصحابه خطيباً (١٦٢) . فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط من آمالهم ، ثم قال :

« أيّها الناس ، إلى أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم (١٦٣) وليس والله إلاّ الصدق والصّبر . فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران . لا تضرّ معهما قِلّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس . ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله . إن حملتِ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وأنّي عامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيّبه . حتى أخالطه أو أقتل دونه . فأن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وتُولّوا الدّبر عدوّكم . فتبدّدوا بين قتيل وأسير ، وإياكم أن ترضوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والرحمة من الذلّة والمهنة ، وما قد أجّل لكم من ثواب الشّهادة . فانكم إن تفعلوا والله معيذكم . تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أناذا حامل حتى أغشاه . فاحملوا لحملتي » . ثمّ حمل وحملوا . فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً ، فقُتل الطاغية ، وهُزم قومه (١٦٤) .

---

(١٦٢) خطيباً : ساقطة في كتاب الامامة .

(١٦٣) من : ساقطة من كتاب الامامة .

(١٦٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان (١٥٤ – ١٥٥) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي – معهد الدراسات الأسلامية بمدريدا ١٩٧١ م .

نصّ ابن هذَيْل (ت ٧٦٣هـ)
على بن عبدالرحمن بن هذَيْل
في كتابه
تحفة الأنفس وشعار اهل الأندلس
نقلاً عن كتاب : محمد عبدالله عِنَان(١٦٥) ـ دولة الاسلام في الأندلس

« أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة الّلئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن . إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أناعنه بنجوة

ولا حمّلتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي . واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان . المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على

(١٦٥) دولة الاسلام في الأندلس (١/ ٤٦ — ٤٧) ، ولم يشر الأستاذ عنان إلى المصدر عند إيراده نص الخطبة ، بل عقب على الخطبة بقوله : « ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق . . . » ، وليس لدي نسخة من كتاب تحفة الأنفس لأقارن بين النصين .

إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمن سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . أيّها الناس ، مافعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قُتلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدبر لعدوّكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضـوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أحلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فانكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين ، وها أنا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحماتي » (١٦٦) .

نصّ المقّري (ت ١٠٤١هـ)
احمد بن محمّد المقّري التّلمسانيّ
في كتابه
نفح الطيب
من غصن الأندلس الرّطيب

« فلما بلغ طارقاً دنوّه . قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد . ورغبّهم ، ثم قال :

« أيّها الناس . أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم . وليس لكم والله إلاّ الصّدق والصبّر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة . وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم . ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً

(١٦٦) تحفة الأنفس ، نقلا عن : دولة الاسلام في الأندلس (١/٤٦ – ٤٧) .

ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أُحذِّركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولا حملتكم على خُطة أرخص متاع فيها النفوس (إلاّ وأنا) (١٦٧) أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً ، استمتعم بالأرْفَهِ الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين عُربانا ؛ ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعّان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفُرسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً لكم في الدارين ، واعنموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند مُلْتَقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لُذَريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يُخْذلون » (١٦٨) .

(١٦٧) زيادة عن ابن خلكان .

(١٦٨) نفح الطيب – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (١ / ٢٢٥) – القاهرة – ١٣٦٧ هـ ، وتحقيق الدكتور احسان عباس (١ / ٢٤١ – ٢٤٢) – بيروت – ١٣٨٨ هـ .

تلك هي ثمانية مصادر معتمدة ، سجّلت خطبة طارق ، ونسبتها إليه ، دون أن تشك في نسبتها أو تشكّك في نسبتها إلى طارق ، وليس كما ادّعى قسم من المستشرقين والمستغربين ، أنّ المقّري في : نفح الطيب ، هو وحده الذي سجلّها : « أقدم مصدر للخطبة ، فيما نعلم ، كتاب المقّري المتوفى سنة (١٠٤١ هـ) ، أي بعد أكثر من تسعة قرون من تاريخ الخطبة ، وهو زمن أخطر من أن يُستهان به » (١٦٩) ، إذ تبيّن لنا أنّ الذين سجلوها فعلوا ذلك قبل صاحب نفح الطيب بأكثر من تسعمائة سنة ابتداء من سنة (٢٣٨ هـ) كما ورد في هذه الدراسة .

ولا أدّعي أنني استطعت تسجيل المصادر المعتمدة كافة التي سجّلت الخطبة ، فهذا ما اتمنى أن يفعله غيري من الباحثين باذن الله ، وقد اعتمدت في تسجيل نصوص الخطبة على باحثين سبقوني ، وقد أشرت إلى أسمائهم وأسماء مؤلفاتهم ومقالاتهم ليعود الفضل إلى أصحاب الفضل ، وساعود الى ذكرهم في الحديث عن المراجع الحديثة التي نسبت الخطبة إلى طارق ، ودافعت عن هذه النّسبة إلى طارق .

وقبل أن أختتم الحديث عن الخطبة في المصادر ، أريد أن أركزّ على نقطتين :

وردت كلمة : (عربانا) في نص : ابن خلكان ، ونص ابن الشباط ، ونص المقّري . وقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عُزْبان : جمع عَزَب) ، وعلى هذا الوجه ينتفى الشك الذي أثاروه ، فقالوا : « لم يكونوا عربانا . بل كانوا برابرة » . وحتى لو بقيت كما هي ، فلا تدل على النسب العربي بقدر دلالتها على الفخر بهذا النسب ، الذي قصده طارق ، بنسبة هؤلاء البربر إلى العرب رفعاً لمعنوياتهم وأقدارهم ، باعتبار أنّ العرب

---

(١٦٩) د . أحمد بسام الساعي – خطبة طارق بن زياد هل قالها حقاً ! (٩٧) – مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٣ – جمادى الآخرة ١٤٠٣ – نيسان (أبريل) ١٩٨٣ م .

يومئذ هم الدعاة والحماة والخلفاء والقادة والمجاهدون والفاتحون ، وكلّ إنسان يحب أن ينسب إليهم ، ليحظى بهذه المكانة الرفيعة .

ومن المدهش حقّاً ، أن البربر – على الرغم من محاولات الإستعمار الحديث – لا يؤلمهم أن يقال عنهم : إنّهم عرب ، بل يؤلمهم أن يقال عنهم: إنّهم ليسوا عربا (١٧٠) .

وهناك أدلة كثيرة على أنّ العرب والبربر من أرومة واحدة ، يلتقون بأنسابهم وأحسابهم بالعرب الأقدمين، وبأمّهم الرءوم : جزيرة العرب (١٧١) .

وأساليب البلاغة العربيّة كثيرة ، فاذا قال قائد لرجاله : أنتم أسود ، تقوية لمعنوياتهم ، وحثاً لهم على الثبات ، فقد لايفهم غير العربيّ مثل هذا التعبير ، لأنه لايفهم العربية ، أما ألاّ يفهم العربيّ مثل هذا التعبير ، فالأمر مختلف جداً . وكذلك بالنسبة لتعبير : (عربانا) الي وردت في خطبة طارق ، فاذا عجز غير العربي عن فهم هذا التعبير كما ينبغي ، وفهمَهُ بمعناه اللّفظيّ لابمعناه المجازى ، فله ما يسوّغ هذا العجز عن الفهم ، أما العربيّ ، فلا مسوّغ له بمتابعة مَن لم يفهم ، وهو الذي يجب ان يفهم .

ومع ذلك ، فانّ الذين لم يفهموا هذا التعبير أو فهموه ، قد بالغوا كثيراً في استنتاج أنّ الخطبّة ليست لطارق ، استناداً على كلمة (عربانا) ، فليس من السهل ردّ الحقائق بالظنون .

وإذا كان فتح المسلمين ، لبلد من بلاد النصارى ، كبلاد الأندلس مثلاً ، وبقاؤهم فيه قروناً طويلة – كما هو معروف ، حافزاً للمستشرقين من غير المسلمين على تصيّد ما يستطيعون به الشك والتشكيك في تاريخ الفتح الأندلسي وتاريخ المسلمين في الأندلس ، فما الحافز للمسلمين في تقليد الشاكين والمشكّكين؟

(١٧٠) عقبة بن نافع الفهري – (٣٥) – بيروت – ١٣٩٢ هـ .
(١٧١) انظر التفاصيل في : عقبة بن نافع (٢٣ – ٥٣) .

ومن غير المعقول أن نطبّق الأفكار الشائعة في هذا القرن حول التفرقة بين الأقوام . على القرن الهجري الأول ، الذي ساد فيه الأخاء الإسلامي ، وأصبح التفاضل بين الأفراد بالتقوى لا بالنسب ، فلا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى ، فما أراد طارق بتعبير : (عربانا) نسبا ، بل أراد غير ذلك ، وعلى الباحث دراسته كما كان لا كما يريده أن يكون ، ليستخلص الواقع ويبتعد عن الخيال .

تلك هي النقطة الأولى .

أما النقطة الثانية ، فهي أنّ أسس خطاب طارق واحدة في النصوص الثمانية التي سجلتها المصادر المعتمدة الثمانية ، ولكنّها تختلف في بعض الكلمات وبعض التعابير بما لا يمسّ بأسس معاني الخطاب ، كما تختلف في حجم الخطاب طولاً وقصراً ، والظاهر أنّ قسماً من المؤلفين سجّلوه حرفياً دون أن يختصروا منه شيئاً . وقسماً منهم سجّلوا أبرز ما ورد في الخطاب من جُمَل ، وحذفوا ما بقي منه . وبخاصة الجمل ذات المعاني العامة الشائعة التي يكثر ترديدها في الخطب والمواعظ وغيرها . أي أنّهم أبقوا في الخطاب ما ورد فيه من معانٍ خاصة يتميّز بها عن الخطب الأخرى ، وحذفوا ما ورد فيه من معان عامة تتكرر في الخطب وفي المواعظ وعلى ألسنة الناس .

إنّ النصوص المسجّلة للخطبة مختصرة ومطوّلة ، تتّفق بالمعاني الخاصة التي يتميّز بها خطاب طارق عن سائر الخطب ، ولكنّها تختلف في المباني إيجازاً وتفصيلا . والمعاني أهم من المباني . واتفاق المصادر على المعاني ، دليل جديد على أنّها لطارق لا لغيره من الناس .

(٢) . في المراجع :

لايمكن ذكر جميع المصادر الي أيدّت نسبة خطبة طارق إليه ، فهي كثيرة جداً ، فلا بأس من ذكر قسم منها ، وبخاصة التي اطّلعت عليها وذكرتها في هذا البحث .

فقد جزم الأستاذ عبد الله كنوّن من جملة انطباع البربر بالطابع العربيّ البحت ، وأيدّ نسبة الخطبة إلى طارق ، في كتابه : النبوغ المغربيّ (١٧٢) .

كما أيدّ الدكتور عبد السّلام الهرّاس نسبة الخطبة إلى طارق ، في مقالين اطلعت عليهما (١٧٣) ، كما نشر بحثاً في القاهرة لم أطلع عليه ، وحماسة الهراس وغيرته مما يُحمد عليها .

كما نشر الأستاذ عبد العزيز الساوري مقالاً ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق ، وأضاف مصدراً جديداً سجّل الخطبة هو كتاب : صلة السمط لابن الشباط (١٧٤) .

كما نشر الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي بحثاً عنوانه : فتح العرب للأندلس ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق بن زياد (١٧٥) .

تلك أمثلة على مَن أيدّ نسبة خطبة طارق إليه ، إما بتدوينها في سير أحداث الفتح ، أو في مناقشة الرافضين الاعتراف بنسبة تلك الخطبة إلى طارق ، وهي عبارة عن البحوث التي اطّلعت عليها ، ومن المؤكدّ أنّ الدراسات والبحوث التي لم أطّلع عليها ، أكثر بكثير من البحوث والدراسات التي اطلعت عليها ، ومن المفيد أن يتمّ الاطّلاع عليها والتنويه بها .

ويمكن أن نتبيّن أن رفض الخطبة ارتفع مدّه في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي ، حتى تكاثر الرافضون وأصبح الرفض أمراً مسلّماً به في الدراسات الأندلسيّة . وانقسم الرافضون إلى قسمين : قسم يصرّح برفضه ، وقسم يغفل الخطبة إغفالاً كاملاً ،

---

(١٧٢) النبوغ المغربي (١ / ٢٢ - ٢٣) .

(١٧٣) دعوة الحق - العدد الخامس - السنة الحادية عشرة ، والعدد (٢٢٨)

(١٧٤) دعوة الحق - العدد ٢٢٥ - (١٠٠ - ١٠١) .

(١٧٥) مجلة الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة - العدد الثاني - السنة العاشرة - رمضان ١٣٩٧ هـ آب وأيلول (اغسطس سبتمبر ١٩٧٧ م - (٤٣ - ٦٧) - مكة - ١٣٩٧ هـ

فلا يذكرها في دراسته ولا يشير إليها ، كأنّ رفضها حقيقة لاغبار عليها ، يخجل الباحث من الاعتراض على الرفض ، أو من التطرّق إلى الخطبة من قريب أوبعيد .

وللتاريخ أذكر ، أنّ أوّل مَن رفض الرّفض وردّ عليه ، هو الأستاذ عبد الله كنون ، في كتابه : النبوغ المغربي ، ثم توالت الردود في نماذج تطرّقنا إلى ما اطلعنا عليه ، واستفدنا منه في هذه الدراسة .

واليوم أصبح هناك مَن لايخجل من رفض الرفض والردّ عليه ، بل أصبح هناك مَن يخجل من السّكوت عن رفض الرفض والنهوض بأعبائه ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس .

وظهرت الدراسات التي تؤكّد نسبة خطبة طارق إليه ، داحضة حجج الرافضين ، وهذه الدراسات هي أوّل الغيث ثمّ ينهمر باذن الله ، فلا يقتصر على خطبة طارق ، بل يشمل كلّ ما شك فيه المؤلّفون الأجانب وعلى رأسهم المستشرقون وشككوا فيه بدون حقّ ولأسباب بعيدة عن المنهج العلمي قريبة من التعصب الدينيّ على الاسلام والمسلمين ، وعلى الواقع والتاريخ .

ب . حرق السُّفن :

ذكر الشريف الادريسي في معجمه الجغرافيّ : (نزهة المشتاق) ، عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أنّ طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس (١٧٦) ، وقد نقلت بعض المصادر والمراجع المتأخرة هذه الرواية عن الادريسي فيما يرجّح ، وفيما عدا ذلك فان جميع المصادر العربية والاسلاميّة ، تمرّ عليها بالصمت المطلق (١٧٧) .

(١٧٦) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١٧٨) – طبع رومة .
(١٧٧) دولة الأسلام في الأندلس (٤٨) .

وقد يقال ، إنّ في خطاب طارق ما يؤيّد صحّة هذه الرواية ، فطارق يستهلّـه بقوله : « أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر » ، وفي ذلك مايمكن أن يفسّر أنّ الجيش الإسلاميّ الفاتح ، قد جُرِّد من السفن التي حملته من سبتة إلى الأندلس .وتفسير أقوال طارق هذه ، هو أنّ السفن ليست ملكاً للفاتحين ولا تحت تصرّفهم في جميع الأوقات ، وأنّها عادت إلى صاحبها يَليان ، ولم تبق على الساحل الأندلسي ، جاهزة لتأمين انسحاب الفاتحين من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ .

إنّ يليان هو الذي قدّم السُّفن لنقل الفاتحين إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طَريف بن مالك . وهو الذي قدّم السُّفن إلى الفاتحين بقيادة طارق ، وهي ليست ملكاً للمسلمين ليُقدم طارق على حرقها ، بل هي ملك صاحبها يليان ، فاذا ألتحقت به بعد إنجاز واجبها في حمل الفاتحين إلى البرّ الأندلسيّ ، وبعد إكمال إنزال الفاتحين من تلك السُّفن إلى البر الأندلسي ، فلا تبقى سفن على السّاحل الأندلسي يركن إليها المسلمون في انسحابهم من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ ، كما لايبقى مسوّغ لإحراق تلك السُّفن .

كما أنّ طارقاً ومَن معه من مجاهدين ، جاءوا إلى الأندلس ، للجهاد من أجل عقيدة ، وكانوا مستعدين للشهادة من أجل عقيدتهم ، فلا مسوّغ لإحراق السُّفن من أجل وضعهم وجهاً لوجه أمام الدّفاع عن أرواحهم ، فما كانوا بحاجة إلى مَن يضعهم هذا الموضع الحرج ، لأنّ أرواحهم لم تكن في حال من الأحوال أغلى عليهم من عقيدتهم ، وما أنجزوه قبل عبورهم إلى الأندلس وبعد عبورهم إليها خير دليل على استقتالهم من أجل قلوبهم لا من أجل جيوبهم ، ومن أجل عقيدتهم لا من أجل أرواحهم .

والواقع أنّ الإقدام على حرق سفن العبور ، يصعب تصديقه ويصعب مجرّد التصوّر أنّ طارقاً يمكن أن يفعله ، فاذا كانت تلك السُّفن ليليان ، كما هو

معروف ، فليس من حقّ طارق إحراقها ، وإذا كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليما ، إذ يخالف مبدأ الاقتصاد بالقوّة ، أحد مبادئ الحرب المهمة ، ولا يتفـق مع المنطق والعقل .

لذلك لم تُشر المصادر الأندلسية العربية الأولى ، إلى قصّة إحراق السفن ، والمصادر التي ذكرت تلك القصّة نقلتهـا عن الشريف الإدريسي وكذلك المراجع (١٧٨) ، ومنها المصادر والمراجع النصرانية ، وبخاصة المصادر الإسبانية والمراجع ، وقد تأثر بتلك القصة قسم من قادة الإسبان ، فقلّـدوا تلك القصة عملياً في قسم من عملياتهم العسكرية (١٧٩) .

وعلى كلّ حال ، فقصّة إحراق السفن لاسبيل إلى تصديقها ، لأنّـها تناقض حماسة المجاهدين يومئذ الذين لايحتاجون إلى حوافز جديدة للاستقتال ، ولأنّ السُّفن لم تكن ملكاً للمسلمين بل ملكاً لغيرهم ، ولأنّ هذه القصّة دوّنت لأوّل مرة في القرن الخامس الهجري ، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون صُنِّـفت خلالها كثير من المصادر الأندلسية المعتمدة ، دون أن تشير إلى هذه القصة أو تتطرّق إلى ذكرها ، كما لم تؤيّـدها أية رواية إسلامية أخرى قبل رواية الإدريسي لهـا .

---

(١٧٨) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للادريسي (١٧٧) وتاريخ الأندلس (٤٦) والروض المعطار (٧٥) ونفح الطيب (٢٥٨/١) والحلل السندسية (٨٢/١) ، وانظر دولة الاسلام في الأندلس (٤٨ - ٤٩) .

(١٧٩) يقدم لنـا تاريخ إسبانيا الحديث ، مثلا للمحتل الذي حرق سفنه التي عبر عليها جيشه ، لكي يقطع على جنده كل تفكير في الانسحاب والرجعة . فقد أحرق القائد المكتشف الأسباني هرناندو كورتيث الذي احتل المكسيك سفنه ، حينما أشرف على شوطئ المكسيك مستكشفاً في سنة ١٥١٩ م ، تلك السفن التي حملت جيشه من إسبانيا إلى المكسك . ومن المعقول أن يكون هذا القائد الأسباني ، قد تأثر في عمله بالعمل الذي ينسب إلى طارق بن زيادة فاتح الأندلس ، أنظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٩) في الهامش (١) .

٥ ــ المعركة الحاسمة
معركة وادي بَرْباط او وادي لكّة

(أ) قوّات الطرفين :

اولاً : المسلمون :

اثنا عشر ألفاً ، (١٨٠) إنضمّ إليهم يليان في قوة صغيرة من أصحابه وأتباعه (١٨١) . ولا يزال مدى مشاركة يليان في فتح الأندلس موضع اختلاف بين المؤرخين ، وهناك أدلّة تشير إلى أنّ مهمّته كانت مساعدة الفاتحين وإعطاء توجيهات عامة لهم في أثناء العبور ، وكان أيضاً عيناً لهم على الأعداء(١٨٢) ، ولكن بعد هزيمة القوط ، ترك يليان الجزيرة الخضراء إلى إسْتِجَة (١٨٣) (Ecija) وقرّر أن يبدى مساعدة أكبر لطارق بتزويد الفاتحين بأدلاّء من رجاله ، لأنجاز افتتاح الأندلس (١٨٤) .

وأرى أنّ يليان لم يرسل جنوده ليقاتلوا ، إذ لا يستعين المسامون بغير المسلمين في القتال ، وإنما كانت معاونة يليان وتعاونه للمسلمين في إبداء الرأي والمشورة ، وتقديم الأدلاّء ، وتأمين العيون لنقل الأخبار من القوط إلى المسلمين ، والمعاونة في القضايا الاداريّة كتقديم السُّفن للعبور ، أما مباشرة القتال في ساحة القتال ، فقد اقتصر على المسلمين حسب . وما يقال عن يليان ورجاله ، يقال عن أعداء لذريق من القوط النصارى الذين التحقوا بالمسلمين قبل بدأ القتال في المعركة الحاسمة ، فلم يباشروا القتال مع المسلمين أيضاً ، للمحاذير التي ذكرناها .

---

(١٨٠) نفح الطيب (٢٣٩/١) .

(١٨١) دولة الاسلام في الأندلس (٤٢) .

(١٨٢) فتوح مصر والمغرب (٢٠٦) والرازي (٩٨ — ٩٩) وأخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٥٦٢/٤) والنويري (٢٧/٢٢) .

(١٨٣) إستجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(١٨٤) الاحاطة (١٠٠/١) وأخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب(٩/٢) ونفح الطيب(٢٦٠/١) .

ثانياً . القوط ـ:

اجتمع يومئذ للقوط جيش تعداده مائة ألف مقاتل (١٨٥) ، وأقـل تقدير له أربعون ألفاً (١٨٦) ، ولا يمكن معرفة تعداد جيش القوط اليوم بالضبط ، فهو على كلٍّ حال بين هذين التّعدادين ، أي نحو سبعين ألفاً . كما جرى تقديره في بعض المصادر العربيّة المعتمدة (١٨٧) .

على الميمنة ششبرت بن أخيكا ، وعلى الميسرة أبه بن أخيكا ، وعلى القلب لذريق ، وهو القائد العام والملك .

وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتّحاد ، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، كما استعان بأفراد العائلة المالكة السّابقة في قياداته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحليّة ، وحشد جهود القوط كافة وطاقاتهم الماديّة والمعنوية لحرب المسلمين .

ب . التّوقيت :

تلاقى المسلمون والقوط يوم الأحـد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان . واتّصلت الحـرب بينهم إلى يـوم الأحـد لخمس خَلَوْن من شهر شوّال بعد تتمة ثمانية أيام (١٨٨) ، أي كان لقاء الجيشين المحاربين في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز (يولية) سنة ٧١١ م) واستمرت ثمانية أيام فقط الى اليوم الخامس من شوّال سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٢٦ تموز (يولية) ٧١١ م) .

(١٨٥) ابن الأثير (٤/٢١٤) ونفح الطيب (١/١٢٠) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، أنظر نفح الطيب (١/٢٣٣) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدره بتسعين ألفاً أو مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) .

(١٨٦) ابن خلدون (٤/١١٧) ونفح الطيب (١/٢٣٣)

(١٨٧) نفح الطيب (١/١١٢) .

(١٨٨) نفح الطيب (١/٢٥٩) وتاريخ الأندلس (١٣٥) .

أي أنها بدأت وانتهت خلال ثمانية أيام فقط (٢٨ رمضان – ٥ شوال سنة ٩٢ هـ (١٨٩) – ١٩ – ٢٦ تموز ٧١١ م) (١٩٠) .

جـ . ميدان القتال :

كان ميدان القتال في كورة شَذُونة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا (١٩١) في سهل الفرنتيرة (Fron tera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بَرْبَاط (Barbate) المتّصلة به . وقد تُعرف أحيانا معركة وادي برباط في الرواية الإسلاميّة بمعركة وادي بكه او لَكُّه (Gudalete) (١٩٢) ، لعله مأخوذ من (Logo) وهو البحيرة ، أي : بحيرة الخندق (١٩٣) ، فأصبحت البحيرة علماً على المكان (١٩٤) . أما وادي لَكُّه (Guadalete) المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة ، فيقع إلى الشمال منه ، ويصب في خليج مدينـة قادِس (١٩٥) (Cadiz) ؛ ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي عند طَرَف الأغَـرّ (Trafalgar) (١٩٦)

---

(١٨٩) تجمع الرواية الأسلامية تقريباً ، أن المعركة كانت في ذلك التاريخ ، ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول : إنها كانت في السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ ، أنظر نفح الطيب عن ابن حيان (١١٦/١) ، ولعله ينفرد بهذا الخلاف ، أنظر دولة الأسلامفي الأندلس (٤٤).

(١٩٠) الفتح والأستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٨) .

(١٩١) تاريخ الأندلس (١٣٥–١٣٦) نص ابن الشباط ، ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

(١٩٢) الروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) ونفح الطيب (٢٤٩/١ و ٢٥٨) ودولة الأسلام في الأندلس (٤٢/١ – ٤٤) .

(١٩٣) فرحة الأنفس – ابن غالب – مجلة معهد المخطوطات العربية (٢٩٤/١/١) والحلة السيراء لابن الأبار (٣٣٣/٢) وأخبار مجموعة (٧) و

Levi - Provenfal Histoire L' Espagne Musulmane, 1,21

(١٩٤) نفح الطيب (٢٥٧/١ – ٢٥٨)، قارن نصوص عن الأندلس–ابن العذري (١١٨ و ١١٩).

(١٩٥) قادس : جزيرة في غربي الأندلس ، تقارب أعمال شذونة ، طولها اثنا عشرة ميلا قريبة من البر ، بينها وبين البر خليج صغير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤–٥).

(١٩٦) التاريخ الأندلسي (٥٦) .

وغير بعيد أن يكون اسم وادي لَكَّهْ في الرواية الإسلامية ، لم يُقصد به وادي بَرْباط – ولو أحياناً – بل قُصد به أصلاً وادي لَكَّهْ (Guadalete) كما هو معروف اليوم ، الذي يصبُّ في المحيط عند قادس ، ويقترب أحد فروعه من ميدان المعركة الواسع أو كان شاملاً له . وجَعَل هذا الوادي : وادي لَكَّهْ ضمن كورة شَذُونَة (Sidonia) (١٩٧) التي كانت مدينتها شَذُونة (Medina Sidonia) ، ميداناً لمعركة البرباط : « وبها كانت الهزيمة على لذريق (١٩٨) » ، يزيل اللّبس . وعلى ذلك فلا وجود لاشتباه او خلط او تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكَّهْ ، وعندها تنصرف التّسميات المتعلّقة بهذه المعركة الى تسمياتها الأصليّة (١٩٩) .

وهناك دراسات حديثة عديدة بشأن : ميدان القتال ، الذي حدثت فيه المعركة الحاسمة بين لذريق وطارق ، فيرى أحد المستشرقين حدوث معركتين : الأولى وقعت قرب مدينة شَذونة ، بين جبل رتين (Sierro del Retin) وبحيرة لاغاندا (Lago dela Janda) ، وحدثت الثانية عندما هرب لذريق نحو الشمال . وحارب المسلمين قرب (Segoyuela) (٢٠٠) ويتفق معه مستشرق آخر (٢٠١) ، بينما يعارض مستشرق ثالث ما ذهب اليه هذان المستشرقان (٢٠٢) . ويؤيده مستشرق رابع الذي يتفق مع المؤرخين العرب على أنّه كانت هناك معركة واحدة كبيرة فقط بين المسلمين والقوط ،

---

(١٩٧) تاريخ الأندلس (١٣٤) نص ابن الشباط .

(١٩٨) تاريخ الأندلس (١٣٥) .

(١٩٩) التاريخ الأندلسي (٥٦ – ٥٧) .

(٢٠٠) Saavedra, PP. 68-69, 99-101 ، وانظر الرازي – نشر سافيدرا (١٥٤) و Alfonso, 111,P. 612

(٢٠١) F. Simonet, op. 23-51.

(٢٠٢) Provencal, Vol. 1. PP. 20-21, 25.

وهي التي حدثت قرب ضفاف نهر وادي بَكّهْ او لَكُّهْ في كورة شَذونَة وأنّ لذريق هزم وقتل قرب هذا النهر (٢٠٣) .

وقد ذهب بعض المؤرخين المستشرقين ، بعيداً في تحديدهم لميدان القتال ، فيفترض أحدهم أنّ المعركة حدثت قرب نهر (Sangonera) الذي يسمى أيضاً بوادي الطين . وهو (Guadalentin) أو (Gudatin) ، وهو فرع من نهر شقورة (Seguar) في محافظة مُرْسِيَة (٢٠٤) شرقي إسبانيا (٢٠٥) .

وعلى كلّ حال ، فان دراسات المستشرقين الحديثة ، لم تأت بجديد ، وأقربها للصواب هي التي اتّفقت مع المؤرخين العرب في مصادرهم المعتمدة ، التي ذكرت أن ميدان القتال جرى على وادي برباط على مقربة من شذونة(٢٠٦) . أما التي اختلفت مع تلك المصادر ، فلم تأت بشيء يُطمئنّ إليه ، وتاهت في غمرات التيه دون أن تأت بجديد .

د . سير القتال :

فرّق نهر بَرْباط بين الجيشين المتحاربين مدى أيام ثلاثة ، شُغلت بالمناوشات البسيطة بين الجيشين ، وقد كان جيش القوط في الضفة الشمالية من النهر ، وكان جيش طارق في الضفة الجنوبيّة منه . وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ، ونشبت بينهما معركة عارمة . وظهر لذريق في وسط الميدان في حلل

---

(٢٠٣) C. Sànchez - Albornoz, ((Otra Vez Guadalete y Covadonga)), Cuadernos de Historia de España, 1-11, 1944 , PP. 12, 42, 56,58 , 67.

(٢٠٤) مرسية : مدينة بالأندلس من أعمال تدمير ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤/٨ — ٢٥).

(٢٠٥) انظر أحمد مختار العبادي — نصان جديدان — مجلة معهد الدراسات الأسلامية بمدريد — العدد الثالث عشر — ١٩٦٥ — ١٩٦٦ — ص (٢٨ — ٤٠) .

(٢٠٦) أنظر نفح الطيب (٢٥٧/١ — ٢٥٨) وتاريخ الأندلس (١٣٥ — ١٣٦) نص ابن الشباط والروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) .

ملوكيّة ، فوق عرش تجرّه الخيول المطهّمة ، وهو منظر أثار سخرية جيبون ولاذع تهكّمه ، إذ يقول عنه : « ولقد يخجل ألاريك (مؤسّس دولة القوط) عند رؤية خلفه لذريق ، متوّجاً بلآلِيء ، متّشِحاً بالحرير والذهب ، مضطجعاً في هودج من العاج (٢٠٧) .

وأظهر البربر المسلمون من غُمارة قدرة عظيمة على القتال ، فقد كانوا من المحاربين من بين إفراد تلك القبيلة المعروفين بالاقدام والشجاعة ، ومن المدرّبين على التّعابى العسكرية أحسن تدريب . وكان طارق قد قدم نفراً من السُّودان (٢٠٨) أمام جيشه ، ليتلقوا بما عُرف عنهم من الصبر والثبات الصدمة الأولى من الجيش القوطي ، التي تكون عادة صدمة مدبّرة تؤثر في المعنويات للمتقاتلين ، فترتفع معنويات المنتصر ، وتنها ر معنويات المنكسر .

وأظهر فرسان القوط قدرة قتالية عظيمة في أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسُّودان المسلمين ثباتاً عظيماً ، وكبدوا المسلمين خسائر بالأرواح كبيرة .

وكان قوّاد الفرسان من القوط ، أعداء لذريق ، غاضبين عليه وناقمين منه . وكان يليان ورجاله نشطين طوال المعركة في تخذيل الناس عن لذريق وصرفهم عنه ، وكانوا يؤكدّون للذين حول لذريق أنّ المسلمين لم يُقبلوا الى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظّفر بالغنائم ، وأنّهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين رجال

---

(٢٠٧) تشير معظم الروايات الاسلامية إلى هذا المنظر ، فيقول الطبري نقلا عن الواقدي . « فزحف الأدرينوق في سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التي كان يلبسها الملوك » ، انظر الطبري (٦/٤٦٨) ونفح الطيب (١/١١٢) والبيان والمغرب (٢ / ٩) .

(٢٠٨) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا الاسباني ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح . Saavedra. op. cit. P. 71

لذريق ، وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه ، فلم يلبث فرسانه وهم خيرة جنده ، أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره (٢٠٩) .

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين الجانبين أربعة أيام ، ثم انهزم القوط وقُتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسة بالأرض (٢١٠) .

ويقال : إنّ انتصار طارق كان بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، وتذكر الحوليات اللاتينية ، أن المسلمين عبروا إلى الأندلس ، وهزموا الجيش القوطي بسبب خيانة أولاد غيطشة (٢١١) . وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى أنّ مباحثات جرت في طنجة قُبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد اولاد غيطشة(٢١٢)، بينما يقول آخرون إنّ هذه المباحثات جرت قُبيل بدء المعركة بوقت قصير ، عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا ، فعرض أولاد غيطشة . أن يتخلوا عن لذريق ، ويؤيّدوا طارقاً برجالهم ، شريطة أن يضمن لهم كلّ ممتلكات والدهم التي تبلغ ثلاث آلاف ضيعة ، وهي التي سُمّيت فيما بعد بصفايا الملوك ، وذلك بعد أن يُخضع إسبانيا جميعها للمسلمين (٢١٣) .

(٢٠٩) تجمع المصادر العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة ، إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والمسلمين . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة . ششبرت بن أخيكا ، وأبه بن أخيكا ، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد في أمر مهم كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المصادر العربية تذكران لذريق سعي في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة – وقد ترعرعوا وركبوا الخيل يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم . . . » ، ابن القوطية – افتتاح الأندلس (٢ – ٣) ، وانظر الهامش (١) من كتاب فجر الأندلس (٧٤) .

(٢١٠) المقرى برواية الرازي (١٢١/١) .

(٢١١) Chronicon Albeldense, p. 193, Alfonso 111. p. 612.

(٢١٢) البيان المغرب (٦/٢) .

(٢١٣) افتتاح الأندلس (٥) والروض المعطار (٩ – ١٠) ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

وقد أورد مؤرخون عرب آخرون ، تفسيرات أكثر احتمالا وواقعية ، بشأن هذه المسألة . ولاتعرض مصادرهم لأية مباحثات بين طارق وأولاد غيطشة ، ويقتصر الأمر على أن اولاد غيطشة وبعض نبلاء القوط ، قرّروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة ، لأنهم اعتقدوا أنّ المسلمين لا ينوون الاستقرار في البلاد ، بل إنهم جاءوا من أجل الغنائم . وبعد أن يندحر لذريق ، فانّ العرش سيعود إلى أصحابه الشرعيين ، الى أولاد غيطشة (٢١٤) .

وقد كان الجيش القوطي نفسه مؤلفا في معظمه من العبيد المجندين ، وهم من المرتزقة المضطرين على القتال اضطراراً ، إذ لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل ، فهم يقاتلون بقدر خشيتهم لأسيادهم ، وبقد ما تدر عليه مهنتهم من مكاسب ماديّة ؛ قد لا تُسمن ولا تغني من جوع في أغلب الأحيان .

ويبدو أنه لم يكن هناك أيّ أمل في أن يتمكن هذا الجيش القوطي من مقاومة الهجوم الإسلامي . وإنّ دور أسرة غيطشة في ترجيح كفّة المسلمين ، قد تعرّض إلى كثير من المبالغة (٢١٦) . وكانت صفوف الجيش القوطي تتألف من أتباع آل غيطشة وأتباع حلفائهم من الزعماء والأمراء الناقمين على لذريق ، والذين تظاهروا بالأخلاص في وقت الخطر ، وكلّهم يتحيّن الفرصة للايقاع بالملك المغتصب لذريق (٢١٧) ؛ فكانت الخيانة تمزّق جيش القوط شرّ ممزق . واستمال يليان والأسقف أوباس وهما في صفّ المسلمين كثيراً من جند القوط . وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية للذريق كثيراً

---

(٢١٤) أخبار مجموعة (٧ - ٨) وفتح الأندلس (٦ - ٧) وابن الأثير (٤ / ٥٦٣) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦ - ١٠٧) والنويري (٢٢ / ٢٧) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١ / ٢٣١ - ٢٣٢ - و٢٥٧ - ٢٥٨) .

(٢١٥) Thompson. pp. 265 - 267, cit. Lv.v. 3.4.7.19.

(٢١٦) الفتح والاستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٩) .

(٢١٧) ابن الأثير (٥٦٣/٤) ونفح الطيب (١٢١/١) ودوزي (٢٧٢/١) .

من عوامل الشقاق والتفرقة ، فأخذ كلّ أمير يسعى في سلامة نفسه (٢١٨) . وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى في جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ مَن بقي منه بالفرار وأسياف المسلمين في أقفيتهم . وقد قتل من القوط في تلك الأيام عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر . وتذهب المصادر العربيّة إلى أنّه أراد أن يعبر وادي البرباط على عجل ، فغرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلاّ على خفّه (٢١٩) . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إنّه بقي في ميدان القتال حتى قُتل مدافعاً عن عرشه وأمته ، وتقول بعضها : إنه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنّه غرق في مياه النّهر . وتميل الروايات الاسلامية إلى تأييد غرقه ، وتقول : إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبيّ . ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النّصرانية ، أنّ لذريق استطاع أن يلوذ بالفرار ولكنّه قُتل بعد ذلك ، أو أنّه فرّ إلى بعض الأديار في البرتغال وترهّب ، وعاش متنكراً حيناً من الدّهر . وينفرد صاحب كتاب : الامامة والسياسة ، بين المشارقة برواية أخرى ، وهي : أن طارقاً ظفر بجثّة لذريق ، فاحتز رأسه ، وبعث به إلى موسى بن نُصَيْر ، وبعث به موسى بن نصير إلى الخليفة في دمشق ، ويتابعه في ذلك مؤلف أندلسيّ هو صاحب كتاب : تحفة الأنفس (٢٢٠) هذا إلى روايات كثيرة .

والمرجّح من هذه الروايات كلّها ، أن لذريق فقد حياته في الموقعة التي فقدَ فيها ملكه ، وأنّه مات قتيلاً او غريقاً على الأثر (٢٢١) .

(٢١٨) دولة الأسلام في الأندلس (٤٤) .

(٢١٩) . لا يقطع ابن عذاري في البيان المغرب بموت لذريق ، ويكتفي بقوله : « ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وانما وجد له خف مفضض ، فقالوا : إنه غرق . وقالوا : إنه قتل ، والله اعلم » ، انظر البيان المغرب (١٠/٢) وفجر الأندلس (٧٤).

(٢٢٠) . الأمامة والسياسة (٧٥/٢ – ٧٦) وانظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

(٢٢١) . يقول ابن الأثير (٢١٤/٤) : إنه غرق في نهاية المعركة ، ويقول المقري في نفح الطيب (١٢١/١) : إنه رمى بنفسه الى النهر مختاراً ، وقد نقلته أيضا رواية ، اخبار مجموعة (٦) . انظر التفاصيل في الفقرة (٢) من الهامش في كتاب : دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

تلك مجمل ما جاء في المصادر والمراجع ، حول أهم أسباب انتصار طارق على لذريق ، آثرت ذكرها باختصار غير مُخِلّ ، مع الإشارة إلى مصادرها ومراجعها ، لكي أُناقش آراءها ، وأُبدي ما أراه حولها .

والمتتبِّع لسير القتال في هذه المعركة الحاسمة ، يجد أنّ القتال كان ضارياً بين الجانبين المتحاربين : المسلمين من جهة ، والقوط من جهة أخرى . فثبات البربر من غُمارة ، وإظهارهم القدرة العظيمة على القتال ، دليل على أنّ زخم القوط في المعركة كان شديداً ، ولا يقاتل بهذه الشِدّة رجال تنخر بين صفوفهم الإشاعات الضارّة ، ويتآمرون على السُّلطة القائمة المتمثّلة بلذريق ملكاً وقائداً عاما .

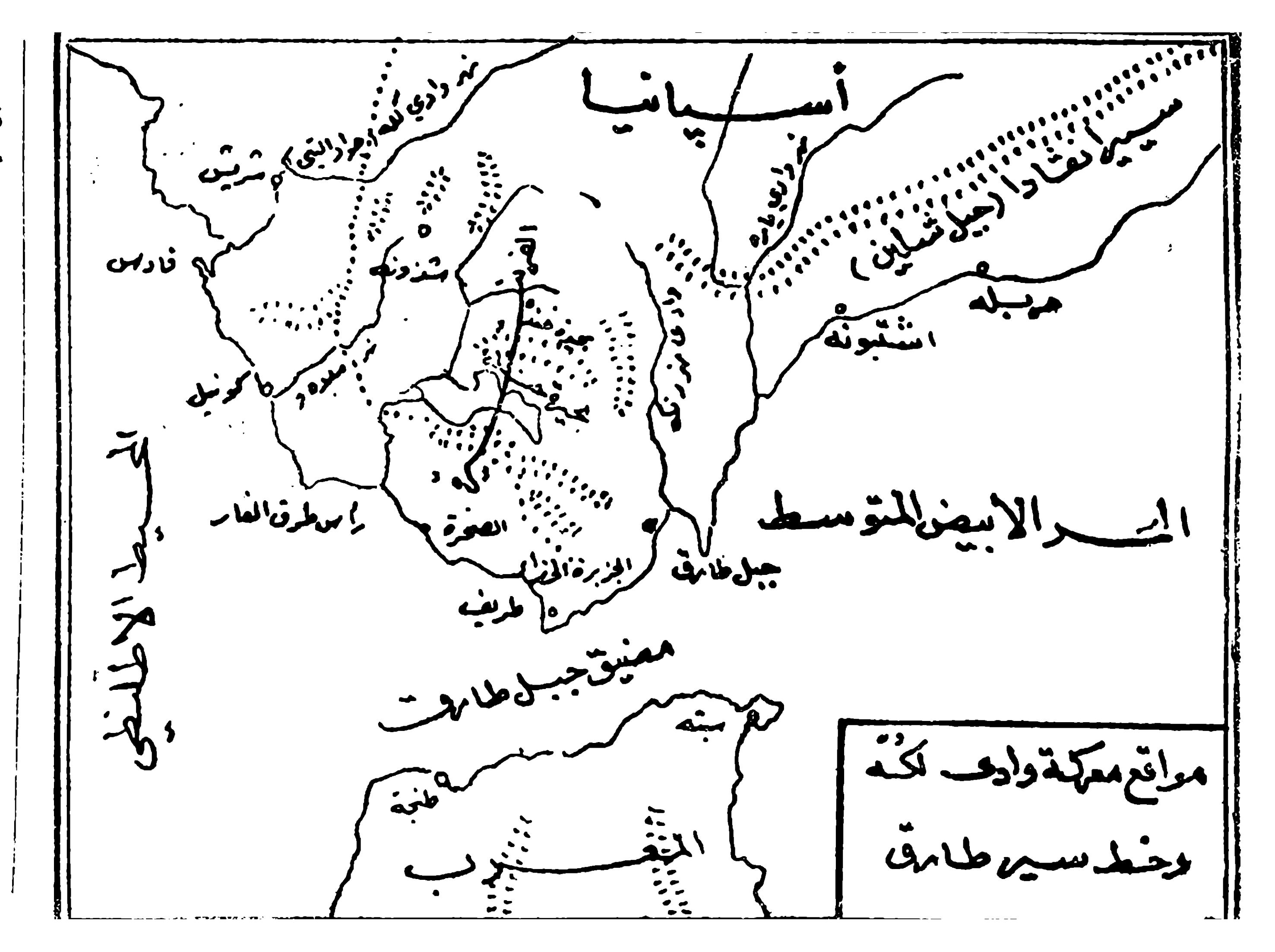
وقد أظهر فرسان القوط في اليوم الرابع من المعركة ، بعد أن حمي الوطيس قدرة قتالية عظيمة ، وثبتوا لضغط المسلمين الشديد ، ولا يمكن أن يُظهر مثل هذه القُدرة متآمر أو مقاتل تعصف بأرادته القتالية الأشاعات الضّارة .

كما أنّ تصدىّ السُّودان المسلمين البطوليّ العزوم للقوط ، يدلّ على أنّ القوط كانوا يقاتلون في المعركة كما يقاتل الرجال .

وكان تعداد جيش المسلمين في هذه المعركة – كما ذكرنا – اثنى عشر ألف مجاهد ، استُشهد منهم في المعركة ثلاثة آلاف مجاهد . أي أنّ خمسة وعشرين بالمئة من جيش المسلمين استُشهدوا في هذه المعركة ، وهي نسبة عالية جداً ، إنْ دلّت على شيء ، فانّما تدّل على شدة مقاومة القوط في المعركة ، وأنهم قاموا بواجبهم في القتال . فقد قسم طارق الغنائم بعد هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين (٢٢٢) ، أي أنّ هؤلاء هم الذين سلموا ، وقُتل الباقون .

---

(٢٢٢) . نفح الطيب (١٦٣/١) ، وانظر فجر الأندلس (٧٥) .


أسبانيا
البحر الابيض المتوسط
المحيط الاطلنطي
مضيق جبل طارق
جبل طارق
طريف
الصخرة
شريش
قادس
اشتبونه
مربله
سبته
طنجة
المغرب
مواقع معركة وادي لكة
وخط سير طارق

أما التركيز على إشاعة أنَّ المسلمين جاءوا من أجل الغنائم إلى الأندلس وليس من أجل الفتح ، فهم قدموا ليرحلوا ولم يأتوا ليبقوا ، فمن الصعب تصديقها ، لأنّ ورثة غيطشة اشترطوا أن يستعيدوا قراهم وضياعهم بعد الفتح، فلماذا يشترطون مثل هذا الشرط على المسلمين إذا كان المسلمون سيعودون بالغنائم الى قواعدهم في الساحل الإفريقي ، ويعود العرش وملك الأندلس إلى ورثة غيطشة الشرعيين ؟ !

ثم إنّ المسلمين قدموا إفريقية من أمد طويل ، بدأ قبل سبعين سنة (أي سنة (٢٢ هـ)) ، ولم يرحلوا عنها بل توسعوا في فتوحهم بالتدريج ، فلماذا يرحلون عن الأندلس بعد فتحها ؟

ومن الواضح أنّ أخبار المسلمين في شمالي إفريقية ، كانت معروفة لدى حكام الأندلس بخاصة ، وأهل الأندلس بعامة ، فهم لا يمكن أن يتقبلوا بسهولة الاشاعة التي تزعم : أنّ المسلمين جاءوا ليرحلوا لا ليبقوا .

ومع ذلك ، فيمكن أن يعتذر بمثل هذه الإشاعة الهارب ، عن جريمة هربه من المعركة ، مع الادعاء بأن هربه كان نكاية بالملك لذريق وانتصاراً لآل غيطشة والناقمين عليه من النبلاء . وارضاء للمسلمين المنتصرين .

وإذا كان قادة فرسان القوط قد خرجوا من المعركة بمن معهم من الفرسان – وهم خيرة جند لذريق – وتركوه لمصيره ، فمن أين غنم المسلمون الخيل ؟ لقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة ، حتى لم يبق منهم راجل ، فمن أين غنم المسلمون هذا العدد الضخم من الخيول ، إذا كان الفرسان القوط قد انسحبوا من المعركة بالتواطيء مع المسلمين ؟ وهل يمكن أن يغنم المسلمون خيول مَن تواطأوا معهم على نصرتهم ؟

وقد قُتل في المعركة ششبرت أخو غيطشة ، وكان أبرز قادة فرسان القوط ، فكيف قُتل وهو قد تخلى عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة ؟!

ومع ذلك ، فلا يمكن إنكار أن آل غيطشه ومَن يشايعهم من النبلاء ، كانوا ناقمين على لذريق الذي اغتصب عرش غيطشة ، فهم يطمعون أن يستعيدوا عرشهم بزوال لذريق ، وبرحيل المسلمين عن الأندلس ؛ وكان رحيل المسلمين عن الأندلس من الأماني التي يتعلّلون بها ولا يعتقدونها . وقد ورد نص في : أخبار مجموعة ، يفيد هذا الاتجاه ويشير اليه : « .... ومعهم يليان – أي مع المسلمين – في جماعة من أهل البلد ، يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فأقبل اليهم رُذريق (لذريق) ، ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فلما بلغتهم عدّة المسلمين وبصائرهم ، تلاقوا بينهم – أي أولاد الملوك – فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنمّا كان من سفالنا ، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بايطان بلدنا ، إنمّا يريدون أن يملوا أيديهم ، ثمّ يخرجون عنّا ، فانهزِم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم ، فأجمعوا لذلك ، وكان رُذريق قد ولّى ششبرت ميمنته وأبه ميسرته ، وهما أبناء غيطشة (٢٢٣) ، الذي كان ملكاً قبله ، وهما رأس مَن أدار عليه الانهزام » (٢٢٤) ، فالاتفاق على الهزيمة لم يكن مع طارق ، بل كان بينهم لايعرف عنه طارق شيئاً ، لذلك اقتتل الطرفان المتحاربان اقتتالاً شديداً (٢٢٥) ، حتى ظنّوا أنّه الفناء (٢٢٦) ، فلم تكن بالغرب مقتلة أعظم منها (٢٢٧) ، واستمرت المعركة ثمانية أيام ، ولا يمكن أن تستمر معركة من المعارك ثمانية أيام ، وهي مدّة طويلة جداً بمقاييس ذلك الزمن ، إلاّ إذا كانت المعركة ضارية إلى أقصى الحدود ، وإلاّ إذا كان الجانبان المتحاربان

---

(٢٢٣) . هما إخوة غيطشة وليسا ابنيه ، كما ذكرنا ذلك من قبل .

(٢٢٤) . اخبار مجموعة (٧ – ٨) .

(٢٢٥) . اخبار مجموعة (٨) والبيان المغرب (٧) .

(٢٢٦) . البيان المغرب (٧) .

(٢٢٧) .البيان المغرب (٧) .

قد بذلا جهوداً قتالية جبارة في المعركة : « فالتقيا يوم الأحد ، وصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يُعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بانَ له أثر ، فقيل : إنّه ترجّل وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي ، فصادف غديراً فغرق فيه فمات » (٢٢٨) . في حين تذكر بعض المصادر ، أنّ لذريق فرّ من الميدان ، والتقى بالمسلمين في معركة أخرى ، شمالي الأندلس ، فقتل فيها (٢٢٩) ، لكنّ هذا الرأي ضعيف لاتدعمه الأدلة والمصادر المعتمدة الأخرى.

يمكن أن نستنتج ، بعد عرض ما جاء في المصادر والمراجع العربيّة ، ومناقشة ما جاء فيها من معلومات ، أنّ المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق ، والقوط بقيادة لذريق ، قد بذل خلالها الجانبان المتحاربان أقصى جهودهما المادية والمعنويّة لأحراز النصر ، وقد شُغل الجانبان بالمناوشات الاستطلاعية لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع حمى الوطيس بين الجانبين ، واستمرت المعركة شديدة عارمة أربعة أيام ، تكبّد خلالها الجانبان خسائر فادحة بالأرواح ، مما يدل على ثباتهما الرّاسخ العنيد في القتال . وقد ثبت قلب القوط ثباتاً أفضل من ثبات الميمنة والميسرة ، ويبدو أنّ قائدي الميمنة والميسرة اللذين كانا مع لذريق في في الظّاهر وعليه في الباطن ، آثرا الانسحاب في اليوم الرابع من الاصطدام العنيف بين الجانبين، وفي اليوم السابع من حصول التماس المباشر بينهما ، فأصبح قلب القوط يقاتل وحده ، مما جعل المسلمين يكتسحونه بسهولة ، لأنّ قواتهم ركزت عليه ، وكانت من قبل تقاتله وتقاتل الميمنة والميسرة . وقد استطاع آل غيطشة تنفيذ مؤامرتهم على لذريق ، بعد أن كبدّ المسلمون ميمنة القوط وميسرتهم خسائر فادحة ، بحيث أوشكت الميمنة والميسرة على الانهيار تحت

---

(٢٢٨) . تاريخ الأندلس (٤٨) و (١٣٥) ، والبيان المغرب (٢/٧ و ٨ و ٩) ونفح الطيب (٢٤٢/١ و ٢٤٩ و ٢٥٨ – ٢٥٩) .

(٢٢٩) . تاريخ الأندلس (٢٩ وما بعدها) .

ضغط قوّات المسلمين ، إذ لم يكن بالامكان تنفيذ مؤامرتهم قبل أن يكبد المسلمون الميمنة والميسرة خسائر فادحة بالأرواح ، لأنّ لذريق وهو في قوّته لايمكن أن يسكت على المتآمرين ، إذ يقابل تآمرهم بالقوة ، ويصفيّ المتآمرين جسدياً قبل أن ينجحوا في تصفيته .

ولا أرى ، أنّ آل غيطشة كان لهم صلة بطارق ، ولا علم لطارق بمؤامرتهم ، إذ لم يثبت أنّهم اتّصلوا به قبل المعركة أو في أثنائها ، فقد كتموا نواياهم ، ولم يظهروها لأحد ، وإلاّ سهل على لذريق اكتشافها في الوقت المناسب ، وسهل عليه وضع حدّ نهائي لها قبل فوات الأوان .

وحين وجد لذريق ، أنّ المسلمين ، قد أجهزوا على القلب الذي يقوده ، لم يكن أمامه إلاّ الهرب تحت ضغط مطاردة عنيفة ، فغرق في وادي الوحل أو قتل ، والنتيجة واحدة ، هي أنّه لم يبق بعد تلك المعركة الحاسمة على قيد الحياة .

وهكذا خسر لذريق ، في هذه المعركة جيشه ، كما خسر روحه .

وقد طارد المسلمون فلول القوط بعد انسحابهم من ميدان المعركة مطاردة عنيفة ، فأبادوا مَن لم يستَسلم من القوطِ ، وبذلك جرت معارك محليّة بين المسلمين وبين القوط ، هي معارك استثمار الفوز ، في جنوبي مدينة شَذُونَة وشماليّها ، فسميّت هذه المعركة الحاسمة بعدّة أسماء مختلفة ، هي أسماء تلك المعركة الحاسمة وأسماء تلك المعارك المحليّة : معارك المطاردة ، مثل معركة البحيرة ، ومعركة وادي بكّه ، ومعركة وادي لكّه ، ومعركة وادي البرباط ، ومعركة شِرَيْش (٢٣٠) ، ومعركة السَّواني ، ومعركة

(٢٣٠) . شريش : مدينة كبيرة من كورة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(٥/٢٦٠)

السّواقي (٢٣١) ، فهي معركة كورة شَذُونَة بأسرها التي تقع في جنوبي غربي الأندلس (٢٣٢) .

ولا مجال لتصديق ، أنّ لذريق هرب بعد هذه المعركة نحو الشمال ، واصطدم بالمسلمين بموقعة جديدة (٢٣٣) ، لأن لذريق خسر قوّاته الضاربة في معركة وادي لكّـه . ولم تكن لديه قوّات احتياطية ليقاتل بها المسلمين ، كما أنّ مطاردة المسلمين بعد المعركة كانت شديدة ، بحيث لم يفسحوا المجال لنجاة الهاربين من ساحة القتال وتجمّعهم بقيادة واحدة مسئولة ، لتجديد القتال مع المسلمين من جديد .

وجرى القتال بالنسبة للقوط ، بالنظام الخماسي للقتال : المقدّمـة ، والمؤخرة والميمنة والميسرة ، والقلب ، وهو نظام أصلح لإجراء الحركة المرنة بسهولة ويسر ، وأكفل للثبات بوجه الهجمات ، وأمنع لمباغتة العدو .

أما المسلمون ، وكان أكثرهم من البربر ، فقاتلوا بأسلوب : الكرّ والفرّ . قال ابن خلدون : « إنّ الكـرّ والفرّ هو قتال البربر من أهل المغرب » (٢٣٤) ، ولا يزال البربر يقاتلون بهذا الأسلوب حتى اليوم ، في قتالهم غير النظامي ، المرتبط بقياداتهم غير النظاميّة . أما الذين ارتبطوا بالجيوش الحديثة ، فقد أصبحت أساليبهم القتالية أساليب حديثة ، أسوة بغيرهم كما هو معروف .

وأسلوب الكرّ والفرّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلّ قوّتهم على العدو : النَشّابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح ، مشاةً وفرساناً ،

(٢٣١) . فتوح مصر والمغرب (٩-١٠) وابن القوطية (٧) وفتح الأندلس (٧) واخبار مجموعة (٢٠٦) وابن الأثير (٥٦٢/٤) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦) والبيان المغرب برواية الرازي (٨) والنويري (٢٧/٢٢) والحميري (١٦٩) وابن خلدون (٢٠٤/٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (/٢٤٩) و(٢٥٨/١) .

(٢٣٢) . الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٦٨)

(٢٣٣) Saavedra. pp. 68-69 — F. simonet, op. citp. 23-2 وانظر الرازي، نشر : سافيدرا ص (١٥٤) .

(٢٣٤) . ابن خلدون (٨٢٣/٢) .

فان ثبت لهم العدو أو أحسّوا بالضّعف نكصوا ، ثمّ أعادوا أنتظامهم وكرّوا ، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يكتب لهم النصر أو الاندحار (٢٣٥) .

واستطاع المسلمون إحراز النصر على القوط ، بالرغم من تمتّع القوط بمزايا عسكرية يتفوّقون بها على المسلمين ، منها أنّ تعداد القوط كان ثمانية أضعاف تعداد المسلمين ، ومنها أنّ غالبية جيش القوط كانوا من الفرسان ، وكان غالبية جيش المسلمين من المشاة ، والفرسان يتفوّقون على المشاة بسرعة الحركة وبالتأثير الحاسم في القتال ، وكان القوط في حالة إدارية : إعاشةً وكساءً وغطاءً ، متميزة على المسامين الذين كانوا في حالة إدارية متواضعة . كما أنّ قيادة القوط لم تكن واهنة كما يتوهم قسم من المؤرخين ، فقد كان لذريق يهتمّ بالمظاهر الخلاّبة ، ولكنه كان طموحاً شجاعاً ، كما أنّه قائد ميدانيّ ، دأب على قيادة رجاله بنفسه ، ولم يتخل عن قيادتهم لغيره من قادته المرءوسين ، فكان يقود رجاله في حرب الخارجين عليه من الأسبان في الشمال ، قبل إنزال المسلمين إلى برّ الأندلس ، وقاتل المسلمين بنفسه ، كما أنّه لم يكن من العائلة المالكة في إسبانيا ، فحملته قيادته وثقة الشعب به إلى القضاء على الملك غيطشة وتولىّ الملك خلفاً له بقيادته لابنسبه وحسبه ، فليس لذريق قائداً متخلّفاً بل كان قائداً لامعاً بحق ؛ فكانت قيادة القوط قيادة قادرة ذات كفاية عالية ، كما كانت قيادة المسلمين كذلك متمثلة بطارق بن زياد .

إنّ انتصار المسلمين على القوط ، ليس بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، كما تردّد ذلك بعض المصادر عن حسن نية أو عن سوء نيّة ، بقصد إخفاء سبب النصر الحق ، فقد انتصر المسلمون بعقيدتهم الراسخة ، فكانوا يتميّزون على القوط بمعنوياتهم العالية المتميّزة ، وهذه المعنويات العالية هي التي تجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة باذن الله .

(٢٣٥) . الرسول القائد (١٠٤) ط ٣ ، وعقبة بن نافع الفهري (٥٠) – ط ٤ .

وليس معنى ذلك ، أنّ جيش القوط خلا من الخيانة ، فقد ظهرت الخيانة بعد اندحار القوط لا حين كانوا أقوياء ، وبعد الاندحار تكثر الادعاءات ويكثر الأدعياء .

وقد كان البربر قبل إسلامهم مستعبدين للروم وللإسبان ، فتبدّل حالهم بالإسلام من حال إلى حال .

وكان سرّ انتصار المسلمين في معاركهم الحاسمة : في غزوة بدر الكبرى ، والقادسية ، واليرموك ، ونَهاوند ، هو سر انتصارهم في معركة وادي برباط أو وادي لَكُّه ، فبالإسلام انتصروا ، وقد رفعت تعاليم هذا الدين معنويات المجاهدين قادةً وجنوداً ، وبعثت فيهم إرادة القتال التي لا تُقهر .

وكان هذا السرّ وراء فتوحاتهم شرقاً وغرباً ، فقضت على الفُرس ، وهزمت الرُّوم ، وسارت رايات النصر من بلد إلى بلد ، فأصبحت بلاد المسلمين لاتغيب عنها الشمس أبدا .

وبالإضافة إلى أن هذا الدين رفع المعنويات وبعث إرادة القتال ، فقد أعطى الفرصة لظهور القادة المتميزين والجنود المتميِّزين أيضاً ، لتستكمل حلقات عوامل النصر المعنوية والمادية المعروفة ، وهي : المعنويات العالية ، والقيادة المتميِّزة ، والجنود المتميِّزون ، وكانت تلك الحلقات متوفِّرة في المسلمين الفاتحين ، فقد كان طارق قائداً متميزاً حقاً ، برزت سماته القيادية طيلة أيام المعركة الحاسمة ، كما برزت في إصراره الشديد على المطاردة المتّصلة التي لا هوادة فيها . كما كان جنود طارق جنوداً متميِّزين حقّاً ، برزت سماتهم القتالية في إدامة التّماس بالقوط ، وإدامة قتالهم ليلا ونهاراً بلا كلل ولا ملل ، بدون إعطاء فرصة للقوط للاستراحة من عناء القتال ، ودون أن يكترثوا بتصاعد أعداد الشهداء الذين تساقطوا في ميدان القتال ، فقد استُشهد واحد من كلّ أربعة ، ولا بدّ أن يكون الجرحى أضعاف الشهداء ، فانتصروا

على القوط بالشهداء المُقبلين ، وانهزم القوط بالقتلى المدبرين ، وهذا هو الفرق بين الجيش الذي يتحلىّ بالمعنويات العالية المرتكزة على العقيدة الراسخة ، والجيش الذي لا يتحلىّ بالمعنويات العالية .

وكما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق للمسلمين الفاتحين ، وفتحت معركة اليرموك الحاسمة أبواب بلاد الشّام لهم ، وفتحت معركة نَهاوَند أبواب بلاد فارس ، وفتحت معركة نابليون الحاسمة أبواب مصر للفاتحين ، فقد فتحت معركة وادي لَكُّهْ الحاسمة أبواب الاندلس للمسلمين الفاتحين ، فكانت معارك الفتح التي تلتها معارك ثانوية ، لأنها معارك : استثمار الفوز ، كما يطلق على أمثال تلك المعارك الثانوية التي تجرى بعد المعركة الحاسمة ، معارك استثمار الفوز ، في المصطلحات العسكرية الحديثة ، لأن الفاتحين يقابلون فيها جيوشاً محلية ، تتّسم بصغر حجمها ، وقلّة تدريبها ، وجمع كثير من جنودها على عجل قسراً وبدون استعداد كافٍ ولا تدريب مناسب ، وبضعف قيادتها المحلّية ، وبانهيار معنويات رجالها .

وليس معنى ذلك ، أن المقاومة في معارك استثمار الفوز ، تكون مقاومة واهنة باستمرار ، بل قد تشتدّ المقاومة أحياناً ، كما سنلمس ذلك في معارك فتح الأندلس ، التي تلت معركة الفتح الحاسمة ، ولكن النّصر يكون مضموناً ، مهما اشتدت المقاومة وتأخّر الفتح أياما معدودات ، ولن يكون ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب النّصر المحقّق المضمون .

وقد فتح طارق شطر الأندلس ، وفتح موسى بن نُصَيْر شطر الأندلس ، ولكن ينبغي أن يُعزى فضل الفتح كلّه لطارق ، لأنّه المنتصر في المعركة الحاسمة لفتح الأندلس ، وما فتحه طارق ، وما فتحه موسى ، بعد تلك المعركة الحاسمة ، كان من نتائج معارك استثمار الفوز ، التي تثمر باستمرار النّصر المحقّق المضمون .

٦ - فتوح طارق قبل عبور موسى بن نصير الى الأندلس

(أ) الموقف العام بعد المعركة الحاسمة :

لم تكد أخبار انتصار المسلمين على جيش لذريق في معركة حاسمة على أرض الأندلس ، تصل إلى المسلمين في شمالى إفريقية ، حتى أقبل المسلمون نحو طارق من كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ ما قدروا عليه من مركب وقُشْر (٢٣٦) . فلحقوا بطارق (٢٣٧) . وفاض البربر على الأندلس ، وأخـذوا يستقرون في النـواحي المفتوحة . وتضخّم تَعـداد جيش طارق إلى حدٍّ يصعب معه تقديره ، بعد هذه المعركة الحاسمة ، وأسلم الآراء هي القول ، بأن جيش المسلمين تضخّم تضخما عظيما . ورأى طارق ، أنّه لن يستطيع التقدّم للفتح بمثل هذه الجحافل الضّخمة من المجاهدين دفعة واحدة ، لصعوبة السيطرة على أرتالها المتزايدة . ولصعوبة تعسكرها في مكان واحد في وقت واحد ، ولمشاكل تأمين أرزاقها ومياهها وعلف حيواناتها من مكان واحد في وقت واحد . فآثر أن يفرّقهم إلى أرتال صغيرة بقيادات مسئولة ، للنهوض بواجبات معينّة في الفتح (٢٣٨) .

وكان من نتائج انتصار المسلمين على القوط في المعركة الحاسمة . ظهور اضطراب في شئون الأندلس كلّها . التي لا تزال تحت سيطرة القوط : « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ؛ ولحقوا بالجبال » (٢٣٩) . وحسب حزب غيطشة . أنّ الفرصة قد سنحت لهم ،

---

(٢٣٦) . القشر : في الأصل ، السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا ، الزورق الصغير .
(٢٣٧) . نفح الطيب (٢٤٣/١) وتاريخ الأندلس (٤٨) نص ابن الكردبوس .
(٢٣٨) . انظر : فجر الأندلس (٧٥) .
(٢٣٩) نفح الطيب (١٦٣/١) برواية الرازي .

لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم (٢٤٠) ، وفعلاً بذل وَقِلَمة (أَخيلا) جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجالس طايطلة قراراً ، باعتباره ملكاً على الأندلس . خلفاً للملك لذريق ، ولكنّ الأمر لم يستقرّ له ، لأنّ الشائعات كانت تملأ الجوّ بأنّ لذريق لم يُقتل ولايزال حيّاً يرزق . وعمل حزب غيطشة من جهة أخرى ، على تشجيع طارق ، للاستمرار في التقدم فاتحا ، حتى يتمّ لهم القضاء على لذريق وأنصاره نهائياً ، وما كان طارق بحاجة إلى تشجيع أحد للنهوض بالفتح ، فقد سار قدماً في تطبيق خطته العامة لفتح الأندلس. أما يليان ، فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء (٢٤١) .

ذلك هو الموقف العام بالنسبة للمسلمين من جهة ، وبالنسبة للقوط من جهة أخرى ، قبل أن يستثمر المسلمون انتصارهم على القوط في المعركة الحاسمة ، لتحقيق أهدافهم في الفتح .

ب . فتوح المدن الثانويّة :

كانت المعركة الحاسمة ، وما جرى بعدها من مطاردة طارق للقوط الهاربين، حول مدينة شَذُونَة ، دون أن يفتح المسلمون هذه المدينة . ويبدو أنّ أهلها ومَن لاذ بها من القوط الهاربين وحامية المدينة من الجيش القوطي المحليّ ، قد قرّروا الدفاع عن المدينة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لَكّه ، فبدأ بحصار شذونة (Medinesidonia) وفتحها عَنْوَة بعد حصار .

(٢٤٠) Saavedra. OP. Cit. P. 76.. ، وللرازي اشارة هامة تؤيد هذا الرأي ، فقال :

« إن يليان قال لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جبهات البلاد ، واعمد أنت الى طليطلة ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم ، » مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئا في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالأسراع إلى طليطلة رأسا ليتدارك الأمر ، أنظر نفح الطيب (١٦٤/١) برواية الرازي .

(٢٤١). البيان المغرب (١٠/٢) .

ومضى إلى مدينة المُدُور (٢٤٢) (Almodovar) ، وهي مدينة مَوْرور (Moron) (٢٤٣) ، فافتتحها أيضا .

ثمّ عطف طارق على مدينة قَرْمُونَة (٢٤٤) (Carmona) ففتحها أيضا.

واتجه طارق نحو مدينة إشْبِيلِيَة (٢٤٥) (Sevilla , Seville) ، فتمّ له فتحها صلحاً إذ صالحه أهلها على الجِزْيَة .

وزحف طارق إلى مدينة إسْتَجَّة (٢٤٦) ، فعسكر حول المدينة ، وضرب حولها الحصار . وقد أبدت حامية المدينة ، مقاومة مستميّة للدفاع عنها ، وكانت المدينة تمثلّ المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمّعت هناك (٢٤٧) . وبعد معركة قاسية ، حقّق المسلمون نصراً آخر على الرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم (٢٤٨) ، وغنموا في هذه المعركة العديد من الخيول التي كانوا في حاجة ماسّة إليها ، وتفرّق مَن بقي من فلول القوط إلى المدن الأندلسيّة الأخرى .

---

(٢٤٢) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من مدينة قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٧/٧) ، وانظر ابن الشباط (١٠٩) برواية عريب ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٤٣) . التاريخ الأندلسي (٦٣) وجغرافية الأندلس واوروبا (٦٤) .

(٢٤٤) . ورد اسمها في : معجم البلدان (٦٢/٧) : قرمونية ، وهي كورة بالأندلس ، يتصل عملها بأعمال أشبيلية غربي قرطبة وشرقي اشبيلية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٧) ، وانظر : تاريخ الأندلس (١٣٥)–١٣٨) نص ابن الشباط حول فتحها .

(٢٤٥) . اشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس ، ليس بالا ندلس اعظم منها ، وبها قلعة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر ، يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، وهي على شاطيء نهر عظيم تسير فيه المراكب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٤/٤) وتقديم البلدان (١٧٤ – ١٧٥) .

(٢٤٦) . استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة باعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، واعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(٢٤٧) . أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (٢٤٤/١) .

(٢٤٨) . ابن الشباط برواية عريب (١١٢) والرازي (٦٧ – ٦٨) وابن القوطية (٩) واخبار مجموعة (٩ – ١٠) وفتح الأندلس (٧– ٨) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب برواية الرازي (٨/٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٠) .

ومن الطريف ، أن طارقاً ظفر بالعِلْج صاحب إسْتَجَّة ، فقد كان مُغتَرّاً سَيِّىء التدبير . فخرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه . ووثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى معسكر المسلمين ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحبّ . وضرب عليه الجزية ، وخلى سبيله ، ولعلّه عاون في استسلام المدينة للمسلمين . فقد كانت في موقع حصين . يساعدها على الدّفاع المدبّر ، كما كان فيها حماة من القوط الهاربين ومن أهل المدينة بأعداد لا يستهان بها ، ساعدتهم على الدّفاع المديد ، ولكنّ المسلمين فتحوها أخيراً بعد أن تكبّدوا خسائر لا يستهان بها من الشهداء والجرحى .

وازدادت خشية القوط من المسلمين ، وبشكل خاص عندما تبيّن لهم أنّ هيمنة طارق أصبحت هيمنة مؤثرة وفعّالة في مناطق عديدة من بلاد الأندلس . وقد كان بعضهم يعتقد أوّل الأمر ، أنّ هدف طارق ، هو الحصول على الغنائم والعودة إلى الشمال الإفريقي ، كما فعل طَريف بن مالك من قبله ، ولكنّهم حين رأوا تقدّمه السريع ، هجروا مناطق السهول من البلاد ، ولجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى (٢٤٩) . وأصبحت حالة القوط ممزّقة بعد موت لذريق (٢٥٠) ، نتيجة من نتائج انتصار المسلمين الحاسم ، وعمد دوق (Duke) كلّ منطقة إلى الاستقلال بناحيته ، وضرب الخوف والارتباك أطنابها في صفوف القوط ، فاتخذت البلاد المهمّة مثل قُرْطُبَة وطَلَيْطُلَة وماردة والبيرة لها حكّاماً مستقلين (٢٥١) .

(٢٤٩) . أخبار مجموعة (٩-١٠) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب (٢/٨-٩) برواية الرازي ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٥٠) . Chr. 754, p. 147. (no. 36) حولية سنة ٧٥٤ م.

(٢٥١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩) ،

والواقع أنَّ لهذه المدن ، ولغيرها في أيام لذريق وأسلافه من ملوك الأندلس . حُكّاماً مستقلين ، ولكنّهم كانوا يرتبطون بالملك ويخضعون لأوامره وتوجيهاته . فلما قضى المسلمون على لذريق ، كما قضوا على معظم جيشه الذي هو جيش المملكة المسئول عن حمايتها والدفاع عنها . وليس جيشاً محلياً مسئولاً عن حماية منطقة معيّنة والدفاع عنها . لم يبق في الأندلس ملك يجمع شمل الحكّام تحت سيطرته ورايته ، ولم يبق جيش للملك يفرض سيطرته على الحكّام وعلى مناطقهم . ويعين الملك على فرض سيطرته . ويسيطر على أرجاء البلاد كافة ويجمع شملها ويوحد كلمتها ، فأصبح حكام المدن الأندلسيّة والمناطق الأندلسيّة بطبيعة الحال حُكّاماً مستقلين . كلّ واحد منهم هو المسؤول الأول عن حماية مدينته أو منطقته والدفاع عنها ، إذ لم يبق مَن يدافع عنهم بعد القضاء على الملك وجيشه . بفضل انتصار المسلمين على القوط في معركة وادي لَكَّة الحاسمة . وليس كما يحاول إظهاره بعض المؤرخين الأجانب . بأنّه أثر من آثار يليان وحزب غيطشة في القوط ، لا أثر من آثار انتصار المسلمين على القوط .

واستبان لطارق كثرة مَن معه من المجاهدين ، وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة . وضعف مقاومة القوط المندحرين . فاستمع الى نصيحة يليان بأن يفرّق جنده في بعوث جانبية قائلا له : « قد فتحتَ الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ، ففرّق معهم جيوشك . وسر معهم إلى مدينة طُلَيْطُلَة » . ففرّق جيوشه من إسْتِجَّة (٢٥٢) .

ووجّه طارق من إسْتِجّة سرايا من جنده إلى عدّة جهات . فبعث جيشاً بقيادة مُغيْث الرّومِيّ مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك لفتح مدينة قُرْطُبَة

(٢٥٢) . فتح الأندلس (٨) .

(Cordoba) ، في سبعمائة فارس ، فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقّة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المجاهدين المسلمين (٢٥٣) .

وأرسل جيشاً إلى مدينة مالَقَة (٢٥٤) (Malaga) ، وآخر إلى كورة إلْبِيْرَة (٢٥٥) (Elvira) ، حيث افتتح مدينتها غَرْناطة (٢٥٦) (Granada) ، وكذلك إلى كورة تُدْمير (٢٥٧) (Tudmir)) ، وكانت قاعدتها أورْيُولة (٢٥٨) (Orihuela) — التي حلّت مدينة مُرْسِيَة (٢٥٩) (Murcia) محلّها قاعدة لكُوْرَة مُرْسِيَة بدلا من تُدْمير (٢٦٠) .

وقد حدثت معارك عديدة في هذه المناطق ، فاستطاع المسلمون فتح عدّة مدن فيها (٢٦١) يقول الرازي : « ففرّق طارق جيوشه من إسْتِجَّة ، فبعث مُغيثاً الرُّومي مولى الوليد بن عبدالملك إلى قُرْطُبَة — وكانت من أعظم مدائنهم — في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم

---

(٢٥٣) . نفح الطيب (٢٦١/١) .

(٢٥٤) . مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من اعمال (رية) ؛ سورها على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٧/٧) .

(٢٥٥) . إلبيرة : كورة كبيرة من الأندلس ، واسم مدينة ايضاً ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا ، وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغيرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٢/١) و (٣٣٠/٢) .

(٢٥٦) . غرناطة : أقدم مدن كورة إلبيرة من أعمال الأندلس أوعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها نهر قلوم ويعرف الآن بنهر حداره ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٠/٦).

(٢٥٧) . تدمير : كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان ، وهي شرقي قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧١/٢ — ٣٧٢) ، وانظر ما جاء حول الفتح في : البيان المغرب (٩/٢ — ١١) والاحاطة (١٠١/١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ — ٢٦٥) .

(٢٥٨) . اوريولة : مدينة قديمة من اعمال الأندلس من ناحية تدمير بساتينها متصلة ببساتين مرسية ، انظر معجم البلدان (٣٧٣/١) .

(٢٥٩) . مرسية : مدينة بالأندلس من اعمال تدمير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٨ — ٢)

(٢٦٠) . الروض المعطار (٣٤ و ٦٢ و ١٨١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ — ٢٦٥) .

(٢٦١) . التاريخ الأندلسي (٦٤) .

يبق فيهم راجل ، وفَضَلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مَالَقَة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلْبيرَة ، وسار هو في معظم الجيش إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة (٢٦٢) » .

ثمّ ينقل المَقَّري عن الرازي ما يتعلق بفتح تُدْمير ، فيقول : « وأما مَن وُجِّه إلى مَالَقَة ففتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة ، ثمّ لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجِّه إلى إلبيرَة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها عَنْوَة » (٢٦٣) . « ومضى الجيش إلى تُدْمير ، وتُدْمير : اسم العِلْج صاحبها . سُمِّيت به . واسم قصبتها : أُرْيُولَة ، ولها شأن في المَنَعَة ، وكان ملكها عِلْجاً داهية » (٢٦٤) . وهذا يعني ، أن سرية مَالَقَة التحقت بعد فتح مَالَقَة بسرية إلْبيرَة ، وافتتحا تُدْمير سويّة ، فتكون على هذا – عدد السرايا التي ارساها طارق ثلاثاً ، بدلاً من أربع (٢٦٥) .

وقد اعترض بعض المؤرخين المحدثين ، على عملية طارق في فتح جنوب شرقي الأندلس وكبار مدائنه مثل مَالَقَة وغَرْناطة وأُرْيُولَة ، وادّعوا أن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لم يفتحوا هذه النواحي إلاّ في ولاية عبدالعزيز ابن موسى بن نُصَيْر (٢٦٦) . وذكروا : أنّه لا يُستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة إلىهذه النواحي وغيرها لمجرّد الأستطلاع لا للفتح ، وكان الجند عنده قد كثروا ، ففرّق أعداداً منهم في جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق (٢٦٧) .

---

(٢٦٢) . نفح الطيب (١/٢٦٠ – ٢٦١) والاحاطة في اخبار غرناطة – ابن الخطيب (١/١٠١).
(٢٦٣) . نفح الطيب (١/٢٦٣) والاحاطة (١/١٠١) .
(٢٦٤) . نفح الطيب (١/٢٦٤) .
(٢٦٥) . التاريخ الأندلسي (٦٥) .
(٢٦٦) . انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس .
(٢٦٧) . فجر الأندلس (٧٧) .

وهذا الاعتراض خطأ بلاشك ، لأنّ المصادر المعتمدة تؤكد أنّ طارقاً بعث السرايا لهذا الفتح كما أنّ طارقاً لا يمكن أن يتقدّم شمالاً باتجاه طُلَيْطِلَة ويترك جناحه الأيمن ومؤخرته في خطر التعرض المعادي ، لوجود بلدان تخضع للقوط وتعادي المسلمين . وبدون تطهير تلك المناطق ، تبقى خطوط مواصلاته معرّضة للتّهديد المعادي المباشر ، وهذا ما لايسكت عنه قائد حصيف قادر ، مثل طارق ولا يمكن أن يغض الطرف عنه في أي حال من الأحوال .

وكان فتح عبدالعزيز بن موسى بن نُصَير لهذه المناطق ليس فتحاً جديداً ، بل إنّ مدنها انتقضت على المسلمين ، فأعاد عبدالعزيز فتحها من جديد .

وهناك روايات تنص على أنّ طارقاً هو الذي قاد جيش قرطبة وفتحها(٢٦٨) ، ويبدو أنّ الرواية الأولى أصحّ ، لأنّ هدف طارق في فتح قرطبة كان ثانوياً بالنسبة إلى هدفه في فتح طليطلة عاصمة البلاد ومركز مقاومتها ، كما سيرد ذلك وشيكا .

جـ . فتح قُرْطُبَة :

عهد طارق إلى مُغيث الرُّومي بقيادة الحملة المتوجّهة إلى قُرطبة . ويقال بأنّ مغيثاً هذا ، كان أسيراً رومياً من الشرق ، وإنّه كان مولى للخليفة الوليد ابن عبدالملك أو لأبيه عبد الملك بن مروان (٢٦٩) . ولكنّ الأكثر احتمالاً هو أنّ مغيثاً كان رومياً من شمالي أفريقية ، ويؤيد هذا الرأي اطلاع مغيث ومعرفته الواسعة بهذه المنطقة وبالأندلس أيضاً (٢٧٠) . وقد تقدّم مغيث على رأس سرية مؤلّفة من سبعمائة فارس من إستجّة إلى قرُطبة ، بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة .

---

(٢٦٨) . قارن : ابن القوطية (٩) والرقيق (٧٦) وابن الشباط (١١٥ - ١١٦) والرسالة الشريفية (١٩٢) .

(٢٦٩) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) واخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب (٢/٩) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١٢/٣ - ١٣) .

(٢٧٠) . قارن : اخبار مجموعة (٣١) .

وصلُ مُغيث إلى ضواحي قرطبة ، وعسكر في شَقُنْدَة ((Seconda)) قرب ضفاف نهر الوادي الكبير ، فوجد أنّ حاكم المدينة القوطي لايزال موجوداً هناك ، ترافقه حامية مكونة من نحو أربعمائة أو خمسمائة رجل ، أما بقيّة سكان المدينة ، فقد غادروها إلى طُليطلة . وأفلح مغيث في أقتحام المدينة بسبب تهدّم أسوارها ، فانسحب حاكمها مع حاميته ، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى : سـان أسيكلو (San Acisclo) . حيث ضرب عليهم حصار لمدة ثلاثة أشهر . وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة ، حاول حاكم المدينة وقائد حاميتها الهرب إلى طليطلة ، ولكنه وقع في أسر المسلمين ، وأبيدت الحامية بأجمعها . وبعد ذلك اتخذ مغيث قصر المدينة مسكناً له ، بينما سكن رجاله في المدينة (٢٧١) .

وكان من عوامل انتصار المسلمين على القوط ، أنّهم استطاعوا قطع المـاء عن المحصورين . وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون أولاً ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كان مع المسلمين (٢٧٢)، ولكن المحصورين صبروا صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، حتى استسلموا أخيراً ، وأسر حاكم المدينة وقائدها (٢٧٣) . وأبيد رجاله (٢٧٤) .

---

(٢٧١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩ – ٧٠) وأخبار مجموعة (١٣–١٤) وفتح الأندلس (٨) والبيان المغرب (٢/٩–١٠) ونفح الطيب برواية الرازي (١/٢٦١ – ٢٦٣) ، وقارن Saavedra. P. 85

(٢٧٢) . نفح الطيب برواية الرازي (١/١٦٥) .

(٢٧٣) . فجر الأندلس (٨٢) .

(٢٧٤) . البيان المغرب (٢/١١) .

الفهرس

الصفحة





الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ ـ حزيران ١٩٨٨م

طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضـــو المجمع

— ٢ —

فتح طُلَيْطُلَة (١) :

سار طارق بمعظم جنوده (٢) إلى كورة جيَّـان (٣) في طريقه إلى عاصمة القُوط : طُلَيْطُلَة (Tolodo) . وقد اتّبع في طريقه الطريق الروماني القديم الذي يمرّ بمدينة جيَّـان (Jaen) والذي يدعى : طريق هانيبال (٤) (Ani gal) ، مخترقاً هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارتل) ، وكان القُوط قد فرّوا من طليطلة نحو الشمال بأموالهم وآثار قدّيسيهم ، ولم يبق من سكّانها غير عدد قليل من يهود ونصارى . وفتح طارق المدينة ، وأبقى على من بقي من سكّانها . وترك لأهلها عدّة كنائس ، وترك لأحبارها

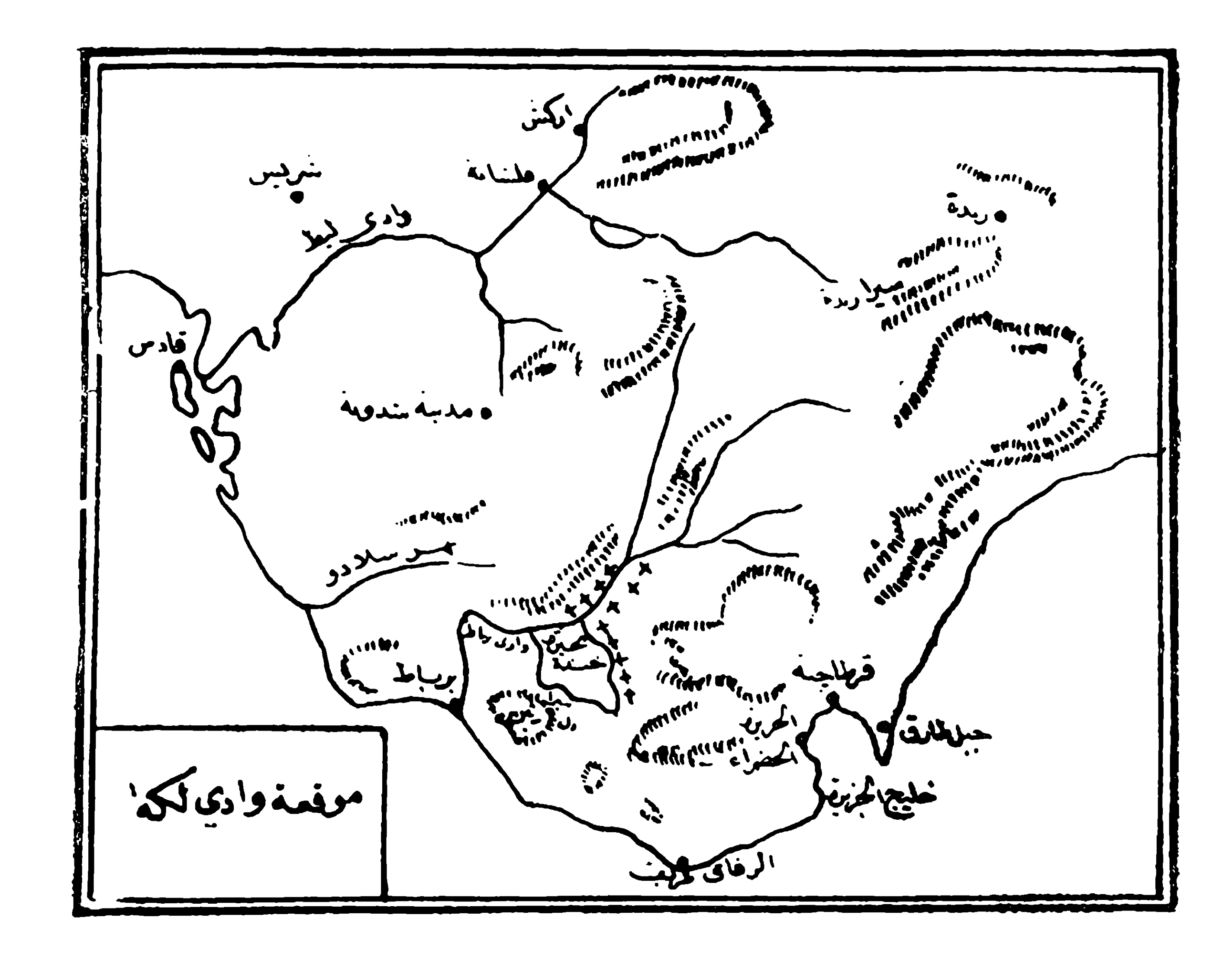
---

(١) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وتقع على شاطىء نهر تاجة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٥٦) .

(٢) نفح الطيب (١/٢٤٤) .

(٣) جيان : مدينة لها كورة واسـعة بالاندلس . انظـر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٠) .

(٤) يذكر المقرى ان طارقاً سار الى طليطلة في الطريق المار بجيان ، اى انه اتبع طريق هانيبال الروماني . لأنه كان طريقاً معموراً في ذلك الوقت ، وفيه تمر اليوم سكة حديد الاندلس . انظر نفح الطيب (١/١٦٧) و Saavedra. op. Cit. 79


موقعة وادي لكة
اركش
قلنانة
شريش
وادي لبط
قادس
مدينة شذونة
نهر سلادو
برباط
قرطاجنة
جبل طارق
خليج الجزيرة
الجزيرة الخضراء
ريدة

حريّة إقامة الشّعائر الدينيّة ، وأباح للنصارى القوط والرومان اتّباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخو الملك وتيزا (٥) .

وســار طارق من طليطلة لملاحقة الهاربين ، مخلّفاً وراءه حامية من المسلمين للدفاع عن المدينة . واتّخذ طريق وادي الحجارة ، فعبر السلسلة الجبلية المسماة : (Cerro de san juan del viso) عند ممــر سمّي على اسمه بفج طارق (٦) . وعندئذ وصل إلى مدينة خلف الجبل تسمى : مدينة المائدة (٧) ، وهذه المدينة هي قلعة هنارس (phcaia Hanares) التي تقع شمال شرقي مدينة مَدْريد (٨) . واسم مدينة المائدة ، مشتق من مائـدة عثر عليها طارق . وهي كما يُروى تعود الى سليمان بن داود عليهما السّلام (٩) . ولكنّ ابن حيّان ينكر هذا الادّعاء ، ويذكر أنّ هذه المائدة صنعت من الذّهب والفضّة ومن معادن نفيسة أخرى ، بتبرعات ومساهمة أغنياء القوط لكنيسة طليطلة . واستُخدمت من قبل القساوسة لحمل الأناجيل أيام الأعياد ، وزينة توضع فوق مذابح الكنيسة (١٠) . والاحتمال الغالب أنّها

---

(٥) دولة الاسلام بالأندلس (١/٥٠) ، وانظر التاريخ الاندلسي (٦٥) .

(٦) من المحتمل ان هذا المكان يقع بالقرب من (Buitrago) (Bibtrak) ، وهي المدينة التي تشرف على الممر الجبلي الذى يصل بـ(قشتالة الجـديدة وقشـتالة القديمة) . انظر : Gayangos. Vol. I. P. 533

(٧) ابن القوطية (٩) واخبـار مجموعة (١٤) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٦٤- ٢٦٥) والرسالة الشريفية (١٩١) .

(٨) Saavedra. P. 79.

(٩) فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) والادريسي (١٨٧ – ١٨٩) واخبار مجمـوعة (١٥) وفتح الأندلس (٩) وابن الاثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) والنويري (٢٢/٢٨) .

(١٠) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٢) .

كانت مذبحاً لكنيسة طيلطلة أكثر من كونها مائدة حقيقية ، حُملت إلى هذا المكان القصّي الحصين من قِبَل الهاربين من القساوسة ورجال الدين المسيحي (١١) ، وكان أسقف طليطلة نفسه سَنْدَرِد (Sindered) من بين الذين تمكنوا من الهرب في أثناء الفتح ، ونجح فعلاً في الوصول إلى إيطاليا (١٢) . وبعد افتتاح قعلة هنارس غنم طارق هذه المائدة مع التّحف الثّمينة الأخرى (١٣) .

---

(١١) قارن : فجر الاندلس (٧٨ ــ ٧٩) .

(١٢) Ghr. 754. P. 147 (no. 35).

(١٣) يذهب معظم المؤرخين المسلمين الى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة مع غيرها من التحف في مدينة المائدة ، وهذه هي في داخل قلعة هنارس ، وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ــ ان كانت لسليمان مائدة ــ ، وهي ليست كذلك بمائدة أصلا ، اذ لا يعقل أن يهتم القوط ولا غيرهم بصناعة مائدة بمثل هذه الفخامة ، ولكنها على الغالب مذبح الكنيسة الجاري في طليطلة ، اذ لم تكن في قلعة هنارس اذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود مثل هذا المذبح الفخم فيها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة الى سليمان النبي عليه السلام ، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وانما أصلها أن العجم في أيام ملكهم ، كان أهل الحسبة منهم ، اذا مات احدهم أوصى بمالٍ للكنائس ، فأذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا ابرزت أيام المناسك ، ويصفونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل » .... وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة انما كانت لمذبح كنيسة طليطلة ونقلت المائدة الى قلعة هنارس ، فيما يبدو ، لتهريبها من المسلمين ، ولوضعها في مكان حصين، كانوا يظنون أن المسلمين يصعب عليهم الوصول اليه بسهولة ويسر . والمصادر الاسلامية تصف هذه المائدة بأنها : « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب أنهم كانوا يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الاخضر ، انظر فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) واخبار مجموعة (١٧ و ١٩) والبيان المغرب (٤/١٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٢) وفتح الاندلس (٩) .

وكان الصّيف قد انقضى ، وأقبل شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ثلاث وتسعين الهجرية (تشرين الأول ٧١١ م) ومعه برد الخريف ، ففضّل طارق وأصحابه العودة إلى طليطلة لكي يقضوا الشتاء فيها (١٤) ، وكانت الغنائم قد أثقلت جيش طارق إلى حدّ عظيم .

ومع هذا ، فهناك روايات أخرى ، تشير إلى أنّه استمر في فتوحه ، فوصل إلى جِلّيْقِيَّة (١٥) (Golicia) وأَسْتُرْقَة (١٦) (Astorga) وما يجاورهما من مناطق (١٧) ، الأمر الذي يصعب تصديقه ، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ، إطلالة الشتاء ، ووعورة المنطقة(١٨) ، وتغلغل طارق عميقاً في أنحاء الأندلس . بشكل لا يتناسب مع مالديه من قوات مقاتلة (١٩). وفي ذلك يقول ابن حَيّان ، فيما ينقله المَقَّرى في نفح الطيب : « ومضى خلف مَن فرّ من أهل طُلَيْطُلَة ، فسلك إلى وادي الحِجَارة (Guadala are) ثم استقبل الجبل فقطعه في فجّ سمّي به بعد . فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ».. ثم مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ،.... ، فأصاب بها حُلِيّاً ومالا ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيْطُلَة . سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنّه لم يرجع . بل اقتحم أرض جِلّيقِيَّة واخترقها حتى انتهى إلى مدينة

(١٤) اخبار مجموعة (١٥) وابن الاثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) والنويري (١٢/٢٨) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٥٦) والرسالة الشريفية (٢٩٢) .
(١٥) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الاندلس في اقصاه من جهة الغرب . انظر معجم البلدان (٣/٨).
(١٦) استرقة : بلد بناحية جليقية قرب ساحل المحيط وقرب مدينة ليون ، انظر قادة فتح المغرب (١/٢٦٨) .
(١٧) ابن القوطية (٩) وابن الاثير (٤/٥٦٤) والرسالة الشريفية (١٦٢) والنويري (٢٢/٢٨) ونفح الطيب (١/٢٦٢) .
(١٨) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٧٤) .
(١٩) قادة فتح المغرب العربي (١/٢٥١) .

أسْتُرْقَة ، فدوّخ الجبهة ، وانصرف إلى طُلَيْطُلَة ، والله أعلم » (٢٠) . عاد من مدينة المائدة . لأنّ الشتاء كان قد اقترب وكان الإجهاد قد نال من المسلمين ، وثقلوا بالغنائم . والأرجح أنّه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير (٢١) . وقد استغرقت عمليات الفتح التي قام بها طارق ، قبل لقائه بموسى بن نُصَير وإنجازاته أقلّ من سنة ، ربما بعدّة شهور (٢٢) .

بقي عليّ أن اشير إلى تعاون المسلمين ويهود الأندلس ، فهناك إشارات كثيرة في المصادر الاسلامية إلى هذا التّعاون في أثناء فتح الأندلس ، وتروى هذه المصادر أنّ المسلمين كرروا ما فعلوه في قرطبة وطليطلة على بقّية المدن الأندلسية المفتوحة الأخرى ، فحين يتمّ لهم فتح مدينة من المدن ، يعمدون إلى ضمّ سكّانها من يهود إلى المسلمين المدافعين عنها . حاميةً لها ، بعد حركة المسلمين إلى فتح جديد (٢٣) .

ومن الناحية الأخرى ، فانّ المصادر اللاتينيّة لا تشير إلى أيّ نوع من تعاون المسلمين مع يهود الأندلس ، وبصورة خاصة حولية سنة (٧٥٤ م) وحولية بلدة قرطبة ، وحولية الفونسو الثالث . ولكن لذريق الطُليطليّ (Rodericus Toletanus. Roderic of Toledo) ولوقادي توى (Luc asde Tuy) (Lucas of Tuy) — قد ذكر بأنّ يهود الأندلس ساعدوا المسلمين

(٢٠) نفح الطيب (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥) ؛ وانظر الروض المعطار (١٧٩) .
(٢١) فجر الاندلس (٨٠) .
(٢٢) التاريخ الاندلسي (٦٦) .
(٢٣) الرازي نشر جاينجوس (٧٢) والاحاطة برواية ابن القوطية (١/١٠١) واخبار مجموعة (١٢ و ١٤ و ١٦) وابن الأثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/٢٦٣ ـ ٢٦٤) .

في الفتح (٢٤) ولا يمكن تجاهل روايات المصادر الاسلامية إلى هذا التعاون ، ومع هذا فانّه من غير الممكن تجاهل أنّ قصّة هذا التعاون قد بولغ فيها(٢٥) كثيراً، ولم يُفهم القصد منها تماماً كما ينبغي . ومن المحتمل أنّ يهود الأندلس حاولوا مساعدة المسلمين حينما أصبح هؤلاء فعلاً في الأندلس منتصرين ، وذلك نتيجة للاضطهاد الذي لاقاه يهود الأندلس على يد ملوك القوط (٢٦) ، ولكن من المستحيل أن يكون هناك أيّ اتفاق سابق أو مؤامرة ، كما يحاول أن يبرهن بعض المؤرخين الاسبان (٢٧) ، بين المسلمين ويهود الأندلس لتسليم البلاد إلى المسلمين ، إذ لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك ، لضعفهم وتفككهم وانهيار معنوياتهم وشعورهم بمركب النقص ، فهم كانوا بحاجة إلى مساعدتهم وإلى مَن يساعدهم . ولم يكونوا قادرين على مساعدة أحد بالقوّة ، لافتقارهم إلى القوّة . ومن المفيد في هذا المجال ، أن نلاحظ ، أنّ هذه الاتّهامات قد رفضت من قبل مؤرخي يهود ، باعتبارها أساطير معادية للسّامية (Anti — Semitic Logends) (٢٨) .

---

(٢٤)
Toderic of Toledo (d. 1247 A. D.), De rebus Hispaniae, 111, 23-24 (Schott, lisoaniae iliustraiae, Fronkfurt aln, 1603, 111, 67-68); Lucas of Tuy, Chronicon mundi, 111, Era 748 (Schott, op, cit., iv, 70) in Katz, The Jews in the Visigothic and Frnakish..., pp. 116-117.

(٢٥) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٧٢) .

(٢٦) راجع الفصل الاول من كتاب : الفتح والاستقرار العربي والاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ، عن اضطهاد القوط لليهود .

(٢٧)
R. Anador de los Rios, Historia Social, Polotica y religiosa de los. judios de Espana y Portugal, madnd, 187576, Vol. I.P. 107, cit. Ashtor. of. cil., Vol. 1.P. 22; A. Ballesteros y Baratta, Historia de Espaia: Su influencia an La historia Universla, Vol. 11, p. 107.

Bare, op. cit., vol. 1. p. 23-p Ashtor. op. Cit., Vol. p. 22

والواقع هو أنّ يهود الأندلس ، قبل الفتح الاسلامي للأندلس ، كانوا مضطهدين من ملوك القوط ومن القوط أنفسهم ، فلما انتصر المسلمون على القوط ، عرض يهود خدماتهم على المسلمين . الذين رفعوا عنهم الظلم وعاملوهم بالحسنى معاملة إنسانية ، كدأبهم مع المظلومين بعامة وأهل الكتاب منهم بخاصة ، فعاونوا جاليات المدن الأندلسية المفتوحة من المسلمين . بانذارهم المبكرّ بنوايا القوط وتحرّكاتهم ، والمسلمون وحدهم يدافعون عن المدن المفتوحة ، بالاستعانة بالعيون والأرصاد والجواسيس من يهود الأندلس ، باعتبارهم من أهل تلك المدن ، وأعرف الناس بمداخلها ومخارجها ومواطن ضعفها وقوّتها ، ولم يتطرّق مصدر من المصادر الاسلامية إلىأنّ يهود الأندلس دافعوا عن المدن المفتوحة مع المسلمين بالسِّلاح . ولم تتطرّق تلك المصادر إلى أنّ يهود الأندلس قاتلوا القوط مع المسلمين .

لقد عاون يهود الأندلس المسلمين الفاتحين ، لأنّ المسلمين كانوا أعداء القوط ، وعدوّ عدوي صديقي ، كما يقول المثل العربيّ المشهور . ولكن هذا السبب ليس كافياً بالنسبة للعقلية اليهودية المعروفة . والسببالمهم هو أنّ المسلمين هم المنتصرون ، والقوط هم المغلوبون . فهم دائماً مع المنتصر على المغلوب ومع القوي على الضعيف ، لأنّهم يستفيدون من المنتصر لحمايتهم وتوقّع الانتفاع منه في مصالحهم المادية والمعنوية . ثم إنّ المسلمين الفاتحين أصبحت بيدهم مقاليد الأمور في المدن المفتوحة ، وهم حكام الأندلس اليوم وغدا ، أما القوط ، فقد كانوا حكام الأمس ، ولا فائدة ترتجي منهم اليوم أو غدا ، ويهود مع مَن بيده مقاليد الأمور ، الحاكم الذي يستطيع أن يفيد ويضر ، لا مع مَن لا يستطيع أن يفيد ويضر ، وليس له من الأمر أيّ شيء . وقد ذاع عدل المسلمين ومعاملتهم الناس بالحسنى ، بينما جرّب يهود الأندلس القوطَ ، فلم يجدوا منهم إلاّ الظلم والاضطهاد ، فعاونوا أصحاب العدل على أصحاب الظلم ، وأصحاب الرحمة على أصحاب الاضطهاد .

ولكن يهود الأندلس كانوا مع المسلمين في الأندلس ، ماداموا أقوياء متّحدين ، فلما ضعفوا وتفرّقوا ، وأصبحوا دويلات بعد أن كانوا دولة واحدة ، وقوي الاسبان واشتد ساعدهم ، وأخذوا يعملون على استعادة بلادهم من المسلمين بالسياسة والحيلة والتآمر تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، أصبح يهود الأندلس مع الأسبان على المسلمين ، فلما استولى الاسبانيون على إسبانيا ، وانحسر حكم المسلمين من الأندلس ، لقي يهود إسبانيا من الاسبان جزاء سِنِمّار ، واضطُهد مَن بقي منهم في إسبانيا اضطهاداً ذكّرهم باضطهاد القوط لهم قبل الفتح الاسلاميّ ، وحينذاك فقط ، قال قائلهم : « كانت أسعد أيام يهود الأندلس ، طيلة تاريخهم في الأندلس ، هي أيام الحكم الاسلامي في الأندلس ، ففي تلك الأيام وحدها عرفنا الحرية والعدل والرخاء والتّسامح ، ولم نكن نعرف هذه القيم قبل المسلمين ، ولا عرفناها بعدهم ! »

إنّ يهود الأندلس ، كبقية يهود العالم ، في كلّ زمان ومكان ، يعملون من أجل مصالحهم فقط ، لا من أجل أشخاصٍ معيّنين أو أمم معيّنة أو مبادئ وقيم معيّنة ، فهم يعاونون مصالحهم ويتعاونون مع مصالحهم ، وهم يعينون من ينفعهم في مصالحهم ويتعاونون معه ، فمصلحتهم أولاً وقبل كلّ شيء ، والتعاون والمعاونة من أجل تلك المصالح الذاتية .

ذلك هو مظهر تعاونهم سرّاً ، في نقل الأخبار ونشر الاشاعات وخلق الفتن والتجسّس ، لهم الغُنْم دوماً دون الغُرْم ، والمنفعة دون الضرر ، ولهم مصالحهم وعلى غيرهم تحمّل المسؤولية .

٧ ـ فتوح طارق بعد عبور موسى بن نُصَيْر الى الأندلس

١ . بين موسى وطارق :

كان ردّ الفعل لانتصار حملة طارق عظيماً في شمالي إفريقيّة ، فبعد سماعهم أخبار النصر الذي أحرزه طارق على لذريق ، اتّجه البربر نحو الأندلس من كلّ صوب ، واجتازوا المضيق بما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب ، وبعد وصولهم استوطنوا المناطق السّهلة من البلاد التي هجرها سكانها الأصليون ، الذين اضطروا إلى اللجوء نحو القلاع والحصون ، أو هربوا إلى المناطق الجبليّة (٢٩) .

وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كلّ أمل للقوط في العودة إلى الحكم ، تقدّم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء لهم بما وعدهم به من الكرامة وحسن الجزاء ، ويبدو أنهم كانوا يطمعون أن ينسحب المسلمون من الأندلس ليعود أبناء غيطشة إلى الحكم من جديد ، فلما تبين لهم أنّ طارقاً ومَن معه جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا ، وأنهم جاءوا لنشر الاسلام بالدعوة إلى الله ، سُقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إيّاه ، فمنحهم طارق ضياع أبيهم ـ وكان عددها كبيرا ـ وأمضاها لهم . ويبدو انّهم طمعوا بالمزيد ، فلم يجبهم طارق إلى ما سألوا ، لأن ذلك يخالف ما وعدهم به ، وهو منحهم ضياع أبيهم بلا زيادة ولا نقصان ، فاستأذنوا طارقاً في المسير إلى موسى بن نُصير في إفريقيّة ، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ، ففعل . ولما بلغوا موسى ، أقرّ طارقاً على مافعل . ويبدو

(٢٩) نفح الطيب برواية الرازي (١/٢٥٩) .

أنّهم ألحوا على موسى بالزيادة ، فأحالهم على الخليفة نفسه (٣٠) ، فأقرّ عهد موسى وطارق (٣١) .

وكان طارق على صلة بقائده موسى بن نُصير : يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته وأوامره ووصـــاياه ، ويخبـــره ، عن كلّ شيءٍ أوّلاً بأوّل منذ بداية الفتح ، ويستشيره بكل ما يحتاج إلى المشورة ، « وبلغ الخبر موسى بكتاب طارق إليه ، فكتب به موسى إلى الوليد » (٣٢) . وبعد سنة من عبور طارق وتفرّق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فُتحت ، خاف طارق أن يُغلب وأن يستغلّ القوط قلّة جيشه ، فأرسل إلى موسى يستنجده (٣٣) ، والأمثلة على اتصّال طارق بموسى في المصادر الاسلاميّة كثيرة جداً ، مما يدلّ على أن الانسجام والتعاون والوفاق كان سائداً بين موسى وطارق .

وبلغت فتوحات طارق أسماع موسى ، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره . فقد أمره موسى ألاّ يتعدّى قرطبة على قول ، أو موضع هزيمة لذريق في وادي لَكّة على قول(٣٤) . فسارع موسى إلى عبـــور المجاز ودخول الأندلس .

وهناك مَنْ ينصّ ، على أنّ عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس كان بسبب استدعاء طارق إيّاه(٣٥) ، فقد كتب طارق إلى موسى : « إنّ الأمم

(٣٠) نفح الطيب برواية الرازي (١٦٧/١ – ١٦٨) .
(٣١) فجر الاندلس (٨٣) .
(٣٢) تاريخ الاندلس (٤٨) وابن خلدون (٢٥٤/٤) .
(٣٣) الامامة والسياسة (٧٤/٢ – ٧٥) وفجر الاندلس (٨٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (٩٢) ، التاريخ الاندلسي (٦٨) .
(٣٤) البيان المغرب (١٨/٢ – ١٩) .
(٣٥) البيان المغرب (١٩/٢) .

قد تداعت علينا من كلّ ناحية ، فالغَوْث . . . . الغَوْث . . . . » ، فلما أتاه الكتاب ، نادى في الناس وعسكر ، فاستخلف عبد الله بن موسى بن نُصَيْر على إفريقيّة وطَنْجَة والسُّوْس (٣٦) ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز إلى طارق قبل دخول أبيه موسى . وخرج موسى بن نُصير والناس معه ، حتى أتى المجاز ، فالمجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه(٣٧) .

هذان السببان مقبولان غاية القبول ، من الناحية العسكرية العلميّة البحت ، فقد شعر موسى أنّ المسلمين قد استرسلوا بالفتح ، أكثر مما ينبغي ، بالنسبة للقوات المتيسرة لديهم ، وأنّ خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة الأرجاء في خطر داهم ، فقد بقيت مدن الشرق والغرب الأندلسيّة لم تُفتح بعد ، وكان لابدّ من فتحها وإلاّ تعرّض المسلمون الفاتحون لخطر عزل قوّاتهم عن بعضها ، والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة في كلّ مكان تحلّ فيه ، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها ، ولأنّ أجنحتها مكشوفة لوجود مدن معادية غير مفتوحة ، قريبة منها وتستطيع التأثير فيها بسهولة وسرعة،ولأنّ قوّات المسلمين كانت قليلة جداً ، بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها وإلى سعة البلاد وكثافة سكّانها . وفعلاً حدث

---

(٣٦) السوس : (أ) السوس الادنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . ب . السوس الاقصى : اقصى بلاد المغرب على المحيط ، والسوس الاقصى ، اسم مدينة اطلق اسمها على كورة السوس الاقصى ذات المدن والقرى الكثيرة . ج . والسوس : مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية ، وبين السوس الاقصى مسيرة شهرين ، وبعده المحيط الاطلسي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢/٥) والمشترك وضعا (٢٥٩) والمسالك والممالك (٣٤) .

(٣٧) الامامة والسياسة (٧٤/٢ ـ ٧٥) ، وفي البلاذري (٢٣٢) : ان موسى كتب الى طارق كتابا غليظا ، لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالرأي في غزوه ، وامر الا يتجاوز قرطبة .

ما توقّعه طارق وموسى ، فقــد أصبح قسم من قوّات المسلمين منعزلاً أو شبه منعزل ، بعيدة عن إمكان دعمها بقوّات إسلاميّة كافية عند الحاجة ، وأصبح موقف المسلمين بصورة عامة في الأندلس خطيراً للغاية ، مما جعل طارق يستغيث بموسى ، فلا يرى موسى حلاً مُرضياً إلاّ أن يعبر إلى الأندلس بنفسه مع قوّات إسلامية كافية ، لمعالجة الأمور هناك ، فحشد لحملته هذه كلّ قوّاته المتيسِّرة : عشرة آلاف من العرب ، وثمانية آلاف من البربر ، في سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف بالفتح رغماً من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة ، حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٣٨) (حزيران — تموز ٧١٢ م) .

وأكاد أتبيّن بوضوح ، أنّ موسى كان يعرف حرص الخليفة الوليد ابن عبد الملك على أرواح المسلمين حرصاً لامزيد عليه ، وأنّه كان يمانع من ركوب البحر ومن فتح الأندلس حرصاً على أرواح المسلمين ، وأنه وافق على ركوب البحر وفتح الأندلس أخيراً بعد إلحاح موسى بن نُصير عليه وتزيين أمر الفتح له وتهوين أمر ركوب البحر عليه ، على أن تبقى مسئولية العمليّة كلها على عاتق موسى وحده دون سواه . إذا لحق بالمسلمين ضرر وغُرِّر بهم ، فقد كتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح الأندلس ، فأجابه الوليد : « أنْ خضها بالسّرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فلما راجعه موسى ، أنّه ليس ببحر زخار ، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، أجابه الوليد :« وإن كان ،

---

(٣٨) اخبار مجموعة (١٥) وفتح الاندلس (١٠) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٦٩/١) والرسالة الشريفية (١٩٢) . ويذكر ابن حبيب (٧٣) وكل من الرازي وعريب ابن سعد ، ان موسى ابحر بعشرة آلاف رجل فقط ، انظر ابن الشباط (١١٦ ـ ١١٧) والبيان المغرب (١٣/٢) ونفح الطيب (٢٧٧/١) .

فلا بدّ من اختباره بالسّرايا قبل اقتحامه » (٣٩) ، وهكذا بقي موسى مع موافقة الوليد ، المسئول الأول عن عمليّة العبور والفتح ، ولن يتساهل معه الوليد إذا لحق بالمسلمين خسائر بالأرواح دون مسوِّغ منطقيّ مقبول .

لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربيّ واضح ، وهو تدعيم الفتح وترصينهُ ، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة بالمسلمين ، من جرّاء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لايتناسب مع مالديه من رجال .

وقد يرد على البال – وبخاصة بالنسبة للمدنيين – أنّ أعداد المسلمين تكاثروا في الأندلس بعد انتصاراتهم المتوالية ، فقد زحف البربر بأعداد ضخمة إلى برّ الأندلس ، واستوطنوا سهولها التي نزح عنها سكانها الأصليون ، ولكن تَعداد المسلمين الاجمالي في الأندلس ، ليس هو المهم ، بل المهم هو تعداد المقاتلين منهم ، المدربين على القتال ، والمجرَّبين في الميدان ، فقد اختار موسى قوات طارق قبل إبحارها معه إلى الأندلس ، واختار له جنود المدد وقيادتهم حين طلب طارق المدد ، أما الذين جاءوا للارتزاق والسكن من غير المدرّبين والمجرِّبين ، فلا قيمة قتالية لهم في ميادين القتال .

أما ما تردّد في مصادر التاريخ الاسلاميّ ، من أنّ موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح ، حتى أكل الحسد قلبه ، وقرّر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح(٤٠) ، وأنّه أساء معاملة طارق وضربه بالسّوط(٤١) ، فمغالى به ، إذ لايُعقل أن يصدر ذلك عن تابِعيّ جليل وقائد فاتح عرف بالعقل والاتّزان والمروءة كموسى بن نُصير .

---

(٣٩) نفح الطيب (١/٢٥٣) والبيان المغرب (٢/٦) ووفيات الاعيان (٥/٣٢٠)، وانظر التاريخ الاندلسي (٤٦) .

(٤٠) ابن الاثير (٤/٢١٥) والبداية والنهاية (٩/٨٣) والبيان المغرب (٢/١٩) وابن خلدون (٤/١١٧) ونفح الطيب (١/٢٥١) .

(٤١) فتح مصر والمغرب (٢٨٣) .

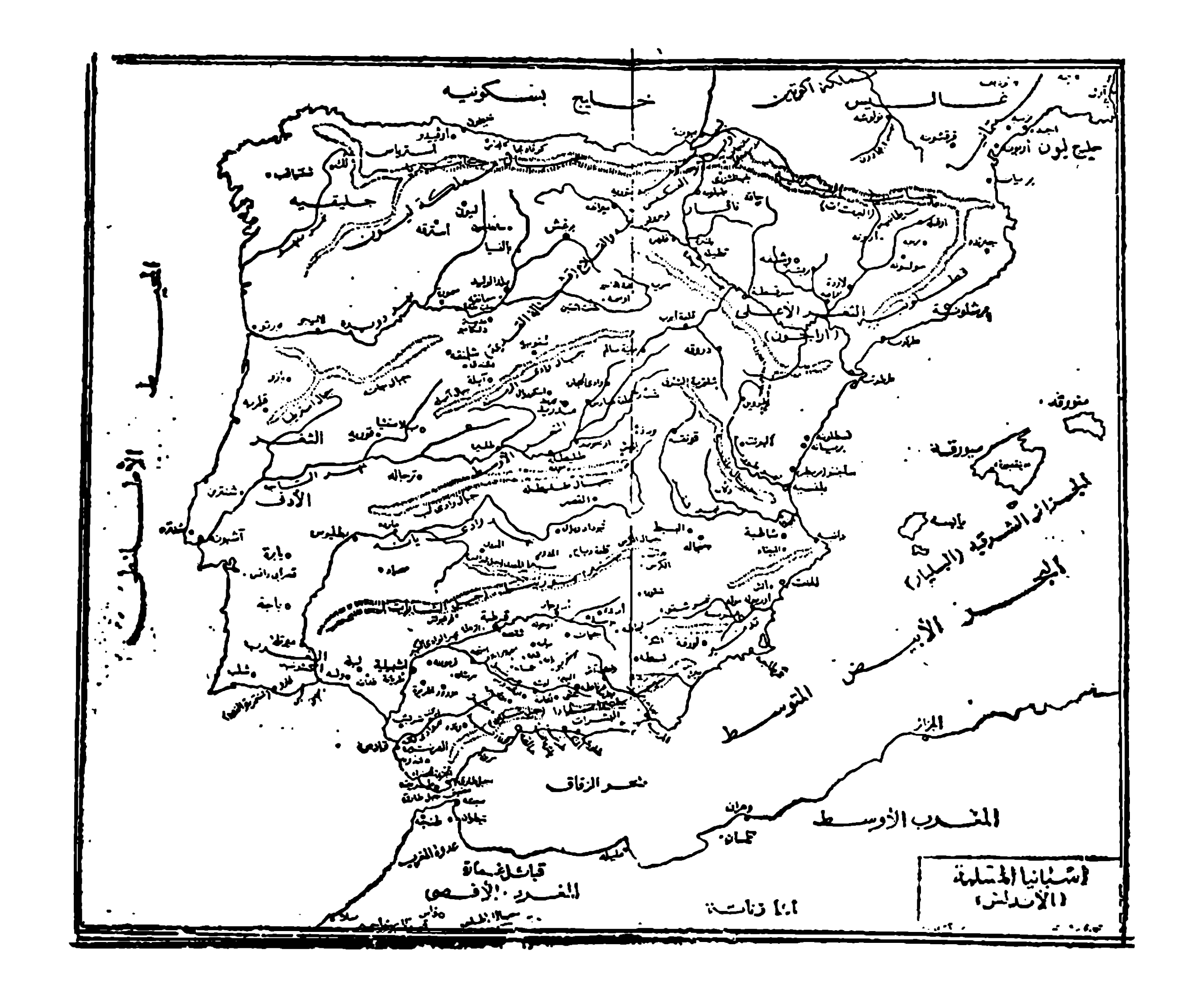
ثم إنّ طارقاً كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره ، وينفّذها نصاً وروحاً ، وكان يكتب إليه أخبار الفتح مفصلاً ، فلو أنّ موسى حسد طارقاً أو أساء الظنّ به ، لاستطاع إزاحته عن طريقه ، وذلك بعزله أو استدعائه إلى القَيْروان ، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيء .

ولعل أوضح دليل ، على مبلغ التزام طارق بطاعة موسى ، وأنّه كان مثالاً للطاعة والنِّظام ، أنّه بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى ، عندما قدموا إليه في طُليطلة وقالوا له « أنت أمير نفسك ، أم على رأسك أمير ؟ » ، فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم » (٤٢) ، وهذا يدلّ على منتهى الضبط وتقدير المسئوليّة والالتزام بسلسلة المراجع .

وأوضح دليل ، على أنّ قدوم موسى إلى الأندلس ، كان لمعاونة طارق لا لتأديبه ، وأنّه قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت ، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الشرقية والغربية التي خلّفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر والأيمن من جهة ، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس وتجميد قوّات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة ، فلما تمّ له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طَلَبِيْرة (٤٣) على مقربة من طُليطلة ، ويقال إنّ الملاقاة بين طارق وموسى حدثت في مكان يدعى المعرض (Almaraz) بين نهري تَاجُهْ (Tojo) والتيتار (Tietar) قرب طَلَبيْرَة غربي

(٤٢) نفح الطيب (٢٤٩/١) .

(٤٣) طلبيرة : مدينة بالاندلس من اعمال طليطلة كبيرة ، قديمة البناء ، على نهر تاجة ، بضم الجيم . وهي (Talavera de La Reina) الى الغرب من طليطلة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) وابن الابار (٢٥٧/٢) والروض المعطار (١٢٧) وآثار البلاد واخبار العباد (٥١٥) وصفة المغرب والاندلس للادريسي (١٨٧) وجغرافية الاندلس واوروبا (٨٩) .


اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
المحيط الأطلنطي
خليج بسكونيه
جليقية
الثغر الأعلى
(الأراجون)
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
تلمسان
قرطبة
اشبيلية

طُليطلة (٤٤) . وحين التقيا قال موسى لطـارق : « يا طـارق ! إنّه لن يجازيك الوليد بن عبدالملك على بلائك ، بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق : « أيّها الأمير ! والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه ، إلى أن بلغ إلى جِلّيقيّة ، وهي على ساحل البحر المحيط (٤٥) .

---

(٤٤) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبـار مجموعة (١٨) وفتح الاندلس (١١) والبيان المغرب (١٦/٢) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧١/١) ، وقارن Saavedra. p. 98.

(٤٥) نفح الطيب (٢٧١/١) ، فاين ذلك مما جاء في كتاب : فتح مصر والمغرب (٢٨٣) : « وأخذ موسى بن نصير طارق بن عمرو ، فشده وثاقا وحبسه وهمّ بقتله . وكان مغيث الرومي غلاما للوليد بن عبدالملك ، فبعث اليه طارق فأبلغه ان رفعت أمرى الى الوليد ، فان فتح الاندلس كان على يدى ، وأن موسى حبسني يريد قتلي ، اعطيتك مائة عبد ... وعاهده على ذلك .... فلما اراد موسى الانصراف ، ودع موسى بن نصير ، وقال له : لا تعجل على طارق ، ولك أعداء ، وقد بلغ امير المؤمنين امره ، واخاف عليك وجده ! فانصرف مغيث وموسى بالاندلس !

« فلما قدم مغيث على الوليد ، أخبره بالذى كان من فتح الاندلس على يدى طارق ، وبحبس موسى اياه ، والذى أراد به من القتل ، فكتب الوليد الى موسى ، يقسم له بالله ، لئن ضربته لأضربنك ، ولئن قتلته لأقتلن ولدك به ؛ ووجه الكتاب مع مغيث الرومي .... فقدم به على موسى الاندلس ، فلما قراه أطلق طارقا وخلى سبيله ، ووفى طارق لمغيث بالمائة عبد التي كان جعل له » .... انتهى !!

واقول : ان هذا الذى ذكره ابن عبدالحكم في كتابـه : فتـح مصر والمغرب ، يناقض ما ذكره هو أيضا في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب ، فقـد ذكر في ص (٢٨٠) : فأجاز موسى من الخضراء ، ثـم مضى الى قرطبة ، فتلقاه طارق ، فترضاه ، وقال له : انما انا مولاك ، وهذا الفتح هولك » ، ثم ذكر في نفس الصفحة ايضا : « ويقال : ان موسى هو الذى وجه طارقا بعد مدخله الاندلس الى طليطلة ، وهي النصف ما بين قرطبة واربونة ، واربونة أقصى ثغر الاندلس » ... وهذا يدل على ان

ولم يلبث طارق وموسى أن تعاونا تعاوناً وثيقاً ، فترك موسى طارقاً على

موسى كان منسجما مع طارق ، ويدل على انه لم يحبسه ولم يهم بقتله ، وأن كل ما جاء حول ذلك لا نصيب له من الصحة .
وابن عبدالحكم على جلالة قدره مؤرخا وعالما ، يذكر الروايات المختلفة اسوة بغيره من المؤرخين القدامى ، كأنه يحشد المعلومات المتيسرة ، دون أن يترك شاردة ولا واردة منها ، تمهيدا لمن يأتي بعده من المؤرخين ، ليناقش تلك الروايات ، ويرجح منها ما يراه راجحا ، ويبدى رأيه بالذي يراه صوابا ، فجزاه الله عن المؤرخين خيرا .

وفي كتاب : فجر الاندلس ص (٨٦) : « ولا نرى الا تفسيرا واحدا لانفراد ابن عبدالحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية ، هو أنها كانت معروفة في المشرق ، مجهولة عند أهل الاندلس . وأما وجودها في المشرق فمرجعه على أغلب الظن الى مغيث الرومي ، فقد كان محنقا على موسى ، مولعا بالكيد له ، لانه كان يرى انه مولى الوليد ، وانه أولى بولاية الاندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه الى المشرق لابلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، واخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد انكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى في رواية ابن عبدالحكم الانفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبدالحكم في هذه الناحية .

« وأما الاندلسيون ، وهم احرى أن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته ، لان اخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون الا أن موسى : « وضع السوط على راس طارق وونبه » ، كما يقول صاحب الاخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعا أن يقول : ان موسى ضرب طارقا بالسوط ، بدلا من قوله : وضع السوط على رأسه ، فقط »... انتهى .

ولا أرى أن مغيثا يفترى على الخليفة الكذب ، وهو الصادق المؤتمن ، وليس بالامكان اتهام موسى مثل هذه التهمة ، لأن كذبها سيظهر حتما ،لعدم امكان اخفاء مثل تلك التهمة الكبرى ، ولا يمكن أن نصدق أن مغيثا ينقل للخليفة غير الواقع والصدق . ويبدو أن مغيثا لا علم له بهذه القصة ، وقد وضعت على لسانه من بعده ، لذلك لم يصدقها احد ولم ينقلها أهل الاندلس عن ابن عبدالحكم ، لانهم لم يصدقوا الحادث والحديث والراوي ، ومن حق كل انسان الا يصدق ما يبدو عليه التزوير والانحراف والافتراء .

قيادته ، وسار كلّ منهما في اتّجاه ، متعاونين متساندين ، وهذا واضح من قول ابن حيّان : « قالوا : ثمّ إنّ موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدّمته ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (٤٦) .

لقد تحمّل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته ، لدرجة أجهدت الجند وعرّضتهم للأخطار ، فقد اقتحم هذا الجيش الأندلس ، وصادم القوط في مواقع موضعيّة وموقعة حاسمة ، وتوغّل في قلب البلاد ، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة ، كلّ ذلك جرى في وقت قصير . ثمّ إنّ المقاومة القوطيّة بدأت تتكوّن وتترعرع وتشتد بالتدريج في نواحي البلاد ، وبخاصة في جهة غربيّ الأندلس ، حيث تصلح المناطق الجبليّة المهجورة في إقليم استرامادور لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطيّة . وهذا يفسّر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نُصير (٤٧) ، فحمى الجناح الأيسر المكشوف لقوّات طارق ، وحرم المقاومة القوطية من فرصة التعرّض بخطوط مواصلات المسلمين ، التي ترابط قواتهم الأمامية بقواعدها المتقدّمة في الأندلس . وهذا ما يفسّر لنا أهم سبب من أسباب توقّف طارق في طُليطلة وعدم تغلغله في الفتح ، فقد حرص موسى – وهو على حق – على توقّف طارق عن الانطلاق شمالاً أو شرقا أو غرباً للفتح . خوفاً من محاولة القوط قطع خطوط مواصلات قوّات طارق . وحتى لا يتعرّض جناحا قوّات طارق الأيمن والأيسر لخطر تعرض المقاومة القوطيّة المحتملة ، مما يسبّب لها خسائر فادحة بالأرواح .

والواقع . أنّ موسى كان يعمل مع طارق من أوّل نزوله الأندلس ،

(٤٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (١٧٢/١) .
(٤٧) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢) .

بتعاون وثيق ، وأنّ خروج طارق للقاء موسى عند طَلَبِيرَة لم يكن لمجرّد اللّقاء ، بل لغرض آخر حربيّ سنعرفه ، وقد أتمّ الرجلان الفتح على أحسن ما يكون القادة تعاونا (٤٨) .

ب . فتوح موسى قبل لقاء طارق :

نزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق) ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهّب ، فلما عزم السير ، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب ، وعددها يزيد على عشرين راية ، فأجمعوا السّير إلى إشْبِيلِيَة وغزوا ما بقي من غربيّ الأندلس حتى أكْشُونِيَة (٤٩) .

وزحف موسى إلى شَذُونَة ، ومنها سار إلى قَرْمُونَة ورعواق (Alcaca Guadaira) ففتحها ، وبهذا أمِّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشَذُونَة ورعواق وقَرْمُونَة وإسْتّجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح بامكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشْبِيلِيَة كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طُليطلة إذ ذاك .

واتّجه موسى بقوّاته نحو إشْبِيلِيَة ، ففتحها المسلمون بعد بضعة أشهر من الحصار ، ويبدو أنّ سكانّها فتحوا أبوابها للمسلمين بعد أن طال

---

(٤٨) انظر التفاصيل في قادة فتح المغرب العربي (١/٢٥١ ــ ٢٥٥ ــ) وفجر الأسلام (٨٧) .

(٤٩) اكشونيه : مدينة بالاندلس ، يتصل عملها بعمل لشبونة ، وهي غربى قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣١٧) ، وفيه وردت اكسبونة . ورد اسم هذه المدينة في المصادر العربية بصيغ مختلفة : رعوان ؛ زعواق ، رعواق ، ويبدو أن الصواب هو : رعواق ، وهى قلعة جوادايرا ، انظر : نفح الطيب برواية ابن حيان (١/١٧٠) واخبار مجموعة (١٦) وفيهما ذكر فتح قرمونة قبل اشبيلية .

الحصار واشتدّ القتال. وأما حاميتها القوطيّة ، فانسحبت إلى لَبْلَة (٥٠) على مصب وادي آنة ، ومنها إلى أَكْشُونِيَة _(Sta. Maria de Faro) (Ossonoba) ، ثم إلى بَاجَة (٥١) ، وهناك استقرّت تنتظر الحوادث .

وسار موسى على رأس قوّاته قاصداً مارِدَة (٥٢) ، متبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين ، واستولى في طريقه على بلدة تسمى لَقَنْت (٥٣) سلّم له أهلها دون مقاومة ، فسمّوا لذلك : موالي موسى (٥٤) .

ولما أدرك موسى ماردة . وجدها أحصن وأقوى مما ظنّها . فقد كان الهاربون من فلول القوط قد تجمّعوا فيها ، لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً البلد بقيّة الصيف والشتاء التالي ، ولم يسلّم البلد إلاّ في الأول من شهر شوّال سنة أربع وتسعين الهجريّة (٣٠

(٥٠) لبلة : قصبة كورة بالاندلس كبيرة ، يتصل عملها بعمل اكشونية وهى شرق من اكشونية وغرب من قرطبة . بينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة ايام . اربعة واربعون فرسخا ، وهى برية بحرية ، انظر معجم البلدان (٣١٩/٧) .

(٥١) باجة : مدينة من اعمال الاندلس ، تتصل بنواحي ماردة ، وهي ضمن اثنتي عشرة مدينة قاعدتها ماردة ، انظر المشترك وضعا والمفترق صقعا (٣٣) وجغرافية الاندلس واوروبا (٦٣) .

(٥٢) ماردة : كورة متصلة من نواحي الاندلس ، متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من اعمال قرطبة ، احدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى ، وهى مدينة رائعة كثيرة الرخام . فيها آثار قديمة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٧) .

(٥٣) لقنت : حصنان من اعمال ماردة بالاندلس : لقنت الكبرى ، ولقنت الصغرى . وكل واحدة تنظر الى صاحبتها ، انظر معجم البلدان (٣٣٦/٧) . وقال ابن القوطية : « ثم قصد من اشبيلية ، الى لقنت ، الى الموضع المعروف بفج موسى . في أول لقنت الى ماردة » ، انظر افتتاح الاندلس (٩) .

(٥٤) فتح الاندلس (١١) ، وانظر تعليق (Joaquin de Gonzalez) بخصوص هذه العبارة (٩٣) من الترجمة ، وانظر فجر الاندلس (٩٣) .

حزيران – يونيو ٧١٣ م) بعد قتال طويل . هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد ، وقد استُشهد أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين ، سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنيّة من شيء يشبه التُرابة (٥٥) الصلبة . ولم يسلِّم أهل البلد إلاّ بعد أن عاهدهم موسى على : « أنّ جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جاليقيَّة للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليَّها لها » ، وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والقوط فيما بعد (٥٦) .

وأقام موسى في ماردة أكثر من شهر ، يرتِّب أحوالها ، وينظِّم أمورها ، ويريح رجاله ، ويكمل نواقصهم في السلاح والتجهيزات ووسائط النقل من الحيوانات ، استعداداً لاستئناف الفتوح .

ج . لقاء القائدين :

من الواضح أنّ موسى أحسّ أن عناصر المقاومة القوطيّة في ناحية ماردة ،

---

(٥٥) الترابة : الاسمنت .

(٥٦) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في : اخبار مجموعة (١٨) ونفح الطيب (١/١٧١) ، وقد اورد هذان الكتابان تفاصيل مهمة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن المهم . ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التى كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد ، ذكروا ان هذا الموضع يسمى الى وقتهما : (برج الشهداء) لهذا السبب . ويذكران ايضا حيلة موسى مع اهل ماردة وتلوينه شعره من ابيض الى احمر الى اسود ارهابا لهم ، وانظر تفاصيل فتح ماردة في : الرازى نشر جاينجوس (٧٨) واخبار مجموعة (١٦–١٨) وابن الاثير (٥٦٥/٤ ــ ٥٦٦) والبيان المغرب (١٤/٢ ــ ١٥) والنويري (٢٨/٢٢ ــ ٢٩) وفجر الاندلس (٩٣) والفتح والاستقرار العربى الاسلامي (١٩٦) والتاريخ الاندلسي (٧٤ ــ ٧٨) .

كانت أقوى مما لقي المسلمون في أماكن أندلسية أخرى ، وعرف أنّ فلول القوط وأنصار لذريق بخاصة كانوا يتجمّعون في تلك المناطق الجبليّة الوعرة ظنّاً منهم أنّ المسلمين إذا وصلوا إليها ، فان طبيعتها الجبليّة الوعرة ستساعد المقاومة القوطيّة على الدفاع الرّصين ، حيث يمكن التّسرّب منها إلى نواحي قَشْتَالَة (٥٧) واسترامادورة إذا أخفقوا في الدفاع ، وفعلا لاقى موسى عقبات في طريقه من ماردة إلى طليطلة ، فخفّ طارق للقاء موسى بالظاهر ، ونجدته بالواقع ، حتى يخفّف الضغط على قوات موسى من جهة ، وليجبر المقاومة القوطيّة على مجابهة قوّات موسى وقوّات طارق في آن واحد ، ويضطرّها على الانسحاب .

والذي أخّر طارق عن الخروج للقاء موسى ، منذ عبوره إلى الأندلس ، حتى هذه الأيام . يمكن تفسيره بأن موسى ، رأى أنّ مقام طارق بطليطلة يؤمّنه من عمل يقوم به قوطها . فلما فرغ من أمر ماردة ، وأراد السيّر نحو طليطلة ، أحسّ أنّ الطريق طويل محفوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت تتجالب (٥٨) وتتجمع في تلك النواحي . فلما رأت موسى يأخذ في الطريق وجدت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته في معركة لها ما بعدها . وكان هذا هو السبب الذي حفّز طارقاً إلى المسير للقاء موسى . ولا يُعلّل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه موسى طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلاّ بأنّ موسى لم يطلب إلى طارق المجيء إليه إلاّ في تلك الأيام ، حينما أحسّ ببعض ما كان يدبّر حوله في هذه المناطق الجبليّة الوعرة .

والواقع أن حشود القوط تربصت بالمسلمين في تلك المنطقة ، ولبثوا

---

(٥٧) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان
(٥٨) البيان المغرب (١٥) .

يتحينون الفرصة للانقضــاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في طريقه ، فكان لابد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً ، وانتظر مولاه في وادي الأرّوكامبو (Arrocampo) ، في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار (Tietar) قرب طلبيرة غربي طليطلة (٥٩) .

أما موسى فسار في طريق ماردة ـ سلمنقة بحذاء نهر أطلق عليه اسمه ، وهو نهر موسى (Valmuza) (٦٠) .

وإذا كان قد حدث شيء ما بين القائدين ،فلا يعدو أن يكون مناقشةَ بعض القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها . « وعلى توغّله بالمسلمين ، وتغريره بهم » (٦١) ، حيث اندفع بهذه السرعة إلى قلب البلاد . وحين : « خرج إليه طارق وتلقّاه ، فتعتّب عليه موسى وقال

(٥٩) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (٨إ) وفتح الاندلس (١١) والبيان المغرب (١٦/٢) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧١/١) ، وفجر الاندلس (٩٩) ، وقارن Saavedra. p. 98.

(٦٠) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو ، يعيننا على تحديد المكان الذى التقى فيه بطارق على وجه التقريب . فابن عذارى يقول : واتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة : « لما بلغه مسير موسى اليه، فلقيه بمقربة من طلبيرة » ، كما قال الرازى ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة . ولما كانت بعض المراجع ، الاجنبية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى (Almaraz) وهو لفظ عربي الاصل يرجع الى أصله العربي : (المعرض) وهو مكان على مقربة من طلبيرة ، فاننا نستطيع القول بأن لقاء بين موسى وطارق وقع هناك ، انظر البيان المغرب (١٧/٢) وأخبار مجموعة (١٨)
Saavedrv. op. Cit. p. 98, Rode Ricus Tolitanus. De rbus Hispaniae, 1, 111. Cap. XX 1 V

(٦١) البيان المغرب (١٦/١) .

له : ما دعاك إلى الإيغال والتّقحمّ في البلاد بغير أمري ؟ » (٦٢) . فاعتذر له طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه القتالي (٦٣) . وقد تمكّن طارق من حسم القضيّة مع سيّده ، وأظهر نواياه الحسنة ، وعرض على موسى كلّ ما أصابه من غنائم وكنوز في فتوحاته (٦٤) . ويبدو أنّه كان موفقاً أيضاً في إقناع موسى بوجهة نظره في الفتح ، وبضرورة استقرار المسلمين الدائم في البلاد المفتوحة ، وهذا الأمر واضح جداً من التفاهم المتبادل ، والتعاون المشترك الذي ساد بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة (٦٥) : « ثم انّ موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدمته ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (٦٦) ، كما ذكرنا ذلك .

لقد كان عبور موسى إلى الاندلس لسبب حربيّ واضح ، وكان باستدعاء طارق له ، فجاء منقذاً لا منتقما . كما كان توجه طارق للقاء موسى لسبب حربيّ واضح أيضاً . لأن قوّات موسى أصبحت مهدّدة بحشود المقاومة القوطيّة . فقدم إلى موسى بمبادرة منه أو بطلب من موسى ، وما حدث في سير الحوادث هو الدليل القاطع على سبب اللّقاء بين القائدين .

فقد انقضّت حشود المقاومة القوطيّة التي كانت في تلك المنطقة الجبلية

(٦٢) تاريخ الاندلس (٢٥ مقدمة المحقق) و (١٤٩ نص ابن الشباط) والحلة السيراء (٢/٢٣٢) .
(٦٣) التاريخ الاندلسي (٩٠) .
(٦٤) اخبار مجموعة (١٩) وابن الاثير (٤/٥٦٥) والبيان المغرب (٢/١٦ ـ ١٧) والنويري (٢٢/٢٩) و نفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٣) .
(٦٥) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٨١) .
(٦٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/١٧٢) .

الوعرة على جيش موسى في ناحية يسميها مؤرخو المسلمون : السَّواقي ، وهي (Segyuela de los Cornejos) على مقربة من تمامِس (Tamames) (٦٧) ، فردّ المسلمون على القوط بهجوم مقـابل وثبتوا للقوط حتى أفنوهم عن آخرهم (٦٨) .

ويبدو أنّ اشتباك المسلمين بالقوط في معركة السَّواقي ، شجّع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ، ووثبوا بها ، فاضطرّ موسى إلى فتحها من جديد ، ودخولها دخول المنتصر .

أليس هذا الذي حدث في معركة السّواقي ، وفتح طيلطيلة ثانية ، دليلاً قاطعاً ، على أنّ المسلمين بقيادة طارق بعد تغلغلهم العميق في البلاد ، أصبحوا في خطر جسيم ، لانكشاف جناحيهم : الأيمن والأيسر ، ولتهديد خطوط مواصلاتهم الطويلة الواهنة ، فكان عبور موسى هو لدرء هذا الخطر الجسيم . كما أن بقاء طارق في طليطلة دون فتح جديد ، ودون لقاء موسى ، بالرغم من مضي مدة طويلة من الزمن على عبور موسى ، هو لتثبيت حشود المقاومة القوطيّة في أماكنها دون التعرض بقوات موسى وقوات طارق لأطول مدة ممكنة . كما أنّ حركة طارق للقاء موسى في طريقه إلى طليطلة ، وهو طريق جبليّ وعر فيه حشود المقاومة القوطية المتربِّصة بالمسلمين ، كان

---

(٦٧) فتح الاندلس (٨) والامامة والسياسة (١٥٦/٢) .

(٦٨) لا عبرة بمن ذكر أن لذريق قتل في هذه المعركة ، وان قبره في فيزيو معروف حتى زمان الفونســو الكبير الذى ذكر في حولياتــه أنــه رآه وقرأ عليه لوحة تقول : هنا يرقد لذريق ملك القوط (Hic requiescir Rudericus rex gothorur فقد قضى لذريق نحبه في المعركة الحاسمة التي قادها طارق ، كما ذكرنا ، والقبر وما مسجل عليه مزور كما هو واضح ، وكثيرة هي القبور المزورة كما هو معروف .

(٩) فتح الاندلس (١٢) .

لمعاونة موسى على اجتياز الطريق المحفوف بالمخاطر سالماً آمنا ، أو ضمان إحراز النصر على القوط إذا اشتبكوا بالمسلمين ، لأنّ اشتباكهم بقوات موسى وقوّات طارق أصعب عليهم من اشتباكهم بقوات موسى وحدها .

إنّ كلَ ما حدث يدلّ على أن القائدين كانا يعملان لمصلحة المسلمين العليا ، لا لمصلحتهما الشخصية الضيقة ، فلا مجال لتصديق ما زعمه بعضهم من حدوث مشادات بينهما ، قد تصدق على إطفاء ما يعتلج في صدور الصبيان من حزازات ، دون أن يخطر أمثالها ببال قائدين عظيمين .

وبالامكان ذكر أدلّة جديدة ، على أنّ موقف طارق والمسلمين في الأندلس ، نظراً لاندفاعهم السريع في عمق البلاد ، كان موقفاً خطيراً للغاية وواهناً إلى أبعد الحدود ، وهو السبب في استنجاد طارق بموسى ، وعبور موسى بنفسه إلى الأندلس ، لمعالجة الموقف الراهن وملافاة أخطاره ، ولو أنّ الأمر أصبح لا يحتاج إلى أدلة جديدة ، ولكنّ استكمال البحث بالدرجة الأولى . هو الذي يحملني على ذكرها بايجاز ، ثم لتكون أدلة جديدة تضاف إلى الأدلّة السابقة .

فقد ذكرنا أنّ طارقاً فتح مدينة شَذُوْنة عَنْوَةَ بعد معركته الحاسمة مع القوط ، كما فتح مدينة قَرْمُوْنَة وإِشْبِيْلِيَة وإِسْتِجّة وطُلَيْطُلَة .

وفتحت سراياه قُرْطُبَة ومالَقَة وإلْبِيْرَة وكورة تُدْمِيرْ وغَرْناطة وأُرْيُولَة .

وذكرنا في فتوح موسى قبل لقائه بطارق ، أنّه فتح شَذُوْنَة وقَرْمُوْنَة ورعواق وإِشْبِيْلِيَّة ومارِدَة ولَقَنْت .

ومعنى ذلك ، أنّ كثيراً من المدن التي فتحها طارق لأوّل مرّة ، استعادها القوط ، مما يهدّد أجنحة قوّات طارق ، ويهدّد خطوط مواصلاته ، فاضطر

موسى أن يستعيد فتحها من جديد ، ، لتأمين جناحي طارق الأيمن والأيسر وخطوط مواصلاته ، ولتفتيت المقاومة القوطية أينما وجدت .

وحتى طُلَيْطُلَة ، بعد أن غادرها طارق بوقت قليل ، لكي يلاقي موسى وهو في طريقه إليها ، استعادها القوط ، فاضطر موسى أن يستعيد فتحها من جديد .

لقد عزّز عبور موسى موقف المسلمين بقيادة طارق في الأندلس ، وأزاح عنهم ما كان يخشونه من أخطار ، وأمّن خطوط مواصلات المسلمين ، وحمى أجنحتهم حماية كاملة ، وفتّت قوّات القوط ، وبدّد حشودهم في الجبال الوعرة ، وجعل آمالهم في استعادة ما فتحه المسلمون إلى حوزتهم سرابا ، وأظهر لهم بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، أنّ الخيار الوحيد المفتوح أمامهم ، هو الاستسلام للمسلمين ، والتعاون معهم في إدارة البلاد ، ومعاونتهم في تعميرها ، فقد جاء المسلمون ليبقوا لا ليرحلوا .

ومضى موسى وطارق إلى طليطلة ، ليقضيا فصل الشتاء معاً هناك ، وليرتاح المسلمون ويكملوا استعداداتهم لفتح جديد .

د . الفتح المشرك بين القائدين :

كان هدف موسى وطارق السَّوْقي (٦٩) ، هو فتح شمالي الأندلس ، وقد بدأ بانتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الصيف ، أي حوالي شهر جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين الهجرية (آذار — مارس ٧١٤ م) . وزحف الجيش الاسلامي ، على مقدّمته طارق ، وسار موسى خلفه على جيوشه

(٦٩) السوقي : : الاستراتيجي ، من السوق ، وكانت تستعمل في الجيش العراقي منذ الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي .

نحو مدينة سَرَقُسْطَة (٧٠) (Zaragoza) : « المدينة البيضاء » (٧١) ، ففتحا المدينة دون قتال شديد على ما يبدو ، فأقاما هناك سويّة ينظمّان أحوالها ، وأنشأ فيها مسجداً خطّطه التابعيّ الجليل حَنَش بن عبدالله الصَّنعاني (٧٢) . وأوغلا في البلاد ، لا يمرّان بموضع إلاّ فُتح عليهما ،

(٧٠) سرقسطة : تعريب للاسم الروماني : قيصر اجستا (Saesar Augusta) لأن آغسطس قيصر هو الذي اسسها سنة (٢٣ ق.م) على اطلال المدينة الايبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الايبيريين باسم : سلدوبا (Salduba) ، وهي من أطيب البلاد ، تقع على نهر ابْرُهْ الذى مجراه ينصب في البحر الابيض المتوسط بساحل طرطوشة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧١) ونصوص عن الاندلس لابن الدلائي (٢١ ـ ٢٣) .

(٧١) الروض المعطار (٩٦) .

(٧٢) حنش بن عدالله الصنعاني : هو حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة ابو رشيد ، من صنعا دمشق ، روى عن فضالة بن عبيد ورويفع بن ثابت وابي هريرة وابي سعيد ، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة . غزا المغرب ، وسكن افريقيا ، وعداده في المصريين ، وهو تابعى كبير ثقة. دخل الاندلس ، وكان مع على بن ابى طالب بالكوفة وبعد استشهاد علي رضي الله عنه ، غزا المغرب والاندلس . كان حنش اذا فرغ من عشائه وحوائجه ، واراد الصلاة من الليل ، أوقد المصباح وقرب المصحف واناء فيه ماءه فكان اذا وجد النعاس استنشق بالماء ، واذا تعايا في آية نظر في المصحف ، وكان اذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح باهله : « اطعموا السائل » ، حتى يطعم . نزل مصر ، ومات سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبدالملك بن مروان ، فاتى به عبدالملك في وثاق فعفا عنه ، وذلك لان عبدالملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بأفريقية سنة خمسين الهجرية ، فحفظ له ذلك . غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : ان جامع سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه، وانه اول من اختطه . وفي رواية: ان ابا المهاجر دينار بعث حنش بن عبدالله الصنعاني الى جزيرة شريك (في افريقية) ، فافتتحها ، انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٥/٥ ـ ١١) ومعجم البلدان (٥/٣٩٢ ـ ٣٩٣) والاستقصا (١/٧١ وتاريخ علماء الاندلس (١/١٢٥) رقم ٣٩١ وجذوة المقتبس (٢٠٢) رقم ٤٠٣ وبغية الملتمس (٢٧٨) رقم ٦٨٧ وقادة فتح المغرب العربي (١/١٣٩) و (١/١٥٢) .

وكانت الغنائم جسيمة ، ولم يعارضهما أحد إلاّ بطلب صلح ، وموسى يجيء على أثر طارق في كلّ ذلك ، ويُكمل ابتداءه ويوثق الناس على ما عاهدوه عليه (٧٣) . وكانت طلائع المسلمين لم تكد تشرف على سَرَقُسطة حتى رُعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومَنْ معه من الرُّهبان ، فجمعوا كتبهم المقدّسة وقرروا الهجرة من البلد ، والفرار بهذه الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمّنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة (٧٤) ، وفتحت المدينة البيضاء : سرقسطة أبوابها للمسلمين سنة خمس وتسعين الهجرية .

ولم يكد المسلمون يستقرون في سَرَقُسْطَة بعد فتحها ، حتى توجّه طارق وموسى إلى مناطق حول تلك المدينة وفتحا تلك المناطق ، كما فتحا

(٧٣) نفح الطيب (١/٢٥٥ ـ ٢٥٦) .

(٧٤) في فجر الاندلس (١٠٢) : ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقى ، ومادهمهم من ثورة اهل طليطلة ، مال بهم الى الشدة ، فنراهم في غزوتهم هذه أميل الى العنف مما كانوا عليه قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالا سلبيا ، فيؤمن أهلها ولا يأخذ الا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة ، نسمع من الان فصاعدا عن نهب البلاد واحراقها ورعب اهلها وخروجهم منها على وجوههم ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة سياسة موسى ، وقد عرفناه شديدا قاسيا عظيم الميل الى المغانم والاسرى والسبايا ، هذا وان العرب انفسهم ـ وعلى رأسهم الخليفة ـ انكروا عليه هذا المسلك » كما ورد في : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٠ ـ ١٠١) مثل هذا المعنى .

وما ورد في قصة الاسقف بنسيو في أعلاه ، يناقض هذا الرأى الذى مصدره المستشرقون ويعطى نموذجا واقعيا حياً لرحمة المسلمين للمغلوبين . فأذا ظهرت شدة من موسى في بعض المواقف ، فلان الموقف الحربي قد يتطلب ذلك ، انظر قادة فتح المغرب العربي (١/٢٦٦) .

مدناً أخرى في تلك الناحية : وشْقَة (٧٥) (Nuesca) ولارِدَة (٧٦) (Lerida) وطَرَّكُونَة (٧٧) (Torragone) وبَرْشَلُونَة (٧٨) (Bavcalona) (٧٩) . وأحبّ موسى سيره نحو البرت ، ولكن جنده روِّعوا لما شاهدوه من قفر تلك النواحي وقلّة عمرانها،ثم إنّ أهلها كانوا يتكلمون اللغة الباسكية (لغة الباسك) ، فوقعت من جند موسى موقعاً غريباً ، وظنوا أنّهم لا يتكلمون (٨٠) ، وزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم (٨١) . وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة ، اشتدّ ذلك على الناس وقالوا : « أين تذهب بنا ؟ ! حسبنا ما في أيدينا ! » ، وكان موسى قد قال حين دخل إفريقيّة وذكر عُقْبَة بن نافِع : « لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه . أما كان معه رجل رشيد ؟! » ، فسمعه حَنَش بن عبدالله الصَّنعانيّ في حينه ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح ، قام حنش فأخذ بعنانه ، ثمّ قال : « أيّها الأمير ! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن

(٧٥) وشقة : بليدة بالاندلس ، وتعد من الثغر الاعلى من ثغور الاندلس مع لاردة وغيرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٢٣) ونصوص عن الاندلس (٢٤) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٥) .

(٧٦) لاردة : مدينة مشهورة بالاندلس ، شرقي قرطبة ، تتصل اعمالها بأعمال طركونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣١٣) .

(٧٧) طركونة : بلدة بالاندلس ، متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطيء البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤٤) .

(٧٨) برشلونة : مدينة اندلسية مشهورة ، قريبة من طرطوشة ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٢ ــ ١٨٣) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٦ـ٩٩) .

(٧٩) فجر الاندلس (١٠٣) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠١) ودولة الاسلام في الاندلس (١/٥٣) والتاريخ الاندلسي (٩٢) .

(٨٠) في البيان المغرب (٢/١٨) : « وفتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم ، حتى اتى قوما كالبهائم وغزا بلاد الافرنج » ، وانظر فجر الاسلام (١٠٣).

(٨١) البيان المغرب (٢/٢٤) والامامة والسياسة (٢/٧٨) وقادة فتح المغرب العربي (١/٢٦٦) .

نافع تقول : لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم ! أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟ ! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عزّ وجل ، وأعرض مما فتح الله عليك ، وجعل لك ؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأحبّوا الدّعة » ، فضحك موسى ثمّ قال : « أرشدك الله وكثّر في المسلمين أمثالك » ، ثمّ انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول : « أما والله ، لو انقادوا إليّ ، لقدتهم إلى روميَّة (روما) ، ثمّ يفتحها الله على يديّ إن شاء الله » (٨٢) .

ولكن موسى ومعه طارق ، استطاعا أن يعيدا إلى رجالهما نشاطهم وحماستهم للفتح ، وبينما كانا يُعدّان العُدّة لفتح جِلِّيْقِيَّة(٨٣) ، إذ أتاه مُغيث الرّوميّ (٨٤) رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يأمره بالخروج من الأندلس ، والكفّ عن التوسّع في البلاد ، وأن يشخص إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم يدخله المسلمون غير جِلِّيْقِيَّة ، فكان شديد الحرص على اقتحامها (٨٥) . وكان موسى قد أوفد عليّ بن رَباح (٨٦) ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين

(٨٢) الامامة والسياسة (٨٠ ــ ٨١) ، وانظر ما جاء حو لذلك في قادة فتح المغرب العربي (١/٢٦٦ ــ ٢٦٧) .

(٨٣) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط ، من ناحية شمالي الاندلس، في أقصاه من جهة الغرب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٣١) وتقويم البلدان (١٨٤ ــ ١٨٥) وجغرافية الاندلس وأوروبا (٧١ ــ ٧٣) .

(٨٤) مغيث الرومى : انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح الاندلس والبحار .

(٨٥) نفح الطيب (١/٢٥٨) .

(٨٦) على بن رباح : هو أبو عبدالله على بن رباح بن نصير اللخمي ، كان فاضلا جليلا من جملة التابعين ، يروى عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم عمرو بن العاص وولده عبدالله ، وعقبة بن عامر وابو هريرة وعائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم ، وكان اذا انفرد يستذكر ما حفظ من أحاديث نبوية خوفا من نسيانها . ولد سنة خمس عشرة الهجرية،وكان أعور ،ذهبت عينه =

من عمره ، وهو من التابعين (٨٧) مع مغيث الرّوميّ مولى الوليد بن عبد الملك رسولين إلى الخليفة ينهيان إليه أخبار الفتوح ، يوم كان موسى في طُليطلة بعد أن استعاد فتحها من جديد ، وذلك سنة أربع وتسعين الهجرية ، فعاد إلى موسى بما أمره به الوليد .

ولكنّ قدوم مُغيث ، لم يصرف موسى عن المضيّ في إتمام هذه الفتوح التي صاحبها التوفيق إلى هذه السّاعة ، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت . ريثما يتمّ فتح جلّيقيّة ، ولاطف مغيثاً من أجل ذلك ، وسأله إمهاله إلى أن ينفّذ عزمه في فتح جِلّيقيّة . والمسير معه أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل مغيث ومشى معه(٨٨) . وقد وهب مغيثاً القصر الذي ينسب إلى مغيث في عهد المسلمين . وهو : (بلاط مغيث) ، وهو قصر حاكم قرطبة السابق ، بجميع أرضه من أرض الخمس(٨٩) . نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته

يوم الصواري في البحر مع عبدالله بن سعد سنة اربع وثمانين الهجرية . وكانت له مع عبدالعزيز بن مروان منزلة ، وهو الذى زف أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان الى الوليد بن عبدالملك ، ثم عتب عليه عبدالعزيز ، فأغزاه افريقية ، الى ان توفى بها ، ويقال : ان وفاته كانت في سنة أربع عشرة ومائة الهجرية . وقيل توفى سنة سبع عشرة ومائة الهجرية ، انظر التفاصيل في : تاريخ علماء الاندلس (٣١٠/١) رقم ٩١٥ ورياض النفوس (٧٧/١ ـ ٧٨) ونفح الطيب (٢٦٠/١ ـ ٢٦١) . وانظر الامامة والسياسة (٧٥/٢ ـ ٧٦) حول ايفاده الى الوليد بن عبدالملك من قبل موسى بن نصير .

(٨٧) دخل الاندلس اربعة من التابعين هم : على بن رباح اللخمي ، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن زياد الحبلي . وحنش بن عبدالله الصنعاني ، وحيوة بن رجاء التميمي . وفي بغية الملتمس (٥١) : محمد بن أوس الانصاري وهو من التابعين غزا الاندلس مع موسى بن نصير ، وانظر تاريخ علماء الاندلس (٣١٠/١) . هذا بالاضافة الى موسى بن نصير الذى كان من التابعين أيضا .

(٨٨) نفح الطيب (٢٥٨/١) .

(٨٩) الرسالة الشريفية في الاقطار الاندلسية (٢٠٤) .

في غزو جلِّيقيَّة . وقبل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأنّ موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً لفتح قَشتالَة(٩٠) القديمة (old Castille أو Casulla le vieja) ، تأميناً للحدود الشماليّة لاقليم طُليطلة (٩١) .

والحديث عن إقناع مغيث بالغنيمة والقصر لإبقاء موسى على رأس جيشه، ليستكمل تحقيق أهدافه في الفتح ، ليس من السهل تصديقه ولا قبوله ، فهو رشوة لتأجيل تنفيذ أمر الخليفة الواضح الصريح ، وقد كان مغيث قوياً أميناً لايقبل الرشوة ولا يرتضي لنفسه مخالفة أوامر الخليفة الصريحة الواضحة ، والذي يبدو أنّ الخليفة أمر مغيثاً أن يُشخص موسى معه إلى دمشق ، دون أن يأمره باشخاصه فوراً ، فكان لمغيث أن يتصرف في أمر موسى بحريّة مطلقة ، فرأى أنّ الموقف العسكري يتطلّب بقاء موسى ردحاً من الزمن في الأندلس ، لاستكمال فتوحاته ، واقتنع برأي موسى بضرورة بقائه لغزو منطقة جِلِّيْقيَّة ، حتى لايتعرّض إقليم طليطلة لتعرض قوطيّ متوقّع ، كما لم يجد مغيث محذوراً من بقاء موسى في قيادته ، فلا اعتراض لموسى على أمر الخليفة، كما لايستطيع أن يعترض ، فكان لبقاء موسى فائدة للفتح دون ضرر على الخلافة، لذلك اقتنع مغيث بالسير مع موسى ومرافقته في فتحه ، فكانت الغنيمة والقصر جزاء جهاده لا جزاء تراخيه في تنفيذ أمر الخليفة أو جزاء التخليّ عن التنفيذ .

والغريب أنّ المستشرقين ركزّوا على هذه الفرية وبالغوا في شرحها وتوضيحها وتسليط الأضواء عليها ، فصوّروا في هذا الفصل مغيثاً متواطئاً مع موسى على الخليفة ، ثم صوّروه في الفصل الثاني عدواً لدوداً لموسى ، يشنّع على موسى

---

(٩٠) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس ، قصبته اليوم طليطلة ، انظر معجم البلدان (٩٣/٧) وجغرافية الاندلس واوروبا (٣٢) .

(٩١) Saavedrw. op. Cit. p. 113-114.

لدى الخليفة ، نتيجة لأنّه كان يرى نفسه أحقّ من موسى بتولي الأندلس . وليس ذلك من خلق التابعين وتابعي التابعين ، ولاكان الدسّ والافتراء والكذب والحسد والرشوة من أخلاقهم ، فأذا لم يكن ذلك مقنعاً للمؤرخ الذي تتبع خلق أولئك الرجال ، فالتناقض المكشوف في موقف مغيث بحسب ادعاءات المستشرقين ، لابدّ أن يكون مقنعاً ، إذ كيف يمكن أن نصدق أنّ مغيثاً يفتري ما يفتري على موسى بحضور الخليفة ، ثم يسكت عنه موسى في تقاضيه الرشوة لقاء تراخيه في تنفيذ الأمر الخليفي ؟ وهل من المعقول أن يعفو الخليفة عن المتراخي في تنفيذ أمره لقاء رشوة معروفة وليست سرّا .

وبالطبع استفاد المستشرقون من المصادر الاسلامية في ترويج هذه الادعاءات ، وما ذلك أراد مؤلفوها .

وسنرى سبب استدعاء موسى إلى دمشق وشيكا ، حيث لانجد محلّا لمثل هذه التخرّصات .

وكان يتفرّع من سَرَقُسْطَة طريقان رومانيان يتّجهان من الشرق إلى الغرب : الأول يذهب بحذاء نهر إبْرُه (٩٢) (Ebro) — (الأبرو) حتى هارو (Haro) ، ومن هناك يتبع بروفيسكا (Barivlesca) ثم أمَايَة (٩٣) ، ثم لِيُوْن (٩٤) واسترقة . والثاني ينفصل من الطريق الأول

(٩٢) نهر ابره : ويقع في شمال شرقي الجزيرة الايبيرية ، ويصب في البحر الابيض المتوسط عند طرطوشة ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٥٧) .

(٩٣) امابة : احدى المدن الاندلسية ، وهي احدى مدن الجزء الثالث بحسب تقسيمات الاندلس القديمة ، وهى : (Amayo) ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٦٢) .

(٩٤) ليون : مدينة بالاندلس في منطقة جليقية ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٤ ـ ١٨٥) .

عند بدايته ، ويتّجه نحو قَلَوْنية وبَلَنْسِيَة (٩٥) ، ويلتقي بالطريق الممتد من ماردة إلى أسترقة في مدينة بنا فنتي ، وكان لابدّ لموسى من السير في كلّ من هذين الطريقين ، فقسم جيشه قسمين : قسم بقيادته ، والآخر بقيادة طارق .

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسّير في الطريق الأول ، أدنى سفوح جبال كَنْتَبْرِيَة ، وشرع طارق بمهاجمة البشكنس (٩٦) غربي نهر إبره . فلم يجد صاحب الناحية فُرْتُوْن (Fortunius) بدّاً من الدخول في طاعة المسلمين ، بل اعتنق الاسلام ، ومنه تسلسل بنو قِسِيّ (٩٧) أصحاب الثغر الأعلى (٩٨) الذين لهم ذكر كثير في تاريخ الأندلس ، ثم تابع طارق سيره . واستولى على أمَايَة وأسترقة اللتين ذكرهما قسم من المؤرخين خطأ في حملة طارق التي كانت سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٩٩) (٧١١م) ، كما فتح مدينة ليون (١٠٠) في هذه السنة أيضاً .

---

(٩٥) بلنسية : كورة ومدينة بالاندلس شرقى قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٥ ـ ١٧٩) .

(٩٦) البشكنس : الباسك .

(٩٧) بنو قسى : كان قسى قومس الثغر في أيام القوط . فلما افتتح المسلمون الاندلس التحق بالشام ، واسلم على يدى الوليد بن عبدالملك ، فكان ينتمي الى ولائه ، فولد قسى فرتون ، وبنو قسى من المولدين ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٢ ـ ٥٠٣) ، وانظر نشاطهم فى الاندلس فى كتاب : نصوص عن الاندلس (٣٢ و ٣٥ و ٤٠ و ٤١ و٤٩ و١٦٥) .

(٩٨) الثغر الاعلى : ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر ، ولاردة وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وغيرها وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار ، وتمثله اليوم منطقة أراغون (Aragon) ، راجع الاثار الاندلسة (٧٨) والحلل السندسية (١/٢٠٦) و (٢/١١٤) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٥) .

(٩٩) انظر فجر الاندلس (١٠٤) .

(١٠٠) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٥) واخبار مجموعة (١٥) .

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قَشْتَالة (١٠١)، فأطاعه معظم من مَرّ بهم من رؤساء هذه المناطق . وقد لقي مقاومة عند قرية تسميها بعض المراجع بارو أو بازو في مقاطعة بلد الوليد الحالية (١٠٢) (فاليا دوليد Valladolid) ، ولم يلبث أن تغلّب عليها ، ثم سار متابعاً فتوحه . وبدلاً من أن يعرِّج على أسترقة ليلتقي فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) ، وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalqn) ، ثم حطّ رحاله عنـــد قلعـــة للُكْ (Lucus Asturum) الرومانية و(moria de Lugo) غير بعيد عن أَبِيْط (Oviedo) ، ومازال بها حتى فتحها . وسار موسى حتى بلغ خيخون (Gijsn) وأقرّ بها حامية وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاي (Pasa de Pelayo) على البحر الأخضر (١٠٣) . فطاعت الأعاجم ، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلمّا مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه . حطوّا به ونزلوه قاطنين (١٠٤) .

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط . فاطمأنّ إلى أنّه فتح شبه الجزيرة كلّها . لذلك شعر أنه لم يَعُد هناك أي معنى للاسترسال في الفتح . وكان موسى يخلف في كلّ مدينة وقلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرّق جنده . وطال السَّير بمن بقي منهم معه ، ونال منهم الجهد . فمالت

---

(١٠١)أخبار مجموعة (٢٨) . وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١م) . وهو خطأ واضح . انظر فجر الاندلس (١٠٤) .

(١٠٢) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس . عاصمته طليطلة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٣/٧) .

(١٠٣) هو المحيط الاطلسي . وكان يسمى ايضا : الاقيانوس . وبحر الظلمات .

(١٠٤) نفح الطيب (٢٥٨/١) وانظر فجر الاندلس (١٠٤ ــ ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٢ ــ ١٠٣) .

نفوسهم إلى العودة ، لذلك اكتفى موسى بوصوله إلى خيخون ، وأزمع العودة ، وهو يعلم أنّ أعدادا كبيرة من القوط قد تراجعوا أمامه واجتمعوا في نواحي أشتوريش وجِلِّيقيَّة . وأنهم يكوِّنون الخميرة الأولى لاستعادة الأندلس من المسلمين في المستقبل ، كما حدث ذلك فعلاً . ولو لم يشتغل العرب عن البقيّة الباقية من القوط بعد ذلك بحروب ومنازعات قبليّة فيما بينهم ، لاستطاعوا القضاء عليهم بسهولة ويسر ، ولكنّ العرب شُغلوا بأمور أنفسهم ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطيّة أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو بالتدريج وتقوى وتشتد ، لتنتهز في المسلمين كلّ فرصة تسنح ، ولتستعيد ما تستطيع استعادته مرحلياً من الأندلس كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ومن الواضح جداً ، أنّ موسى ترك جبهة القتال مُكرهاً لا بمحض إرادته ، فقد كان الخليفة يريد عودته إلى دمشق ، وكان مغيث يتربّص به ليتولى العودة معه ، فلما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحدّ القصيّ في نظر الخليفة ومغيث ، كان لابدّ له أن يعود ، لا إلى طُليطلة أو قُرطبة فقط ، بل إلى دمشق رأساً ، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد بن عبدالملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهّل ، إذ أن رسولاً آخر من الوليد ، يكنى : أبا نَصْر ، بعثه إلى موسى ، عندما استبطأه في القفول ، فأتاه وهو في مدينة لُكْ بناحية جلِّيقية (١٠٥) .

(١٠٥) نفح الطيب (٢٥٨/١) ، وفي فجر الاندلس (١٠٦) ورد : « حتى لتذهب الروايات ، الى أن الوليد ، بعثه اليه رسولا آخر اسمه : ابو نصر ، لقيه في لك ، فأخذ بعنان فرسه ، وأمره بالعودة ، وذلك امر مستبعد ، لأن مغيثا وصل وموسى في سرقطة في أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة اشهر ، ولا يتفق ان يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة ، فأرسل يتعجل ، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس . واقول : قد وردت ترجمة مغيث =

وهناك بعض المؤرخين ، يذكرون أنّ موسى بن نُصَير ، بعد أن افتتح سرقسطة ، بعث سراياه إلى قطالونة ، ففتحت بَرْشَلُونَة (١٠٦) ، ومن

= الرومى في نفح الطيب (٤/١١ ـ ١٣) وفي غيره في المصادر ، وهو لا يكتى : أبا نصر في تلك المصادر كلها . ولماذا نستبعد قدوم الرسول الاخر الذى أرسله الوليد الى موسى ، وقد انقضت على وصول الرسول الاول ثلاثة اشهر ، وهى مدة طويلة ، وبخاصة بعد ما استقر في ذهن الوليد انه يريد أن يشق عصا الطاعة ، انظر الامامة والسياسة (٧٥/٢ ـ ٧٦) ، وأن موسى يطمع في فتح غالة والوصول الى رومة ، انظر الامامة والسياسة (٨١/٢) ، بل الوصول الى ارض الشام عن طريق افرنجة (فرنسا) ، انظر نفح الطيب (٢٥٩/١) ، في الوقت الذى سئم المسلمون فيه الفتح واظهروا رغبتهم في العودة الى قرطبة ؟؟
لقد كان الخليفة الوليد بن عبدالملك حريصا غاية الحرص على سلامة المسلمين ، فعارض منذ البداية في اقحامهم في بحر شديد الاهوال ، فلما علم بما شرع به موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه وارسل أبا نصر رسولا ثانيا الى موسى يستعجله القفول الى دمشق ، واذا كان مغيث قد وافق على اكمال موسى لفتوحه ، فلان مغيثا قائد يقدر اهمية الموقف العسكري تقديرا عاليا ويقدر اهمية اكمال الفتح لحاضر المسلمين ومستقبلهم في الاندلس . اما أبو نصر ـ كما يبدو ـ فلم يكن قائدا ، وهو منفذ قوى امين للاوامر ، شديد الضبط والربط ، لا يقبل بعذر ولا ينصت اليه ، فمن الواضح أن أبا نصر شخصية ثانية غير مغيث ومختلفة عنه كل الاختلاف . وفي نفح الطيب (٥٨/١) نص صريح وهو : « وقفل معهم ـ اى مع موسى وطارق ـ الرسولان : مغيث وأبو نصر » ، انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٣ ـ ١٠٤) وقادة فتح المغرب العربي (٢٧٠/١ ـ ٢٧١) .

(١٠٦) برشلونة : وتسمى ايضا : برشنونة ، وهي مدينة مصاقبة للاندلس وقريبة من طرطوشة ، تقع في شمال شرقي الاندلس ، على البحر الابيض المتوسط ، ويعتبرها بعض جغرافيي العرب ، أنها ليست من الاندلس . انظر تقويم البلدان (١٨٢ ـ ١٨٣) ، ويراها بعضهم أنها من الاندلس ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٩٦) ، والثاني هو الصواب فهى من الاندلس . وتكسر الشين في برشلونة ، عند بعض الجغرافيين العرب .

هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغّلت في بلاد غالة (١٠٧) ، فاستولت على أَرْبُوْنة (١٠٨) (Narbonne) وصخرة إينيون (Avignin) وحصن لودون على وادي ردونة ، وهو وادي نهر الرُّون (١٠٩) . ولا نستبعد أن تكون بعض قوّات موسى قد افتتحت برشلونة ولاردة وجزء من إقليم قطالونية ، وأنّها قد وصلت إلى جبال البرتات واجتازتها إلى قَرْقَشُوْنَة (١١٠) ، فهو نفس الطريق الذي اتّبعه السَّمْح ابن مالك (١١١) . بعد ذلك بسنوات، ولكنّ فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مُسْتَداما . إنّما كان فتحاً وقتياً بقوات استطلاعية خفيفة ، استطاعت جمع المعلومات عن تلك المنطقة من بلاد فرنسا ، تمهيداً لفتحها فيما بعد (١١٢)

---

(١٠٧) الغال : بلاد الغال (Gaul, Gallia) ، وهى تمثل قسما كبيرا من فرنسا أو جنوبها احيانا ، وكان يسمونها : غاليوش ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٥٩) .

(١٠٨) اربونة : مدينة في شمال شرقي قرقشونة ، تقع على الساحل الفرنسي الجنوبي ، انظر ما جاء عنها في تقويم البلدان (١٨٢ ــ ١٨٣) .

(١٠٩) نفح الطيب (١/٢٥٦) .

(١١٠) قرقشونة : وهى (Carcassonne) بلد في جنوبى فرنسا قريبة من حدود اسبانيا الشمالية ، وفي معجم البلدان (٧/٥٩) : أن المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوما . وفي نفح الطيب (١/٢٦٠) : أن موسى انتهى الى حصن من حصون العدو يقال له : قرقشونة ، وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) ــ الامير شكيب ارسلان ــ مصر ــ ١٣٥٢هـ . وفي نفح الطيب (١/٢١٨) وابن خلدون (٤/١١٧) : ان موسى توغل في الاندلس الى برشلونة من جهة الشرق واربونة في الجوف ، ويعتبر البكرى مدينة قرقشونة من الجزء الاول الاندلسي ، انظر جغرافية الاندلس وأوروبا (٦٠) .

(١١١) السمح بن مالك : سترد ترجمته في كتابنا : قادة فتح الاندلس

(١١٢) في البيان المغرب (٢/٢٤) ونفح الطيب (١/٢٥٩) ، ان موسى انتهى الى صنم ، فوجد فى صدره مكتوبا : يا بني اسماعيل ! الى هنا ــ

الأنســـان

١ ـ عـودة القائدين الى دمشـق

أ ـ العـودة :

بادر موسى بالعودة من لُكْ بجِلِّيقيَّة مع أبي نَصْر الرّسول الثاني للوليد بن عبدالملك ، وكان مع أبي نصر رسالة من الوليد إلى موسى ، يوبِّخ الوليد بها موسى ، ويأمره بالخروج من الأندلس ، وألزم رسوله إزعاجه (١١٣) ، فأخذ موسى في طريق العودة أواخر سنة خمس وتسعين الهجريّة (منتصف صيف ٧١٤ م) (١١٤) . وفي طريقه من لُكْ ، التقى بطارق الذي كان عائداً من حملة له على منطقة أراغون (Aragon)

= منتهاكم . واذا سألتم : الى ماذا ترجعون ؟ اخبرناكم : ترجعون الى اختلاف ذات بينكم حتى يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ومن الواضح، ان هذه اسطورة من الأساطير . وهى قصة خرافية ، نسجت بعـد ، تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلا ، وادى بهم الى ضياع الفردوس المفقود (الاندلس) منهم ، وخروجهم منها أذلاء مغلوبين حين تفرقوا واختلفوا وتخلوا عن عقيدتهم التي قادتهم للنصر ، فأصبحوا مسلمين جغرافيين ، لا مسلمين حقيقيين ، وعربا من قوارير أو بالجنسية حسب ، لاعربا حقا ، وكانوا قد دخلوها أعزاء فاتحين منتصرين متحدين موحّدين، متمسكين بعقيدتهم مضحين في سبيلها بالغالي والرخيص ، فكان بأسهم على اعدائهم شديدا فانتصروا وعزوا ، فأصبح بأسهم بينهـم شديدا ، فاندحروا وذلوا .

تلك هى عبرة الأسطورة للمسلمين اليوم وغدا ، فهى في معناها واقع مرير قد حدث ، وهى في مبناها اسطو ة من الأساطير .

(١١٣) نفح الطيب (١/٢٥٨) .

(١١٤) كانت مغادرة موسى من اشبيلية الى شمالي افريقية في شهر ذىالحجة من سنة خمس وتسعين الهجرية (من ـ سبتمبر ـ ٧١٤) .

في الثغر الأعلى (١١٥) فسار الاثنان معاً إلى طليطلة ، أما غالبيّة جنودهما ، ففضّلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة ، حيث استقروا وأقاموا منازلهم(١١٦). ومرّ موسى بطليطلة وقرطبة في طريقه إلى إشبيلية ، حيث عَيَّنَ هناك ابنه عبدالعزيز (١١٧) والياً على الأندلس ، وترك معه مساعدين من أمثال حبيب ابن أبي عُبَيْدة الفِهْرِي(١١٨) وكثيراً من القادة المسلمين الآخرين مع رجال قبائلهم ، ليدافعوا عن البلد ويحموه (١١٩) . وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للبلاد ، وذلك بسبب قربها من البحر والمضيق ، كما جعلها أيضاً قاعدة بحرية للمسلمين في الأندلس (١٢٠) .

وركب موسى البحر ، ومعه طارق ومغيث الرّومي وأبو نصر وكبار الجند ، في شهر ذي الحجّة من سنة خمس وتسعين الهجرية (أيلول — سبتمبر — ٧١٤ م) ، ومعهم يوليان ، وقد أبحر موسى ومَن معه من إشبيلية ، وهو متلهّف على الجهاد الذي فاته ، آسف على ما لحقه من إزعاج ، وكان يؤمِّل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة (فرنسا) ، ويقتحم الأرض

(١١٥) الثغر الاعلى : ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر ، ولا ردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وغيرها ، وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار ، وتمثله اليوم منطقة اراغون ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٦٥) .

(١١٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٦) و عبدالعزيز بن موسى ابن نصير : سترد ترجمته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الاندلس .

(١١٧) ورد اسمه في البيان المغرب (٢/٣٠) : حبيب بن ابي عبدة بن عقبة ابن نافع ، وكذلك في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) . اما في تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦) ، فقد ورد اسمه : حبيب بن ابى عبيدة .

(١١٨) أخبار مجموعة (١٩) وفتح الاندلس (١٧) وابن الاثير (٤/٥٦٦) والمراكشي (٨) والبيان المغرب (٢/٢٣) والنويري (٢٢/٢٩) وابن خلدون (٢/٢٥٥) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٦) والرسالة الشريفية (٢١٠) .

(١١٩) أخبار مجموعة (١٩) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٦) والرسالة الشريفية (٢١٠) ، وهي .

(١٢٠) أخبار مجموعة (١٩) ونفح الطيب (١/٢٧٦) .

الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشّام ، مؤمِلاً أن يتّخذ مُخْتَرَقَه (١٢١) بتلك الأرض طريقاً مُهْيَعاً (١٢٢) ، يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً (١٢٣) .

وتذهب بعض المصادر العربية ، إلى أنّ موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وفي ذلك مبالغة واضـحة ، فهـذا العدد الضخم من الأسرى ، يحتاج إلى وسائط نقل هائلة لنقلهم برّاً وبحراً من الأندلس إلى دمشق ، ويحتاج إلى تدابير إدارية من الصَّعب جداً تحقيقها ، والغالب أنّ عدداً قليلاً جداً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه ، وأما الباقون منهم ، فقد تُركوا في المزارع يزرعونها ويُديمونها ، وفي الأعمال الادارية الأخرى يديرونها ويدبِّرون أمرها ولكنّه استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس : من قريش . ومن الأنصار ، ومن سائر العرب ومواليها . وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل : منهم أبناء كسيلة ، وملك السّوس الأقصى . وملك قلعة أوساف . وملك ميورقة ومنورقة ، ومعه الغنائم من الذهب والفضّة والجوهر . محمولة على ثلاثين ومائة عجلة (١٢٤) ، فكان مع موسى أربعمائة رجل (١٢٥) . بل هناك رواية أنّ موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب ، وسار بهم في موكبه ، ليدلّ على عظم الفتح الذي تمّ على يديه (١٢٦) .

---

(١٢١) مخترقة : اى المكان الذي يخترقه ، اى يسلكه ويجتاز البلاد منه .
(١٢٢) مهيعاً : الواضح البين . وهو ايضا الواسع المنبسط .
(١٢٣) انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) .
(١٢٤) انظر التفاصيل في : الامامة والسياسة (٢/٨٢) .
(١٢٥) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦) .
(١٢٦) انظر : فجر الاندلس (١٠٧) .

واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية ، وابنه مروان على طَنْجَة والسّوس (١٢٧) ، فمرّ بطريق عودته بالقيروان (١٢٨) ، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين الهجرية (كانون الأول - ديسمبر - ٧١٤ م) ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، يأتيه أهل مصر في كلّ يوم ، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً ، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم ، وجاءهم بنفسه فسلّم عليهم ، ثمّ سار متوجِّهاً حتى أتى فلسطين (١٢٩) .

ولما قدم موسى ومعه طارق إلى الوليد بن عبدالملك في دمشق ، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي تُوفي فيها ، إذ بلغا دمشق سنة ست وتسعين الهجريّة (كانون الثاني - يناير - ٧١٥ م) أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً (١٣٠) ، وتُوفي الوليد في الخامس عشر من جمادى الثانية من سنة ست وتسعين الهجرية (٢٥ شباط - فبراير - ٧١٥ م) ، فخلفه في الحكم أخوه سليمان بن عبدالملك الذي كان مستاء أيضاً من موسى ،

---

(١٢٧) ابن حبيب (٢٣١ - ٢٣٢) وفتح مصر وافريقية (٢١٠) واخبار مجموعة (١٩) وفتح الاندلس (١٨) وابن الاثير (٥٦٦/٤) وابن الكردبوس (٥٠) وابن الشباط (١٢٣) والبيان المغرب (١٨/٢ - ١٩ و ٤٤) ونفح الطيب (٢٧٧/١) .

(١٢٨) المعجب في تلخيص اخبار المغرب (٣٤) .

(١٢٩) الامامة والسياسة (٨٢/٢ - ٨٣) .

(١٣٠) فجر الاندلس (١٠٧) ، ولم تكن مقابلة الوليد لموسى مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الاندلس ، وتباطؤه في اطاعة أوامر الخلافة ، انظر ابن الاثير (٥٦٦/٤) والنويري (٣٠/٢٢) وابن الكردبوس (٥٠) .
وانظر كذلك : Chr. 754. p. 149. (No.4)
وسترد اسباب مقابلة الوليد لموسى بجفاء ، واسباب سحبه وسحب طارق معه من الاندلس الى دمشق وشيكا .

فتروى المصادر أنّه حينما اقترب موسى من بلاد الشام ، كتب إلى موسى ، يأمره بتأخير وصوله إلى دمشق ، حتى يموت الوليد ، وبذلك يتسنى لسليمان الحصول على الكنوز التي جلبها موسى معه ، وينال فخر الفتح لنفسه . ولكنّ موسى أهمل طلب سليمان ، وتقدم إلى دمشق (١٣١) . وكان سليمان بعث إلى موسى من لقيه في الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالتريث في مسيره ، وألا يعجل ، فإنّ الوليد باخر رمقه ، فقرأ موسى الكتاب ، وقال : « خنت والله وغدرت وما وفيت ! والله لا تربّصتُ ولا تأخرّت ولا تعجّلت ! ولكني أسير بمسيري ، فإن وافيته حيّاً لم أتخلّف عنه ، وإن عجلت منيّته فأمره إلى الله » ، فرجع الرسول إلى سليمان ، فأعلمه (١٣٢) . وقد أبى موسى أن يتجاوب مع سليمان ، لأنّ دينه منعه من هذا التجاوب . فقدم على الوليد وهو حيّ ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتُّحف والذّخائر . فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى حتى تُوفي ، واستُخلف سليمان ، فحقد عليه وأهانه (١٣٣) .

وقيل : إنّ موسى وصل إلى دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استُخلف (١٣٤) .

والصّواب ، هو أنّ موسى وطارقاً وصلا إلى دمشق قبل موت الوليد ، وكان الوليد مريضاً ، فمثُلَ موسى بحضرة الوليد ، ولكن الوليد لم يقابله مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الأندلس ، وتباطؤه في

(١٣١) ابن الكردبوس (٥٠) والبيان المغرب (٢/٢٠) ونفح الطيب (١/٢٨٠ — ٢٨١) .

(١٣٢) الامامة والسياسة (٢/٨٣) ، وانظر البيان المغرب (٢/٢٥) .

(١٣٣) نفح الطيب (١/٢٦٢) وانظر تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦)

(١٣٤) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) ، وانظر المعجب في اخبار المغرب (١/٣٥) .

في إطاعة أوامر الخلافة (١٣٥) ، وكان مع موسى وطارق كميّات هائلة من الغنائم والأسرى والهدايا الثمينة من الذّهب والفضّة واللؤلؤ ، كما حملا أيضاً (المائدة) المشهورة وكثيراً من الكنوز الأندلسيّة الأخرى . ولكنّ الظّاهر أنّ قلب الوليد كان متغيّراً على موسى تغيّراً لا سبيل إلى إصلاحه ، لذلك لم يُحسن الوليد لقاء موسى ، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربّه وخلفه أخوه سليمان ، وهو أشدّ غضباً من أخيه على موسى ، ولهذا كان طبيعيّا ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً من سليمان ، وأن يُدرك أنّ أيام مجده وعزّه قد مضت مع أمس الدابر (١٣٦) .

بيد أننا نستبعد صحّة ما يبالغ به قسم من المؤرخين من أفاعيل سليمان بموسى ، فمن المستبعد ما يقال : إنّ سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدّة التعب والجهد والحر (١٣٧) ، وأنّ سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه (١٣٨) ، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطرّ إلى أن سأل العرب معونته ، فيقال : إنّ لَخْماً (١٣٩) حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حمّله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدّى مائة ألف وعجز ، فاستجار بيزيد بن المُهلّب (١٤٠) ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إيّاه ، إلاّ أنه عزل ابنه عبدالله عن إفريقية (١٤١) ،

(١٣٥) ابن الاثير (٤/٥٦٦) والنويري (٢٢/٣٠) وابن الكردبوس (٥٠) .
(١٣٦) قادة فتح المغرب العربي (/٢٧٩) .
(١٣٧) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٨٤ ـ ٨٥) .
(١٣٨) تقصى حسابه : اى تتبعه وشدد البحث عنه لتعرف حقيقته ، انظر ما جاء حول ذلك في نفح الطيب (١/٢٦٢) .
(١٣٩) بنو لخم : هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، انظر جمهرة انساب العرب (٤١٨ ـ ٤٢٢) ، وكان موسى من بني لخم .
(١٤٠) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد ما وراء النهر ـ مخطوط .
(١٤١) نفح الطيب (١/٢٦٢) .

وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدى به نفسه ، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك موسى ، ويدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه العذاب (١٤٢) ، لأن سليمان لو كان

---

(١٤٢) انظر التفاصيل في نفح الطيب (١/٢٦٥ – ٢٦٦) ، وفي الامامة والسياسة (٢/٨٤ – ٨٥) : « لما افضت الخلافة الى سليمان بن عبدالملك، بعث الى موسى ، فأتي به فعنفه بلسانه ، فكان مما قال له يومئذ : اجترات ، وامرى خالفت ، والله لأقللن عددك ولأفرقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ما كان يرفع غيرى ممن كنت تمنيه امانى الغرور ، وتخدعه من آل ابى سفيان ، وآل مروان ! فقال له موسى : والله يا امير المؤمنين ، ما تعتل عليّ بذنب ، سوى اني وفيت للخلفاء قبلك ، حافظت على من ولى النعمة عندى فيه . فأما ما ذكر امير المؤمنين ، من انه يقل عددي ويفرق جمعى ، ويبدد مالى ، ويخفض حالي ، فذلك بيد الله والى الله ، وهو الذى يتولى النعمة على الأحسان اليّ ، وبه استعين ، ويعيذ الله عز وجل امير المؤمنين ويعصمه ان يجرى على يديه شيئاً من المكروه لم استحقه ولم يبلغه ذنب اجترمته ، فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه ، وكانت بموسى نسمة (ربو) ، فلما اصابه حر الشمس واتعبه الوقوف ، هاجت عليه ، وجعلت قرب العرق تنصب منه ، فمازال كذلك حتى سقط ، وكان عمر بن عبدالعزيز حاضراً ، الى أن نظر سليمان الى موسى ، وقد وقع مغشياً عليه ، قال عمر بن عبدالعزيز : ما مر بى يوم كان اعظم عندي ، ولا كنت فيه اكرب من ذلك اليوم ، لما رايت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد اثره في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه وهذا يفعل به ! فالتفت اليّ سليمان ، فقال : يا ابا حفص اما اظن الا قد خرجت من يميني ! فقال عمر : فاغتنمت ذلك منه ، فقلت : يا امير المؤمنين ! شيخ كبير بادن ، وبه نسمة قد اهلكته ، وقد اتيت على ما فيه من السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله ، العظيم الغناء عن المسلمين ، قال عمر : منعنى من الكلام فيه ، ما كنت اعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت ان ابتدأته ان يلح عليه ، وهو لحوح . قال عمر : فلما قال لى ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت انّ الله قد احسن اليه ، وان سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب : انا اضمه =

قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك أولاده ولاة على إفريقية والأندلس ، ولأنّ موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المُهَلَّب الذي كان مقرّباً جداً من سليمان بن عبدالملك وصاحب الأمر في دولته (١٤٣) ، ولأنّ عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان من أقرب المقربين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبدالعزيز عن مثل تلك التّصرفات ، دون أن يقول كلمة الحق ، لإِحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأنّ سيرة سليمان الذي وصفه المؤرّخون ، بأنّه : مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وخلّى أهل السّجون ،

= يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة. قال سليمان : فضمه اليك يا يزيد ، ولا تضيق عليه . قال : فانصرف به يزيد ، وقد قدم اليه دابة ابنه مخلد ، فركبها موسى ، فأقام اياما . قال : ثم انه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى افتدى منه بثلاثة آلاف دينار » .... انتهى .

ومن الواضح ، أنّ المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية ، فسليمان لا يتورع عن تعذيب شيخ فانٍ عذاباً يقربه من حافة القبر ، وسليمان تارة قاس غاية القسوة ، وهو رحيم غاية الرحمة تارة اخرى في نفس الوقت ، بحيث يوصى بهذا الشيخ خيراً ، فلا يرضى ان يضيق عليه احد ! كما ان هذه القصة تناقض ما جاء عن سليمان من مزايا ، فهو : « مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وخلى السجون ، واحسن الى الناس ، واستخلف عمر بن عبدالعزيز ... » .. الخ ، كما جاء في الطبري (٣٠٤/٥) ، فكيف يقوم بتعذيب شيخ له ماضٍ مجيد ، كما وصفه عمر بن عبدالعزيز بالذات ، وكما يعرف عنه الناس جميعاً ؟!

كما أنّ هناك تناقضاً فاضحاً بين هذه القصة ، وبين ما جاء في القصص التي نوّهنا عنها في أعلاه ، ويبدو أنّ هذه القصة وامثالها من جملة القصص الموضوعة للتشنيع بسليمان وغيره من رجال العرب المسلمين الخلفاء ومن عمل معهم في تلك الأيام الذهبية من تاريخ العرب والأسلام ، وبخاصة في مجال الفتوح شرقاً وغربا ، وامثال هذه القصص ظاهـرة التهافت والتناقض ، لا تستقيم مـع خلق العرب وتعاليم الأسـلام ، التى كانت سائدة في المجتمع العربي الاسـلامي حينذاك .

(١٤٣) انظر قادة فتح المغرب العربي (٢٧٨/١ ـ ٢٧٩) .

وأحسن إلى الناس ، واستخلف عمر بن عبدالعزيز (١٤٤) ، لا تستقيم مع اتّهامه بالتنكيل بموسى ، وهو شيخ كبير ، له ماضٍ ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين . وأرى أنّ من المستبعد أن يعاقب سليمان تابعيّاً جليلاً هو موسى بن نصير ، ويعاقب مَن معه من أمثال طارق بن زياد ، وهما قد أسّسا ملكاً وقضيا حياتهما مجاهدين في سبيل الله ، لمجرّد قالة ظالمة أو وشاية كاذبة . وحتى مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، لم يكن لسليمان يد فيه ، لأنّ سليمان غضب لمقتل عبدالعزيز ، وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبدالعزيز ، والقبض على قتلته ، وإرسالهم إليه(١٤٥) .

لقد كان موقف سليمان من موسى ومَن معه سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد .

ولكن . لماذا عزل الوليد بن عبدالملك موسى عن إفريقية والأندلس ، وأقرّ سليمان هذا العزل ؟ .

لماذا استدعى الوليد موسى وطارقاً من ساحات القتال على عجل ، ولم يمهلهما حتى يحقّقا كلّ أهدافهما في الفتح ؟ (١٤٦) .

ب . أسباب استدعاء موسى وطارق :

كان للخلفاء أساليب خاصة . لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم

(١٤٤) الطبري (٥/٣٠٤) .

(١٤٥) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦ ـ ١٠٧) ، وفي اخبار مجموعة (٢٢) : « ولما بلغ سليمان مقتل عبدالعزيز بن موسى ، شقّ ذلك عليه ، فولّى افريقية عبيدالله بن يزيد ... وامره سليمان ان يحقّق فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبدالعزيز ، بأن يتشدد في ذلك ، وان يقفلهما اليه ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس .... » .

(١٤٦) قادة فتح المغرب العربي (١/٢٨٠) .

وتصرّفاتهم ، للاطمئنان إلى أنّ أولئك القادة والولاة ، لا يخرجون عن الخطّة التي رسمها لهم الخلفاء . وليحول الخلفاء - جهد الإمكان - دون خروج الولاة والقادة عليهم ، عند سنوح الفرصة المناسبة لهم .

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على ولاتهم وقادتهم ، وبخاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة ، هي إرسال مَن يعتملون عليهم من الرجال ، لينقلوا إليهم بدقة وسرعة وأمانة ، كلّ ما يرونه ضرورياً، لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور ، في مختلف البلاد والأمصار ، كما يريدون .

وكان مُغِيْث الرُّومي أحد مَن كان يعتمد عليه الوليد بن عبدالملك ، لأنّ عبدالملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولَده الوليد ، وقد نشأ بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها . وقد وقع بينه وبين طارق ، ثمّ وقع بينه وبين موسى ، فرحل معهما إلى دمشق ، ثمّ عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس . وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكَيْد (١٤٧) . وكان يطمع بولاية الأندلس ، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيثاً . فصرفه عن عزمه ، وقد بالغ في إذاية موسى عند سليمان(١٤٨).

ويرُوى لمغيث شعر خاطب به موسى وطارقاً . منه قوله :

أعَنْتُكُمُ ولكـن ماوفيتـم
فسوف أعيث في غربٍ وشـرق

وعارض يوماً مغيث في محفل من الناس موسى بن نُصير ، فقال له موسى : « كُفَّ لسانك » . فقال مغيث : « لساني كالمِفْصَل (١٤٩) ،

(١٤٧) نفح الطيب (١١/٤) .
(١٤٨) نفح الطيب (١٢/٤) .
(١٤٩) المفصل : بكسر الميم ، اللسان ، والسيف ، ويروى بفتح الميم والصاد : المفصل، انظر لسان العرب (٣٨/٤) .

ما أكفه إلا حيثُ يقتل » (١٥٠) .

والظاهر أنّ مغيثاً لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عندالوليد ، وعند سليمان من بعده ، طموحاً في توليّ الأندلس من بعد موسى ؛ ولكن كان مغيث صادقاً في اتّهامه ، إذ حقق سليمان جميع ما رُمِيَ به موسى عنده ، فأغرمه غرماً عظيماً (١٥١) ، ومن هذا يتّضح أنّ مغيثاً رمى موسى بعدم الأمانة في التصرف بالغنائم .

فهل كان اتّهام موسى بنزاهته حقّاً ؟ الواقع أنّ مغيثاً ليس وحده اتّهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق تعاليم الاسلام في الغنائم نصّاً وروحاً ، فقد ذكروا أنّ سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقية إلى دمشق ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبدالله الطويل من أهل المدينة المنورة . وكان على الغنائم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ الله أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإنّ موسى لم يخرج خُمساً من جميع ما أتاك » ، فغضب سليمان وقام عن سريره . فدخل منزله . ثمّ خرج فقال للناس : « نعم ، قد أغناني الله بالحلال عن الحرام » ، وأمر بادخال ذلك بيت المال (١٥٢) .

ولكنّ ذلك لا يكفي لإثبات التّهمة الموجّهة إلى نزاهة موسى ، وهو الذي عُرف بالتديّن ، وكان ورعاً تقيّاً لله (١٥٣) ، ولو ثبت ذلك عليه لما توسّط له عمر بن عبدالعزيز عند سليمان ، فعفا عن موسى (١٥٤) ، وعمر بن عبدالعزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف .

(١٥٠) نفح الطيب (٤/١٣) .
(١٥١) نفح الطيب (١/٢٦٢) .
(١٥٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) .
(١٥٣) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢) ونفح الطيب (١/٢٢٤) . وانظر رياض النفوس (١/٧٨) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٣) .
(١٥٤) الامامة والسياسة (٢/٢/٩٢ – ٩٣) .

ولا شكّ في نزاهة موسى ، فقد أغناه الله هو الآخر بالحلال عن الحرام ، فلماذا يتردى إلى مهاوي الخيانة في أمانته، وقد فُتحت عليه أبواب الخير ؟ لقـــد كان كريماً سخياً ، فأعطى من الغنائم مَن أعطى ولم يستأثر بما أخذ من الغنائم لنفسه ولمصلحته الشخصية حسب ، بل شارك بها الآخرين .

فما هي اسباب استدعاء موسى من الأندلس إلى دمشق وعزله ؟

يبدو أنّ الوليد ، ومن بعده سليمان ، اعتقدا أنّ موسى غرّر بالمسلمين ، وأنّه عرّضهم للمهالك ، بتغلغله عميقاً في الأندلس ، كما أنّهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس . فيقود المسلمين إلى روميّة (١٥٥) ، وأنّ موسى : «أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشّام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، فنمى هذا الخبر إلى الوليد ، فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع موسى ،وكتب له بذلك عهده ، ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدِّها وجهاد عدوِّها (١٥٦) . والظاهر أنّ الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكرّ عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها ،لأنه خشـــى تغلّب العدوّ عليهم (١٥٧) ، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبد العزيز الذي تولىّ الخلافة سنة تسع وتسعين الهجريّة (١٥٨) ،

---

(١٥٥) الأمامة والسياسة (٢/٨١) .
(١٥٦) نفح الطيب (١/٢١٨) .
(١٥٧) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٩) واخبار مجموعة (٢٣) .
(١٥٨) الطبرى (٥/٣٠٤) .

فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية (١٥٩) ، والفتح كان في أوّله ، والأندلس جد بعيد عن دار الخلافة ؟ .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز ، قد خشي على المسلمين في الأندلس ، بعد استقرار الفتح فيها ، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان ، على المسلمين ، من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً إلى روميّة وإلى القُسطنطينيّة ؟ .

لقد كان طموح موسى في التوسّع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دمشق . وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهريّة لاستدعائه .

وهناك سبب آخر ، لايقلّ خطورة عن السبب السابق ، هو اتّهام موسى بالخلع . فقد ذكروا أنّ الوليد بن عبد الملك لما بلغه سير موسى إلى الأندلس ، ووُصفت له ، ظنّ أنّ موسى يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ويمتنع بها ، وقيل له ذلك . وأبطأت كتب موسى عليه . لاشتغاله بما هنالك من العدو ، وتوطئته للفتح (١٦٠) . مما زاد في شكوك الوليد بنيات موسى بمحاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة . ولعلّ الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد . لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقيّة والأندلس . مما ضاعف تلك الشكوك ، وجعلها بعيدة عن الحدس ، قريبة من التصديق .

ولعلّ اتّهام موسى بالخلع . هو الذي يفسّر لنا ، لماذا لم تختلف نظرة سليمان عن سلفه الوليد إلى موسى . مع ما بين الخلف والسلف من تناقض كثير ، كما هو معروف . ذلك لأنّ أصحاب السلطان ، إذا اختلفوا في كلّ شيء ، فانّهم يتّفقون على شيء واحد ، هو عدم التّغاضي عن كلّ مَنْ يريد التحرّر من ربقتهم والاستقلال عنهم ، سواء كان إتّهامه حقاً بذلك أم كان باطلا . كما أنهم كانوا ولايزالون يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات ،

(١٥٩) نفح الطيب (١/٣١٨) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤) .
(١٦٠) الأمامة والسياسة (١/٧٥) .

لمقاومة الذين يخرجون عليهم أو الذين يتّهمونهم بالخروج عليهم زوراً وبهتانا . ويكفي أن يأخذوا المتّهم أخذاً في حالات الظنّ وفي حالات اليقين .

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد ، وقد أراد أن يوليه الأندلس خلفاً لموسى ، فقال : « كيف أمر طارق بالأندلس ؟ » . فقال مغيث : « لو أمر أهلها بالصّلاة إلى أيّ قِبلة شاءها ، لتبعوه ولم يروا أنّهم كفروا » ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدا له في ولايته (١٦١) ، وهذا يدلّ بوضوح ، على السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة ، إذ يستبعد عن الولاية كلّ مَن يخشى خطره من بعيد أو قريب .

وكان يزيد بن المُهلَّب بن أبي صُفْرَة . من أقرب المقرّبين إلى سليمان ابن عبد الملك ، وكان لموسى يد على المهلّب بن أبي صُفْرَة(١٦١) ، وقد سأل يزيد يوماً موسى : « أريد أن أسألك ، فاصْغِ إليّ » ، فقال موسى : « سَلْ عمّا بَدَا لك » ، فقال : « لم أزل أسمع عنك ، أنّك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحرب ومُداراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني سليمان بن عبد الملك) بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزّخّار(١٦٣) ، وتيقّنتَ بُعدالمرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها ، واستملكت رجالاً لايعرفون غير خيرك وشرِّك ، وحصل في يدك من الذّخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد مَن لايرحمك . ثمّ إنك علمت أنّ سليمان وليّ عهد ، وأنّه المُوَلّى بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لامحالة (١٦٤) ،

(١٦١) نفح الطيب (١٢/١) .
(١٦٢) انظر الامامة والسياسة (٩٤/٢ ــ ٩٥) ، وانظر سيرة المهلب في كتابنا : قادة فتح السند والأفغان .
(١٦٣) البحر الزخار : الطامى الممتلىء الجياش بالأمواج .
(١٦٤) أشرف على الهلاك : أراد أنه قارب الموت لسوء حاله .

وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التّهلكة ، وأحقدتَ مالكك ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً) ، وما رضا هذا الرجل إلاّ بعيد، ولكن لا آلو جهداً » (١٦٥) ، فقال موسى : « يا ابن الكرام ! ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت : إذا جاء الحَيْنُ (١٦٦) ، غطّى على العين ؟! » ؟ فقال يزيد : « ما قصدتُ بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل . وتنبيه الرأي ، وأن أرى ما عندك » فقال موسى : « أما رأيتَ الهُدْهُد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْدٍ . ويقع في الفخّ وهو بمرأى عينه ؟ ! » (١٦٧) .

وسهر يزيد بن المهلّب عند موسى ليلة ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! في كم تعدّ مواليك وأهل بيتك ؟ » . فقال موسى : « في كثير » ، فقال يزيد : « يكونون ألفاً ؟ » . فقال موسى : « وألفاً وألفاً إلى منقطع النّفس ! » ، فقال يزيد : « وأنت على ما وصفتَ . وألقيت بيدك إلى التهلكة ؟ ! أفلا أقمت في قرار عزّك وموضع سلطانك . وامتنعتَ بما قدمتَ به ؛ فإن أُعطيت الرضى وإلاّ كنت على عزّك وسلطانك » . فقال له : « والله لو أردتُ ذلك . لما نالوا من أطرافي طرفاً . ولكنني آثرت الله ورسوله ، ولم نرَ الخروج على الطّاعة والجماعة » (١٦٨) .

تلك هي أسباب استدعاء موسى وطارق من الأندلس إلى دمشق وعزلهما . وهنا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى . أخذها على موسى وطارق كلّ من الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك . فما علاقة طارق بمجمل تلك الأسباب ؟ .

---

(١٦٥) لاآلو جهداً : لا اقصر فيما لدى من الجهد والوسع ان ابذله في ارضائه عنك .

(١٦٦) الحين : الهلاك .

(١٦٧) نفح الطيب (١/٢٦٥) .

(١٦٨) البيان المغرب (٢/٢٥ ـ ٢٦) . وانظر ايضاً البيان المغرب (١/٤٢) .

لقد اتهم موسى بنزاهته ، فقيل : إنّه لم يخرج خُمساً من جميع مغانمه ، ولم يُتّهم طارق بمثل هذه التّهمة من أحد ، وليس هناك أيّ نص في المصادر يتهّمه . وقد كان موسى مسئوله المباشر ، وكان مولى موسى ، وكان في جيش طارق قبل عبور موسى إلى الأندلس ، مَن يرفع عنه أمره إلى موسى فلا يخفى من أمر طارق على موسى شيءٌ ، ولا نعلم أنّ موسى حاسب طارقاً على نزاهته أو شكّ في نزاهته .

وحين قدم طارق إلى دمشق مع موسى ، لم يُحاسب من الخليفة ولا من غير الخليفة على نزاهته ، ولم يتطرق الشك حوله من ناحية نزاهته إلى أحد من المسئولين أو إلى أحدٍ من غير المسئولين .

أما السَّبب الثاني ، وهو اتّهام موسى بالتّغرير بالمسلمين ، من وجهة نظر الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان بن عبد الملك، فـإنّ طارقاً يُشارك في هذه التهمة أيضاً ، إن لم تكن تهمته في التغرير أجسم من تهمة موسى بها وأضخم ، فقد تغلغل في الأندلس بالعمق ، وعرض جناحيه : الأيمن والأيسر ، لخطر التعرّض القوطيّ عليهما ، كما عرّض خطوط مواصلاته للخطر أيضاً ، مما حدا بموسى إلى العبور للأندلس ، لمعالجة الموقف الخطير الذي أصبحت قوّات المسلمين تتعرّض له في حينه ، فعالج موسى الموقف ، ورصّن وضع قوّات المسلمين ، وأبعد عنها الخطر الوشيك الداهم .

ولا يمكن تبرئة طارق من تهمة التّغرير بالمسلمين ، وسترد مناقشة ذلك في الحديث عن سماته القياديّة .

أما اتّهام موسى بالخلع ، وهو السبب الثالث ، فاتّهام باطل من أساسه ، وقد احترق به طارق كما احترق به موسى، باعتبار طارق أحد موالي موسى، ولم تكن تلك التهمة في الواقع إلاّ في خلد الخليفة ومَن يشايعه في ظنونه وأوهامه .

والحق أنّ موسى أصبحت له شعبيّة طاغية في إفريقيّة والمغرب والأندلس بخاصة ، وفي سائر بلاد المسلمين بعامة ، لفتوحاته العظيمة ، وانتصاراته الباهرة ، ولفضله وإحسانه على الناس مادياً ومعنوياً .

كما أصبحت لطارق شعبيّة طاغية في الأندلس وبين البربر بخاصة ، وفي إفريقيّة وسائر بلاد المسلمين بعامة . لفتوحاته العظيمة ، وانتصاراته الباهرة ، ولشجاعته الفذّة ، وإقدامه النادر .

والشعبية الطاغية ، إذا تحلّى بها قائد من القادة ، فإنّ ذلك لايُريح المسئول الأعلى ، ويجعله يخشى ذلك القائد ، ويظنّ به الظنون، ومن تلك الظنون اتّهامه بالخلع ، حتى ولو كان بعيداً عن التفكير بذلك، كما كان الحال بالنسبة لموسى وطارق .

وشعبيّة موسى الطّاغية . وشعبية طارق الطّاغية ، هي التي أدّت إلى سحبهما من الأندلس إلى دمشق . وحرمانهما من قيادتهما المنتصرة الموفّقة ، وحرمان الفتح من جهودهما المثمرة . حيث خافت الخلافة منهما على الخلافة . وخشيت الخلافة من إقدامهما على الخلع . وهما في بلاد قصيّة عن عاصمة الخلافة ، بعيدة عن مراكز قوتها ، بين رجالهما الذين يدينون لهما وحدهما بالولاء ، لأنّهم لا يعرفون غيرهما ، وهم يعيشون برخاء ونعمة بفضلهما .

ولكن الخلع لم يخطر على بال موسى ، كما لم يخطر على بال طارق ، فاحترق موسى بنيران تهمة هو بريء منها،واحترق طارق بنيران موسى ، بدون ذنب يستحّق عليه العقاب .

وأيّاً كانت أسباب حنق الوليد وسليمان على موسى ومولاه طارق ، فإنّ فاتحي الأندلس لم يلقيا الجزاء الحق ، بل غمط حقّهما وفضلهما ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنّها لم تقدّر البطولة في هذا

الموطن قدرها (١٦٩) . ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان ، أنّ موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية والمغرب وأوربا ، وسيطرته على تلك الاصقاع النائية سيطرة شخصيّة وبأولاده ومواليه وأتباعه ، وسيطرته في الأندلس كانت بطارق ، مما فسح المجال لتقوّلات خصوم موسى وحاسديه عليه وعلى أعوانه البارزين — وعلى رأسهم طارق .

ومن الواضح ، أنّ موسى — في حقيقة أمره — كان بعيداً كلّ البعد عن الاختلاس ، ولكنه كان كريماً جداً ، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي جعل الخلفاء يظنّون أنّه غررّ بالمسلمين وعرّضهم للأخطار ، إلاّ عن رغبته الأكيدة في الفتح ونشر رايات الإسلام ، مع تمكنّه وثقته الكاملة بقابليته وقابليّة رجاله على تحمّل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته ، فكان المسلمون في أمن ودعة لا في خطر وشدّة — كما حسب الخلفاء وتصوّروا . كما أنّ موسى لم يفكرّ أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة ، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسّكه والتزامه بها ، وشدّة ضبطه وابتعاده عن شق عصا الطّاعة ، والانزلاق في مهاوى الفتن والفرقة ، كلّ ذلك جعله بعيداً غاية البعد عن اتّهام خصومه وحاسديه له بالخلع أو الاستقلال الذاتيّ ، خاصة وأنّه كان في ذلك الوقت قد بلغ حوالي الثمانين من عمره ، وهي سنّ لا تشجّع مَن بلغها على المغامرة ، وتجعل من صاحبها إنساناً ذا تجربة وخبرة ، بعيد النظر ، مقدّراً لعواقب الأمور .

لقد ذهب موسى ومعه طارق ، ضحيّة الدّس والحسد ، فخسر العرب والمسلمون بتنحيتهما بطلين من ألمع أبطالهم ، وفاتحين من أعظم فاتحيهم ، ورجلين من أنبغ رجالاتهم ، وقائدين من أبرز قادتهم ، وكانت تنحيتهما

(١٦٩) دولة الاسلام في الأندلس (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩) .

نكسة قاصمة للفتح الإِسلامي في الأندلس وأوربا (١٧٠) .

وقد بقي في الأندلس ، جيوب من القوط ، لم يتمّ القضاء عليها نهائيا ، ولوبقي موسى وطارق لقضيا عليها قضاءً مبُرما . وهذه الجيوب من بقايا القوط ، هي التي نمت وانتعشت واستردّت الأندلس من المسلمين بعد حين ، كما هو معروف .

ولو بقي موسى وطارق في الأندلس ، لأصبح فتح الأندلس فتحاً مستداما ، كفتوح البلاد والأمصار الأخرى .

ولكن ، هل خسر العرب والمسلمون موسى وطارقاً وحدهما نتيجة للدس والحسد؟؟!!

لقد خسروا من أمثالهم الكثير .

٢ ـ الرّجل

كان طارق مع موسى بن نُصَير في رحلته الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، وقد احترق طارق بنار موسى كما ذكرنا ، فسحب من قيادته في الأندلس، وأصبح مع موسى رجلاً بلا غد . له رصيد في الفتح وتاريخ، ولكن السُّلطة تخلّت عنه إلى الأبد .

وقد تُوفي موسى سنة سبع وتسعين الهجرية (١٧١) (٧١٨م) وهو في الحج برفقة الخليفة سليمان بن عبدالملك (١٧٢) ،وكانت وفاة موسى بوادي القُرى (١٧٣) . ولم يعد من حجّه إلى دمشق .

---

(١٧٠) قادة فتح المغرب العربي (١/٢٨٦) .

(١٧١) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (٢/١٤٤) وجذوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتمس (٤٤٢) والحلة السيراء (٢/٣٣٤) والعبر (١/١١٥ ـ ١١٦) وشذرات الذهب (١/١١٣) ونفح الطيب (١/٢٥٤) .

(١٧٢) الأمامة والسياسة (٢/١٠١) .

(١٧٣) وادي القرى : واد بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة ، كثير القرى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٧٥) .

ولا ندري هل كان طارق مع موسى في رحلة حجّه، أم بقي في دمشق، كما لاندري أبقي في دمشق بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا، أم رحل طارق إلى إفريقية أو الاندلس .

وعلى كلّ، فكان لطارق عَقِب لهم ذكر في الأندلس، وكانوا ينكرون ولاء طارق لموسى إنكاراً شديداً(١٧٤)، ويذكر قسم منهم أنّه من قبيلة صَدِف العربيّة من حَضرَمَوْت ، ويذكر قسم آخر أنّه من موالي قبيلة صَدِف وليس بمولى موسى بن نصير . كما يذكر قسم منهم، أنّ طارقاً من بني ليث من قُضَاعة (١٧٥)، كما ذكرنا ذلك في الحديث على: نسبه وأيامه الأولى، فلا ندري هل عاد طارق إلى الأندلس بعد موت موسى ، أم رحل إليها عقبه ، أو رحل إليها قسم منهم ، ومتى ؟

ومن المرجّح أنّ عقبه هم الذين رحلوا إلى الأندلس، لأنّ طارقاً لو رحل إليها لذكر رحيله المؤرخون ، ولما سكتوا عنه .

ومن الواضح ، أنّ طارقاً نفزاويّ من البربر ومن إفريقية، كما ذكرنا ذلك من قبل ، ولم يدّع أنه عربي ، ولكنّ مَن جاء بعده من ولده ادّعى ذلك .

وقد ولد مسلماً، إذ كان أبوه وجدّه مسلمين، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الإسلام ، إذ أسلم والد طارق أيام عُقبة بن نافع ، والتحق طارق بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان إذ ذاك صغير السن ، ولكنه كان يتمتع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الإسلامي ، جعله من أشد المقربين إلى موسى ابن نُصير(١٧٦). ولانعلم بالضبط متى تم اتصال طارق بموسى ولا بمكانه،

(١٧٤) نفح الطيب (١/٢٥٤) برواية الرازي .
(١٧٥) انظر : نفح الطيب (١/٢٥٤) برواية الرازي و (١/٢٣٩) واخبار مجموعة (٦) .
(١٧٦) الشيخ محمد ابو زيد طنطاوي ــ فتح العرب للاندلس ــ مجلة الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ ــ ٤٤) ــ العدد الثاني ــ السنة العاشرة رمضان ١٣٩٧هـ ــ مؤسسة مكة للطباعة والأعلام .

ولكننا نعلم أنه ولاّه مقدمته في فتح مدينة طنْجَة ، فلما فتحت هذه المدينة ولاّه موسى على إدارة وقيادة هذه المدينة ، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب لنشر الإسلام بين البربر (١٧٧) .

وقد ظهر اسم طارق لأول مرة ، بعد خروج موسى من القيروان لفتح مدينة طنجة ، فولاّه موسى مقدّمته ، مما يدلّ على تبادل الثقة بين موسى وطارق ، ولا تكون هذه الثقة إلاّ نتيجة لتجربة عملية طويلة ، نجح فيها طارق بالنسبة لموسى ، فحصل على ثقة موسى الكاملة به ، فولاّه قيادة مقدّمته ، فهل كانت هذه التجربة التي نجح فيها طارق في إفريقية والغرب حسب ، وقد مكث موسى فيها سنوات قليلة ، أم أنّ هذه التجربة سبقت قدوم موسى إفريقية والمغرب ، واستمرّت بعد ذلك في إفريقية والمغرب ؟؟

والجواب على ذلك صعب ، لأنّ المصادر المعتمدة لا تيسِّر الجواب الواضح . إذ لا نصوص تدل عليه أو تشير إليه ، فمثل هذه الثقة لا تتكون بسهولة وسرعة ، فمن المحتمل أنّ طارقاً اتصل بموسى في مصر قبل توليه إفريقية والمغرب ، وليس ذلك ببعيد الاحتمال ، ولكن لا دليل عليه من النصوص المتيسرة في المصادر المعتمدة .

على كلّ حال ، نجح طارق إدارياً في ولايته على طنجة ، فقد أصبح موثوقاً به من البربر بخاصة ومن أهل المدينة بعامة ، وأصبح موضع حبهم وولائهم . وقد تخطت شعبية طارق حدود ولايته إلى ما جاورها من الولايات ، فكان سبباً من أسباب استمالة يليان إلى المسلمين ، مهما تكن الأسباب الأخرى ، فاتصل يليان بطارق ، وكان طارق صلة ارتباط يليان بموسى

(١٧٧) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغرب (٢٠٤ ـ ٢٠٥) وابن الاثير (٥٤٠/٤) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) .

ابن نصير ، وسبباً من أسباب تسليم سَبْتَة للمسلمين سلماً بدون قتال ، ومعاونة يليان وتعاونه مع المسلمين في فتح الأندلس ، كما ذكرنا ذلك .

ولا مجال للشك ، في أنّ إتصال يليان بطارق وموسى ، وتسليم سبتة للمسلمين سلماً ، بعد أن استعصى عليهم فتحها بالقتال ، وتعاون يليان مع المسلمين ومعاونته لهم في فتح الأندلس ، كان حسنة من حسنات طارق ، تُعرف له وتُذكر بالشكر والعرفان .

كما كان التفاف البربر حول قيادته في طنجة أولاً ، وفي الأندلس ثانيا ، دليلاً على تمتعه بالخلق الكريم .

ولا أحد يدري أين ولد طارق ، ولا أيامه الأولى قبل اتصاله بموسى ابن نصير ، ولا أيامه بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا إلى جوار ربه . ولا يعرف أحد عن عدد اولاده وأسمائهم ،و متى جرى رحيل بعضهم أو رحيلهم إلى الأندلس ، ولا يدري أحد هل رحل أولاد طارق إلى الأندلس ، أم رحل أعقابهم ، كلّ ذلك غير معروف . كما لا يدري أحد متى مات وأين مات ، وكم كان عمره يوم تُوفي .

وقد ذكرنا نص خطبة طارق في رجاله ، قبل أن يخوضوا المعركة الحاسمة ، معركة وادي لَكُّهْ ، وتروى لطارق كذلك أبيات من الشعر ، لا بأس من ذكرها هنا ، وهي :

ركبنا سَفِيناً بالمجاز مُقَيَّراً
عسى أن يكون اللهُ مِنّا قد اشترى
نُفُوْساً وأموالاً وأهلاً بِجَنَّةٍ
إذا ما اشْتَهَيْنَا الشَّيْءَ منها تَيَسَّرَا

ولسنا نُبالي كيف سَالَتْ نُفُوسُنا

إذا نحن أدركنا الذي كان أَجْدَرا

وهذه الأبيات مما يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلوّ طبقتها(١٧٨) .
وهي ليست من الشعر البليغ ، ولكنّها من النّظم الموزون المقفّي ، وهي إن دلّت على شيء ، فإنما تدلّ على إيمان طارق العميق بالإسلام ، ومبلغ حبّه للجهاد في سبيل الله واستعداده للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله بالمال والنفس والأهل ، ومن الواضح أنّ هذه الحماسة الدينيّة لطارق ، كانت وراء اندفاعه الشديد في طريق الفتح .

وهذه الأبيات . في معانيها مقتبسة من قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمْ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلونَ في سَبيْلِ اللهِ فَيَقْتُلُوْنَ ويُقْتَلُوْنَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والانِجيلِ والقُرْآنِ ، ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ من اللهِ ، فاستَبْشِروا بِبَيْعِكُمْ الذي بايَعْتُمْ به . وذلك هوَ الفَوْزُ العَظِيْم) (١٧٩) .

« وكان طارق حسن الكلام . ينظم ما يجوز كتبه »(١٨٠) ، إنّه كان بليغ العبارة في نثره . قوي الأسلوب . متين التراكيب ، كما يشهد على ذلك خطابه التاريخي ، وإنّه كان ينظم الشعر ، ومهما قيل في ضعف شعره وقلّته . فإنّ نثره وشعره يدلان على معايشة العرب معايشة طويلة ، فلا يُستبعد أن يكون قد رحل إلى مصر أو بلاد الشّام أو كان مع موسى في البصرة يوم كان هناك . ولكن لا دليل يثبت تلك المعايشة إلاّ نثره ونظمه ، وقد

---

(١٧٨) انشد في المسهب وابن اليسع في المعرب لطارق من قصيدة قالها في الفتح ، انظر نفح الطيب (١/٢٦٥) .

(١٧٩) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١١) .

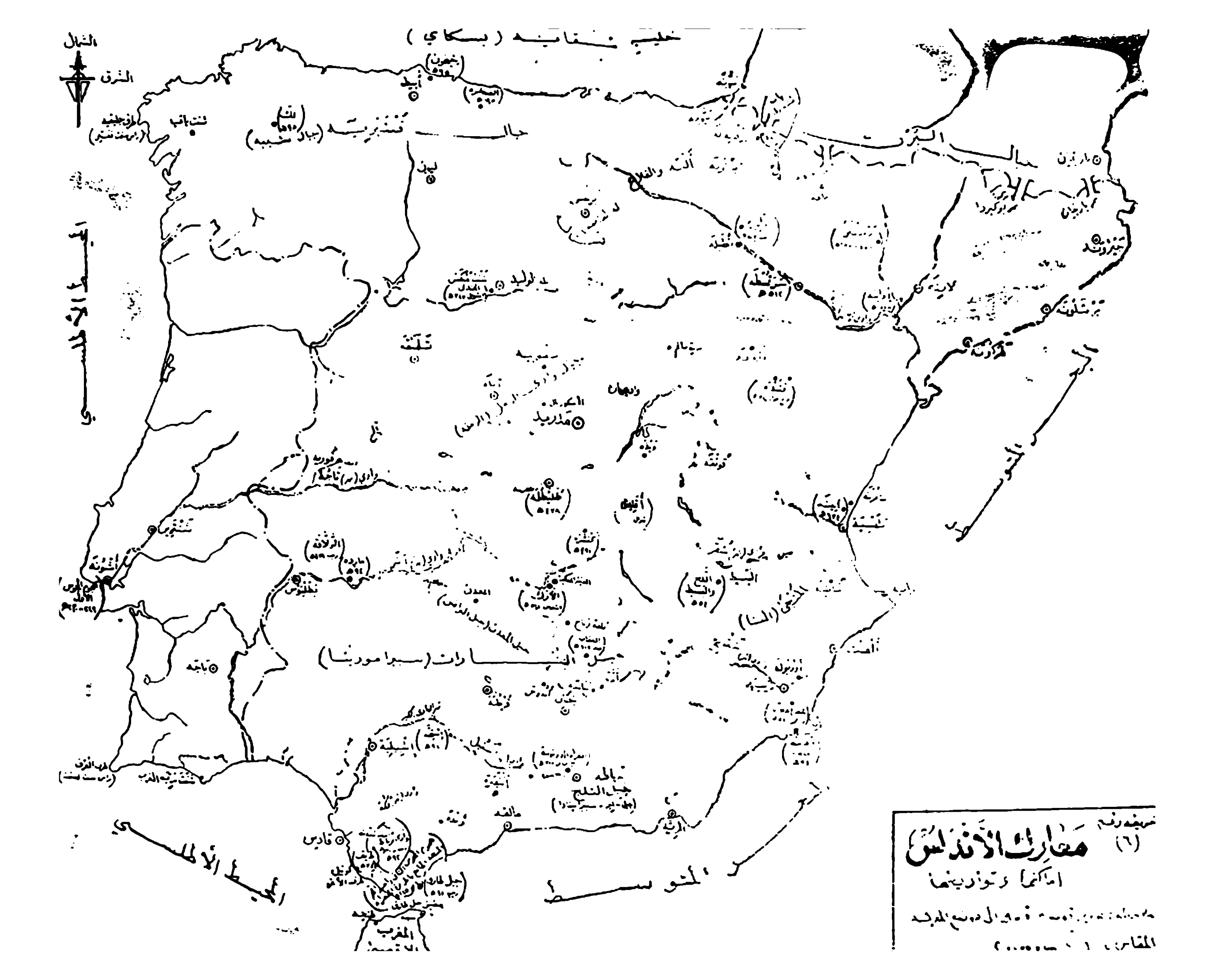
(١٨٠) نفح الطيب (١/٢٣١) برواية ابن بشكوال .

تكون تلك المعايشة تمَّتْ في إفريقية مثـلا (تُونس) في إحـد حواضرها كالقيروان ، التي كانت يومذاك تعج بالعرب الفاتحين وأبنائهم وذويهم ومواليهم.

ومن ثقة موسى به قائداً وإنساناً ، وثقة البربر به ومحبتهم له واعتمادهم عليه : « لو أمر أهلها بالصّلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ، ولم يروا أنّهم كفروا » (١٨١) ، وعدم اتهامه بنزاهته ، يمكن أن نستنتج ، أنّه كان مسلماً حقّاً ، قويّ الإيمان ، راسخ العقيدة ، مجاهدا صادقاً ، قويّاً أميناً ، نزيهاً لم يتلوّث بمال حرام ، ولم يخلّف درهماً ولا ديناراً ، ولا داراً ولا عقارا ، دمث الأخلاق ، حليماً كريماً سخيّاً ، محبّاً للناس محبوباً منهم ، شهماً غيورا .

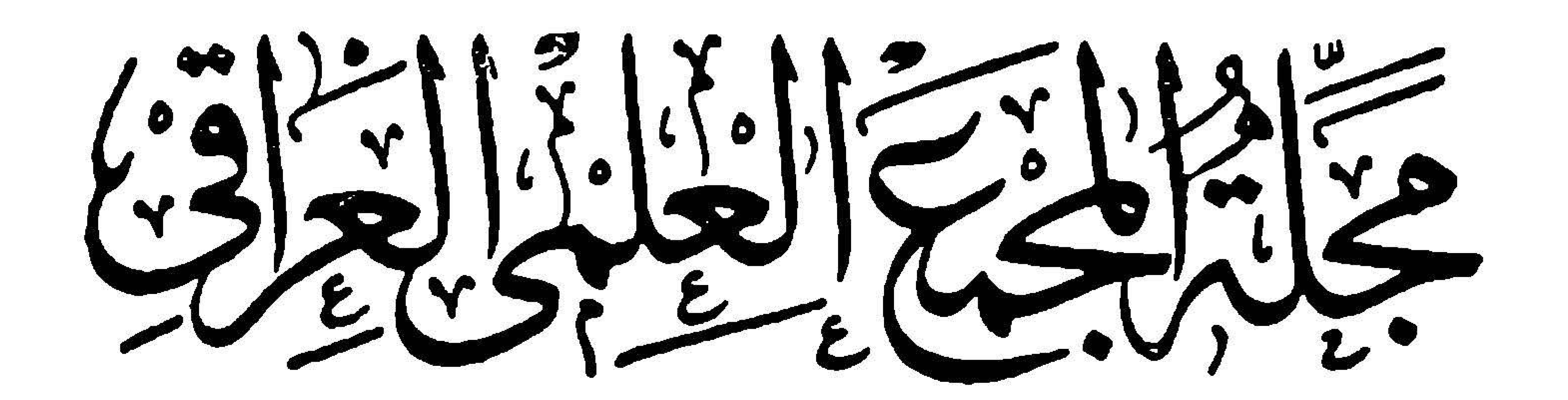
ولا أعرف قائداً فاتحاً ، له في تاريخ الفتوح ما لطارق في تاريخ الفتوح ، بخل عليه التاريخ إنساناً كما بخل على طارق الإنسان ، فاقتصر تاريخه على مجده في الفتح ، وهو مجد عظيم ، دون أن يشمل تاريخه إنسانا ، وقد عوّض عليه مجده في الفتح ما فاته إنسانا ، وحسبه ما فتح عوضا مجزيا .

(١٨١) نفح الطيب (١٢/٤) .



مصورة رقم (٦)
معارك الأندلس
أماكنها وتواريخها
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
خليج غسقونية (بسكاي)
جبال البرت
جبال قنتبرية
الشمال
الشرق
مدريد
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
قادس
بلنسية
سرقسطة
برشلونة
طركونة
لشبونة
باجة
بطليوس
المرية
المغرب
جبال الشارات (سيرا مورينا)
جبل الثلج

الفهرست





الجزء الثالث ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــــداد

المحرم الحرام ١٤٠٩هـ ـ ايلول ١٩٨٨م

طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب
(عضو المجمع)

ـ ٣ ـ

القائد

١ ـ سماته القيادية عامة :

يتميز طارق على من سبقه من قادة الفتح الإسلامي ، وعلى مَنْ عاصره منهم ، بأنّه أوّل قائد غير عربيّ تولّى منصب القيادة ، في دولة تختار قادتها من العرب المسلمين ، ولا تولّي القيادة مسلماً غير عربيّ ، بل ينبغي أن يكون القائد عربياً مسلماً .

كما تولّى طارق القيادة ، وهو غير عربيّ ، على قادة من العرب ، عملوا بإمرته وتحت لوائه دون تردّد ولا تذمّر .

لقد كان طارق من البربر ، تولّى قيادة جيش من جيوش المسلمين لفتح الأندلس ، على عهد الوليد بن عبدالملك ، أحد خلفاء بني أميّة وأكثرهم فتحا ، وكانت الدولة الأمويّة تلتزم العرب وتتعصّب لهم ، فلا تُولّي القيادة إلاّ مَن كان عربياً أصيلا . ولم يسبق أن تولّى منصب القيادة منذ جاء الإسلام وبدأ الفتح الإسلامي ، إلى أيام طارق ، إلاّ عربيّ مسلم أصيل .

بل لم يتسلم طارق هذا المنصب الرفيع في القيادة حسب ، بالرغم من نسبه إلى غير العرب ، فقد أصبح أيضاً قائداً على عدد من القادة العرب المسلمين

في الأندلس ، كانوا مع المدد البالغ تعداده خمسة آلاف مجاهد ، الذي أمدّ بهم موسى بن نُصَيْرْ طارقاً (١٨٢) ، فعمل هؤلاء القادة العرب بقيادة طارق ، وساروا بإمرته ، وخضعوا لسلطته ، ونفّذوا أوامره ووصاياه دون تردّد .

بل لم يكن العربيّ المسلم ، ليتولّى منصب القيادة ، في عهد الدولة الأُمويّة ، إلاّ إذا كان عربياً أصيلاً لا من قوارير . ذا حَسَب ونسب ، رئيساً على قبيلته ، أو من بين أفراد عائلة ذلك الرئيس . ولكن ليس كلّ رئيس قبيلة يتولّى منصب قيادتها وقيادة غيرها من القبائل والشعوب الإسلامية الأخرى ، ولا كل فرد من أفراد عائلة رئيس القبيلة يتولّى منصب القيادة ، فهذا المنصب يتوّلاه رئيس القبيلة أو أحد أفراد عائلته ، إذا اتّسم بسمات قيادية معيّنة تُؤهّله للقيادة ، أما الذي لا يتّسم بتلك السِّمات ، فلا يتولّى القيادة ، ويتولاّها مَن يتّسم بها من أفراد عائلة رئيس القبيلة ، لأنّ القائد الذي لا كفاية له ، يقود رجاله إلى الموت والهزيمة ، ولا يقودهم إلى السّلامة والنّصر ، ولا أحد يُولّى مَن لا كفاية له ، ولا أحد يتولّى القيادة بلا كفاية ، وبخاصة في أيام الحرب وفي ميادين القتال .

لقد كانت القيادة ، في تلك الأيام ، يتولاّها : العربيّ المسلم أولا ، والعربيّ الأصيل ذو الحسب والنسب ثانيا ، وذو الكفاية العالية في القيادة ثالثاً وأخيراً .

كان خالد بن الوليد – مثلاً – من بني مخزوم ، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش ، انتهى إليها الشّرف قبل الإسلام (١٨٣) ، فكان في بني مخزوم القُبَّة وأعِنَّة الخيل ، أما القُبَّة فكانوا يضربونها يجمعون فيها

(١٨٢) أخبار مجموعة (٧) .

(١٨٣) هم : بنو هاشم ، وبنو نوفل ، وبنو أمية ، وبنو عبد الدار ، وبنو تيم ، وبنو أسد ، وبنو مخزوم ، وبنو عدى ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، انظر سيرة ابن هشام (١٤٣/١ – ١٤٤) .

ما يجهّزون به الجيش ، وأما الأعنّة فهي قيادة الفرسان في الحروب (١٨٤) ، وكان أبوه الوليد ذا مكانة مرموقة بين سادات قريش ، فهو عدلها يكسو الكعبة عاماً ، وتكسوها قريش بأجمعها عاماً آخر (١٨٥) ، لشرفه ورجاحة عقله واتزانه ، لذلك تيسّرت تلك الشروط لخالد في أنه عربيّ أصيل ذو كفاية قيادية عالية ، ، فتولّى القيادة ، لأنه تميّز على آل بيته وأهله بالكفاية القيادية العالية ، فتولّاها دونهم ولم يتسنّمها غيره من إخوته وذوي قرباه .

وما يُقال عن خالد ، يقال عن غيره من القادة ، فكلّهم من العرب المسلمين ، ذوي الحسب والنسب والكفاية القيادية المتميِّزة ؛ حتى جاء طارق، فكان أوّل قائد من غير العرب ، فما الذي حمله إلى القيادة حَمْلا ولم يكن عربيّاً أصيلا ؟ ما الذي جعل القيادة تسعى اليه ، وهو من البربر؟

لابّد وأن تكون لديه مزايا قياديّة فذّة ، مهّدت له الطريق لتولّي القيادة ، وتغلّبت على العقبات التي كانت تحول بينه وبين أمثاله من غير العرب ، لتولّي القيادة في تلك الأيام من عهد بني أُميّة في التاريخ الإسلامي العريق .

فما هي مجمل تلك المزايا ؟

لم يأخذ موسى حشوداً من العرب المسلمين معه إلى إفريقية والمغرب ، فقد سار من مصر مصحوباً ببعض المتطوِّعين من رجال القبائل العربيّة هناك (١٨٦)، واعتمد في فتوحه على العرب والبربر الموجودين في إفريقية والمغرب ، ولم يكن تَعداد العرب المسلمين بالنسبة إلى تَعداد البربر المسلمين الذين يتزايدون يوماً بعد يوماً شيئاً مذكوراً ، فكان العرب المسلمون أقلية والبربر المسلمون أكثرية ، ولا مجال لموسى إلاّ في التعاون مع البربر المسلمين ، فاستعان بهم ،

---

(١٨٤) أسد الغابة (٢/٩٣) والاستيعاب (/٢٧) .
(١٨٥) أنساب الأشراف (١/٦٠) والسيرة الحلبية (١/٣٤٧) .
(١٨٦) اخبار مجموعة (٣ ــ ٤) ونفح الطيب (١/٢٣٠ و ٢٥٠) .

فتمكّن من توسيع نطاق فتوحاته، لتشمل من القيروان إلى المحيط الأطلسي(١٨٧) :

وبعد أن أخضع موسى القبائل البربريّة في إفريقية ، قرّر أن يبذل جهوداً فعّالة لافتتاح المغرب ، فأرسل ثلاث حملات : قاد الأولى بنفسه(١٨٨)، وقاد الحملتين الثانية والثالثة قائدان مرءوسان من قادته (١٨٩) ، فنجح موسى في محاولاته الثلاث نجاحاً باهراً ، أرضى بها كلاّ من عبدالعزيز بن مروان والي مصر ومسئوله المباشر ، والخليفة في دمشق ، اللّذين أبديا إعجابهما بحملاته الناجحة وكثرة ما حمله إليهما من غنائم (١٩٠) .

وفي الحملة الناجحة التي قادها موسى ، من هذه الحملات الثلاث ، زحف موسى مصحوباً بطارق على مقدّمته إلى طَنْجَة ، ففتحها ، ثم توغّل جنوباً ففتح مناطق واسعة جداً ، وكان توغله ناجحاً للغاية . وقد امتازت تلك الحملات التي قام بها موسى وقائداه ، بضراوة شديدة ، ولكن ما إن يعتنق البربر الإسلام ، إلاّ ويُقرّ الفاتحون زعماءهم في الرئاسة ، مقابل مساهمة كلّ قبيلة بربريّة بعدد كاف من المجاهدين ، للانضمام إلى جيش المسلمين ؛ فاستطاع موسى أن يجنّد أعداداً هائلة من مختلف قبائل البربر ، مثل : كُتَامَة ، وهَوَّارة ، وزَنَاتة ، ومَصْمُودَة (١٩١) ، فوحّد موسى هؤلاء المجاهدين الجُدد من البربر ، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة بقيادة طارق

(١٨٧) cf. p. Guichard, Al-Andalus. p. 284.

(١٨٨) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (١١٧ ـ ١١٨) والبيان المغرب (٤١/١) .

(١٨٩) البيان المغرب (٤١/١ ـ ٤٢) وابن خلدون (٤٠٢/٤) .

(١٩٠) ابن حبيب (٢٢٤) وفتح مصر والمغرب (٢٠٣ ـ ٢٠٤) وفتح الاندلس (١٢) والرسالة الشريفية (١٦٥) والنويري (٢٢/٢٢ ـ ٢٣) .

(١٩١) البيان المغرب (٤٣/١ ـ ٤٤) وعبيد الله بن صالح ـ تحقيق بروفنسال (٢٢٤) .

الذي عينّه حاكماً على هذه المدينة في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) ؛ ولم يُبْقِ مع طارق إلاّ القليل من العرب المسلمين ، الذين كانت مهمّتهم نشر تعاليم الإسلام بين البربر (١٩٢) ، وغادر الجيش الإسلامي بقيادة موسى إلى القيروان ، حيث استقرّ موسى ومَن معه هناك ، وبقي طارق وجيشه البربريّ في طنجة قائداً وواليا .

ومنذ ذلك الوقت ، تمت سيطرة موسى بن نُصَيْر على الشّمال الإفريقي أي سيطرة الدولة الإسلاميّة ، على تلك المناطق النائية ، بعد سبعين سنة من الاقتتال بين الفاتحين المسلمين وبين البربر ، وهي المنطقة الكائنة بين بَرْقة(١٩٣) على الحدود اللِّيبية المصريّة والمحيط الأطلسي . وما كان موسى ليستطيع تحقيق هذه السيطرة الكاملة ، لولا تطبيق روح الإسلام في السير على سياسة التعاون والاندماج بين العرب المسلمين والبربر المسلمين ، وكان بإمكان أسلاف موسى أن يحققِّوا النصر في تلك الأصقاع النائية بوقت أقصر لو اتبعوا منذ البداية سياسة أبي المهاجر (١٩٤) دِيْنَار الإيجابيّة في هذا المجال (١٩٥) .

ومن الواضح ، أنّ أول مزيّة من مزايا قيادة طارق ، التي أهّلته لتولّي منصبه القيادي ، هي أنّه بربري ، فقد كان السّواد الأعظم من جيشه والأغلبية المطلقة من البربر المسلمين ، وكان العرب المسلمون في طنجة أقليّة

---

(١٩٢) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغرب (٢٠٤ – ٢٠٥) وذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ج) ص (٨٣ – ٨٤) وابن الأثير (٥٤٠/٤) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) والبيان المغرب (٤٢/١) والنويرى (٢٢/٢٢) وابن خلدون (٤٠٢/٤) و (٢٢٠/٦ و ٤٣٧) ونفح الطيب (٢٣٩/١) والسلاوى (٩٦/١) .

(١٩٣) برقة : اسم صقع كبير ، يشتمل على مدن وقرى بين الأسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها : انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٢) والمسالك والممالك (٣٢) .

(١٩٤) أبو المهاجر دينار : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربى (١٣٧/١ – ١٤٩) .

(١٩٥) الفتح والاستقرار العربى الأسلامى في شمال افريقيا والأندلس (١٤٣) .

مطلقة أيضاً ، يقتصر واجب رجالها على الدعوة إلى لله ، فهم من الدعاة لا من القادة ، فرأى موسى أن يولّي طارقا على قومه البربر المسلمين ، فهو منهم وإليهم ، يعرف آمالهم وآلامهم ، ويستطيع التّفاهم معهم وحلّ مشاكلهم ومعالجة معضلاتهم بسهولة ويسر ، وهو أقدر على قيادتهم وإدارتهم من عربيّ مسلم غريب عنهم ؛ كما أنّه قادر على التأثير في نفوس البربر ، لأنّه ليس غريباً عنهم ، ويتقبّلون التّعامل معه أكثر مما يتقبلون التعامل مع قائد أوإداري غريب عليهم ، يشعرون أنّه سيّدهم وهم تَبَع ه وأنه مفروض عليهم ، بعكس شعورهم بالنسبة لقائد أو إداري من البربر ، يشعرون أنّهم أنداد له ، وهو ليس مفروضاً عليهم ، بل من أبنائهم .

ولكن مزيته البربرية وحدها لا تكفي لتولّي القيادة ، فيبدو أنه كان مؤمناً صادقاً ، حَسُنَ إسلامُه ، وأصبح ولاؤه للإسلام وتعاليمه ؛ وبذلك رضى الدعاة العرب أن يعملوا معه وبإمرته وإدارته وتوجيهه ، ولولا ذلك لرفضه البربر المسلمون والدّعاة العرب في مثل تلك الأيام في أيام الفتح والجهاد والدّعوة إلى الله .

وقد ولّاه موسى على مقدّمته في حركته لفتح طنجة ، وقد كان موسى من ألمع قادة الفتح الإسلامي ، ولا يمكن أن يولّي على مقدّمته إلاّ مَن كانت له سمات قيادية متميزة ، لأن المقدّمة مسئولة عن أمن سائر الجيش ، ومسئولة عن الحصول على المعلومات عن العدو والأرض . ، وهي التي تُيَسِّر تقدّم الجيش إلى أمام بسهولة وانطلاق ، ومسئولة عن منع العدو من الحصول على المعلومات عن جيش المسلمين ، لئلا يستفيد من تلك المعلومات في ضربه وعرقلة تقدّمه في المكان والزمان الجازمين ، وهي مسئولة عن تطهير الطريق ليتقدّم الجيش بسرعة واندفاع ، ولا يمكن أن ينهض بهذه المسئوليات إلاّ قائد متميز .

والذي يبدو ، أنّ موسى ، جرّب طارقاً ، في مسيرته الطويلة الشاّقة ، من القيروان إلى المحيط الأطلسي . فأثبت طارق أنّه جدير بالثقة ، فولاّه موسى على مقدّمته أولاً . فكانت أوّل الغيث ، ثمّ انهمرت عليه المناصب بعد ذلك (١٩٦) .

وقد كان موسى على صلة وثيقة بطارق ، لأنّ طارقاً هو مولى موسى ، ومن مواليه المقرّبين . ولكنّ موسى لم يُقْدِم على تولية طارق القيادة ، لأنّ طارقاً مولاه ، فليس هناك مَن يولّي القيادة في أيام الحرب مَن لا يستحقّها ، حتى ولو كان ابنه أو شقيقه ، ولا يُولّي في مثل تلك الظروف غير ذوي الكفاية القيادية العالية من القادرين على تحمّل أعباء القتال وقيادة الرجال ، لأنّ مَن يُولِّي منصباً قيادياً في أيام الحرب مَنْ لا تتوفر فيه الكفاية والمزايا القيادية المطلوبة . تكون العاقبة الوخيمة هزائم واندحاراً وخسائر فادحة عليه ، وعلى جيشه وعلى القائد الذي تولّى القيادة اعتباطاً وعلى الأمة والبلاد ، ولا يمكن أن يقع في مثل هذا الخطأ الشنيع قائد متميِّز مثل موسى ولا أيّ قائد آخر .

إنّ مفتاح مزايا قيادة طارق . هو أنّه كان المثال الشخصيّ لرجاله في الشّجاعة والإقدام ، فهو لا يكتفي بإصدار الأوامر لرجاله ، بل هو أوّل مَن يبدأ بتنفيذها على نفسه . بشكل يكون فيه أسوة حسنة للذين يعملون معه ، إن استطاعوا .

ولم يكن طارق من القادة الذين يقودون رجالهم من الخلف ؛ يُصدر أوامره إليهم . ويطالبهم بتنفيذها . ثم يقبع هو في الخلف آمناً مطمئناً بعيداً عن الخطر . إنّه من القادة الذين يقودون رجالهم من الأمام : يُصدر أوامره إلى رجاله . ويقول لهم اتبعوني . وافعلوا ما تروني أفعل . ثم يكون القدوة لرجاله في الشّجاعة والإقدام . والتّضحية والفداء .

(١٩٦) نفح الطيب برواية الرازى (٢٥٤/١) .

كان يُتْعِب نفسه ، أكثر مما يُتعب رجاله ، فكان لا ينام ولا يُنيِم .

ولكي تتّضح سمات طارق القيادية ، لابدّ من ضرب الأمثال ، لكي نستنتج منها تلك السمات بوضوح وجلاء .

حين أصبح المسئول عن فتح الأندلس ، أعدّ خطّة الفتح المفصّلة ، وبدأ بتنفيذ مراحلها في رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب ــ أيلول ــ أغسطس ــ سبتمبر ٧١٠ م) ، وذلك بإرسال حملة استطلاعيّة بقيادة أبي زَرْعة طريف بن مالك المعافري ، مؤلفة من أربعمائة راجل ومائة فارس .

ونجحت مهمة طريف الاستطلاعية نجاحاً باهراً ، فقرّر طارق أن يقود الحملة المقبلة تنفيذاً لمراحل خطة الفتح .

لقد كان طارق قائداً يبدأ أعماله بالاستطلاع المفصّل ، ليكون على بيِّنةٍ من أمره ، ولا يخطو خطوة إلاّ بعد جمع المعلومات الضرورية : بالاستطلاع ، فلا يضع خطوته إلاّ في موضع أمين ، واضح المعالم غير مجهول التفاصيل ، فهو يعمل دائماً بالنور ، ولا يعمل أبداً في الظلام ، وتلك سمة مهمّة من سمات القائد الحصيف

وفي عملية عبور جيش طارق من مدينة سَبْتَة إلى برّ الأندلس ، برزت ثلاث سمات من سمات قيادته : الأولى : استئثاره بالخطر لحماية رجاله وإيثارهم بالأمن ، والثانية : حرصه الشّديد على أرواح رجاله ، والثالثة : المبالغة في بذل جهده للاطمئنان على سلامة العملية في الأنزال ، والتأكد من إكمال عبور رجاله كافة كما ينبغي دون تخلّف بعضهم عن العبور ، وإنجاز عمليّة العبور بدون خسائر تذكر مادّياً ومعنوياً .

فقد أبحر طارق من سبتة على رأس الوجبة الأولى من رجاله ليلاً ، وجرى إنزال رجاله في مكان وَعْرٍ من الشّاطىء الأندلسي ، وسهّل عملية الإنزال باستخدام المجاذيف وبراذع الخيل التي أُلقيت على الصّخور لتلافي

خطرها على رجاله ، فتمكّن طـارق من إنزال هذه الوجبة من رجاله على الشاطىء بصورة مفاجئة دون أن يراه أحد من العدو (١٩٧) .

ولما اطمأن طارق إلى سلامة هذه الدُّفعة من رجاله ، عاد بالسُّفن الفارغة إلى البرّ الإفريقي في سبتة ، وحمل الدُّفعة الثانية من رجاله على السفن ، وعاد بهم إلى البرّ الأندلسيّ ، حيث جرى إنزالهم ، حتى قال بعض المؤرخين : إنّ طارقاً كان آخر مَن عبر إلى الأندلس (١٩٨) ، وهذا صحيح ، فقد عبر مع الدفعة الأولى ، ثم عبر مع الدفعة الثانية ، وبذلك اطمأن إلى عبور آخر رجل من رجاله بسلام ، فقد أبحر طارق مع أول جماعة ، وأخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية ، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لكي تعود ببقية رجاله (١٩٩) ، وما أخفى طارق نفسه في الجبل إلى النهاية ، بل عاد ليرافق الجماعة الثانية من رجاله ، إذ قاد فعلاً المجموعة الأولى إلى الشاطىء الأندلسيّ ، ولكن ما أن هبطت تلك المجموعة بسلام ، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة لكي يُشرف على بقية العمليّة ، ومن ثـمّ أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال (٢٠٠).

وكان تعداد رجال طارق الذين جرى إنزالهم في هذه المرحلة سبعة آلاف رجل . وهم الذين عبروا المضيق مع طارق . وتضمّ المجموعة الأخرى خمسة آلاف رجل ، وهم الذين أُرسلوا فيما بعد مَدداً لطارق من قِبَل موسى بن نُصَيْر (٢٠١) . وضمّت الحملة سبعمائة رجل من السُّودان (٢٠٢)

(١٩٧) ابن الكردبوس (٤٦) والبيان المغرب (٢/٩) .
(١٩٨) ابن الشباط (١٠٦) والبيان المغرب (٢/٩) برواية الرازي ، ونفح الطيب (١/٢٥٤) .
(١٩٩) فتح مصر والمغرب (٢٠٥ ــ ٢٠٦) .
(٢٠٠) الفتح والاستقرار العربى الأسلامى في شمال افريقيا والأندلس (١٦٤) .
(٢٠١) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٣١ ــ ٢٣٢) واخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٤/٥٦١ ــ ٥٦٣) .
(٢٠٢) ذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ ج ص ٨٤) وفتح الأندلس (٥) .

وهذا يُظهر لنا ، أنّ طارقاً من أولئك القادة الذين يُقدمون على إنجاز ما يُكلَّفون به من مهمات عسكرية بكلّ عزم وبدون تردّد ، دون خلق المعاذير أو اختلاقها للتملّص من تحمل المسئولية ، والتهرّب من الأخطار المتوقّعة . ومن الواضح ، أنّ تقبّل طارق مهمة العبور للفتح ، بقوّة لا تزيد على سبعة آلاف رجل فقط ، لفتح بلاد واسعة ، لها ملك ونظام راسخ وجيش عريق ، يمكن أن يعدّ من طارق حبّاً للمسئولية ، كما أنّ الإقدام على تنفيذ الأوامر الصّادرة إليه من مرجعه بدون تردّد وبشجاعة ، دليل على تمتّع طارق بحبّ المسئولية ، وهي سمة من سمات القادة الكبار ، ودليل على تمتّعه بالشجاعة ، وبالضبط المتين ، والشجاعة والتحلّي بالضبط المتين من سمات القادة الكبار أيضا .

وبهذه المناسبة ، فإنّ القادة العسكريين ، من ناحية تحمّل المسئولية ، صنفان : صنف يتحمّل المسئولية ، ولا يتردّد في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه ، حتى إذا كان التنفيذ صعباً جداً ، فهو يبدأ بالتنفيذ ، ثمّ يطالب بمعاونته ما وجد إلى ذلك سبيلا . وصنف يتهرّب من المسئولية ويتملص منها ، حباً بالعافية والسّلامة ، فيختلق المعاذير أو يخلقها ، فإذا اضطر إلى تنفيذ ما عُهِدَ به إليه مانفّذه متذمّرا . والصنف الأول الذي يتحمّل المسئولية من القادة ، هم الذين يُفلحون في أداء واجباتهم ، ويقودون رجالهم إلى النصر . أما الصنف الذي يخاف المسئولية من القادة ، فهم الذين لا يُفلحون أبداً في أداء واجباتهم ، ولا يقودون رجالهم إلّا إلى الهزيمة .

وظهرت سمة جديدة من سمات قيادة طارق ، في تحصين مواضع إنزال قوّاته في جبل طارق ، فمن واجب المقاتل أن يحصّن موقعه فوراً وبدون تأخير بعد احتلاله مباشرة ، ليستعين بموقعه المحصّن على الثبات أولا .

(٢٠٣) ذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ ج ص ٨٤ - ٨٥) والبيان المغرب (٢/٩) وابن خلدون (٢٥٤/٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١) .

وليحمي نفسه من رصد العدو وسهامه المصوّبة إليه : « فلما حصلوا في الجبل ، بنوا سوراً على أنفسهم يسمى : سور العرب ... الخ ... » (٢٠٤) والحرص على بناء هذا السور الحجري لحماية جيش طــارق . دليل على تمتّعه بمزية : الأمن ، وهو مبدأ من مبادئ الحرب ، يستحثّ القائد على أمن قواته من نظر العدو ورصده ومن أسلحته المصوّبة إليه ، كما أنّ التحصين يساعد على الثبات.

وظهرت سمة : رفع المعنويات في قيادة طارق ، في معركته الخاطفة على بَنْج (٢٠٥) (Banj) حيث قضى طارق على قوات بنج ، ولم ينج من جندها إلاّ واحد اسمه : بِلْيَاس ، أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى شمالي الأندلس (٢٠٦) . وأخبره بنزول المسلمين البلاد . وإبادة قوات بنج إبادة كاملة .

ومن الواضح جداً . أنّ انتصار المسلمين السّاحق ، على قوّات القوط ، وإبادتها عن بكرة أبيها ، أدّى فيما أدّى إليه ، إلى رفع معنويات الفاتحين ، وانهيار معنويات القُوْط . وارتفاع المعنويات عامل من عوامل النصر ، وانهيارها عامل من عوامل الهزيمة .

وبالرغم من ثقة طارق بنفسه . وثقته برجاله . وارتفاع معنويات المسلمين . ألاّ أن طارقا حين علم باقتراب لذريق وقوّاته المتفوقة الضاربة ، من مواضع المسلمين . كتب إلى موسى يستنجده . فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل . بقيادة طَرِيف بن مالك (٢٠٧) ، فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس مَن معه .

---

(٢٠٤) البيان المغرب (٢/٩) .
(٢٠٥) البيان المغرب (٢/١٠) .
(٢٠٦) نفح الطيب (١/١٤٩) .
(٢٠٧) العبر (٤/٢٥٤) ونفح الطيب (١/٢٣٣) .

وتكرّر استنجاد طارق بموسى ، بعد تغلغله بالعمق في الأندلس ، فأصبحت ميمنة المسلمين وميسرتهم مهددّة بالعدو ، كما أصبحت خطوط مواصلاتهم وقواعدها المتقدمة والأمامية مهدّدة بالعدو أيضا ، فكتب طارق إلى موسى : « إنّ الأمم قد تداعت علينا من كلّ ناحية ، فالغوث .... الغوث » (٢٠٨) ، فعبر موسى إلى الأندلس ، باستدعاء طارق إياه (٢٠٩) .

وهذا يظهر مزيتين مهمتين من مزايا طارق القيادية ، هما : تقديره الصّائب للموقف العسكري ، ومطالبته بالمدد في الوقت الذي يحتاج إلى المدد ، دون أن يغترّ بالمعنويات العالية التي يتحلّى بها ويتحلى بها رجاله ، وبالانتصارات المتوالية على العدو القوطيّ . والمزية الثانية ، هي حرصه العظيم على أمن رجاله ، فلا يفسح المجال لتعريضهم إلى التّهلكة دون مسوّغ . وهاتان المزيتان من أهمّ المزايا التي يتصف بها القادة العظام في التاريخ ، فإنّ تقدير الموقف الصّائب في الزمان والمكان المناسبين ، يدلّ على تمتع القائد بالذكاء الألمعيّ ، وبمزية سبق النظر ، فيتوقع الأحداث قبل وقوعها ، ويُعدّ لها ما يمكن أن تُعالج به علاجاً ناجعاً . أما الحرص على أمن قوّات القائد ، فهو الذي يحفظ لها معنوياتها من الانهيار ، ويجعلها تثق بالقائد وتنفذ أوامره طوعاً عن طيبة خاطر ، مهما يعترض سبيلها من مصاعب ومعضلات .

وقد ظهرت مزيّة : الشجاعة ، في طارق ، في مواقف كثيرة ، فضرب بشجاعته لرجاله أروع الأمثال ، وكان أسوة حسنة لهم ، حتى كانت خسائر رجاله في معركة لَكّه ، وهي المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق ، وبين القُوط بقيادة لذريق ، ثلاثة آلاف شهيد ، من مجموع جيش طارق الذي كان اثني عشر ألف مقاتل ، أي أنّ خمسة وعشرين بالمائة من جيش المسلمين استُشهدوا في هذه المعركة الحاسمة ، فقد قسم طارق الغنائم بعد انتصاره

(٢٠٨) الامامة والسياسة (٢/٧٤ ـ ٧٥) .
(٢٠٩) البيان المغرب (٢/١٩) .

على القوط في هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين (٢١٠) ، أي أنّ هؤلاء هم الذين سَلِموا ، واستُشهد الباقون .

ويقول طارق في خطبته على رجاله قبل الاشتباك بالقوط في تلك المعركة الحاسمة : « .... ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بنفسي ، لا أقصِّر حتى أُخالطه أو أُقتل دونه » (٢١١) ، و : « ما فعلتُ من شيءٍ فافعلوا مثله ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفتُ فقفوا ...... ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أُخالطه أو أقتل دونه » (٢١٢) ، فهو لا يريد من رجاله شيئاً أكثر من أن يفعلوا ما يفعل . ويقتفوا آثاره في الشجاعة والإقدام . ومن الواضح ، أنّ تأثير طارق في رجاله كان عظيماً ، فقد كان قدوتهم في الشجاعة ، وخير دليل على شجاعتهم ما أنجزوه في الفتوح ، وما أحرزوه من انتصارات ، وما بذلوه من تضحيات .

ومن الأمثلة التي تدلّ على شجاعة طارق النادرة ، أنّ العِلْج صاحب إسْتَجَّة خرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته ، فصادفه طارق هناك ، وكان طارق قد أتى لمثل ذلك . وطارق لا يعرفه . ووثب طارق على العلج صاحب إسْتَجَّة في الماء . وأخذه أخذاً وقاده إلى معسكر المسلمين ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة . فصالحه طارق على ما أحبّ ، وضرب عليه الجزية . وخلّى سبيله . وكان طارق يحاصر المدينة ، فاستسلمت للمسلمين ،

---

(٢١٠)نفح الطيب (١٦٣/١) .

(٢١١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (٢٢٢/٥ ـ القسم الفرنجى) وسراج الملك (١٥٩) وتاريخ الاندلس لابن الكردبوس ، ووصفه لابن الشباط (١٥٤ ـ ١٥٥) تحفة الانفس لابن هذيل نقلا عن : دولة الاسلام في الاندلس (٤٦/١) .

(٢١٢) الامامة والسياسة (٧٤/٢) ووفيات الأعيان (٤٠٤/٤ ـ ٤٠٥) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (١٥٤ ـ ١٥٥) ونفح الطيب (٢٢٥/١ ـ ٢٢٦) .

ووفى العلج أمير المدينة بما عاهد عليه طارقاً (٢١٣) ، ولا يمكن أن يبتعد قائد عن جيشه ، ويخرج وحده بعيداً عن رجاله ، فيصاول رجلاً من الأعداء ويأسره ، ثمّ يظهر أن الأسير أمير المدينة المحاصرة وبيده الحلّ والعقد ومصير المدينة ، فيفتدى نفسه بتسليم المدينة للفاتحين ، بعد أن قاومت مقاومة شديدة مدة طويلة . وطارق في مزّية الشجاعة ، يشابه خالد بن الوليد في هذه المزية ، فقد كان خالد أيضاً يترصّد قائد أعدائه ، فإذا استمكنه هاجمه هجوماً مباشراً ، حتى يقتله أو يأسره ؛ وقَتْلُ القائد في تلك الأيام ، يؤدي غالباً إلى انهيار معنويات رجاله ، فلا يبقى أمامهم غير الاستسلام .

ولعلّ مما يدلّ دلالة واضحة ، على تمتّع طارق بالذكاء الخارق ، والكياسة ، وحسن التدبير والسياسة ، والمقدرة على استقطاب ثقة الناس به من رجاله ومن أعدائه ، ما فعله طارق مع يليان صاحب سبتة ، فقد استعصت هذه المدينة على الفاتحين ، ونجحت في صدّهم عن أسوارها خائبين . وقد تطرقنا بما فيه الكفاية عن أسباب ثبات سبتة أمام الفاتحين ، وأسباب استسلام يليان للمسلمين وتسليم سبتة لهم صلحاً بدون قتال ، وتوطيد صلته المباشرة بالمسلمين في التعاون معهم ومعاونتهم في الفتح . ولكن صلة يليان المباشرة بطارق واتصاله به ، لأنّ طارقاً كان على طنجة التي على حدود سبتة — هو السبب المهم في استسلام يليان للمسلمين ، وتسليم سبتة لهم سلماً بدون قتال .

تلك هي سمات قيادة طارق البارزة : ذكاء خارق ، وكياسة واتزان وحصافة ، وحسن التدبير وحسن السياسة ، والقابلية على استقطاب الثقة به إنساناً وقائدا ، ونسبه البربري الذي آثر عليه نسبه إلى الإسلام ، وإيمانه العميق الرّاسخ بتعاليم الدِّين الحنيف ، وتجربة عمليّة ناجحة في القيادة ، يقود

(٢١٣) نفح الطيب (١/٢٦٠) وانظر أخبار مجموعة (٩ — ١٠) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب برواية الرازى (٢/٨ — ٩) .

رجاله من الأمام ، ويكون قدوة حسنة لهم بالأعمال لا بالأقوال ، يستأثر دون رجاله بالخطر ويؤثرهم بالاطمئنان ، يبذل جهداً في جهاده أكثر مما يبذله أيّ رجل من رجاله ، حريص غاية الحرص على أرواح رجاله ، يتحلّى بالضبط المتين ، ويتحمّل المسئولية كاملة ويحبّها ، يبذل قصارى جهده لرفع معنويات رجاله ، ويهتمّ بأمن جيشه كلّ الاهتمام ، يسبق النظر فيُعدّ لكل ما يُحتمل وقوعه من علاج ، لا يجتاحه الغرور ولا يستخذى للأماني ، يقدِّر الموقف العسكري تقديراً واقعياً صائباً ، يتميز بالشجاعة النادرة والإقدام .

تلك هي مجمل سمات قيادة طارق ، التي أهّلته بحق لتولّي منصب القيادة ، على عهد بني أُميّة وعلى قادة من العرب ، رضوا بقيادته ، وتعاونوا معه ، وعاونوه في ميادين القتال (٢١٤) .

وهي سمات تؤهِّل مَن يتحلّ بها ، أن يتولّ المناصب القيادية ، إذا استطاع أن يبرز تلك السِّمات عملياً ، للذين بيدهم تولية القادة .

ولعلّ من المفيد تطبيق مزايا قيادة طارق ، على مزايا القادة المعروفة في كتب الدراسات العسكرية المعتمدة ، زيادةً في الإيضاح ، لا زيادة في التّعريف .

٢ ــ طارق ومزايا القيادة العامة .

أ . لقد كان طارق : ذا قرار سريع صحيح ، حاضر البديهة ، يعالج المواقف الحربية المتبدّلة بسرعة وبشكل غير متوقّع ، بإصدار القرار السريع

(٢١٤) مثل طريف بن مالك ، وعبد الملك بن عامر المعافرى الجد الأعلى للمنصور بن أبى عامر وغيرهما ، وهما من أشهر العرب المساهمين في جيش طارق . انظر : ابن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ــ (١/٤٠) ــ القاهرة ــ ١٩٤٥ ، والحلة السيراء (١/٢٧٥) والبيان المغرب (٢/٢٥٦ ــ ٢٥٧) والاحاطة (٢/١٠٢) وأعمال الأعلام (٥٩) ونفح الطيب (١/٣٩٦ و ٣٩٩) وذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ ج ص ١٤٧ ــ ١٤٨) و (رقم ٥٥٨ ص ٢٠٥) .

المناسب ، في الوقت المناسب ، دون أن يضيّع الوقت سدى ، فتضيع الفرصة السّانحة التي قد لا تعود من جديد . فقد أقلع طارق على رأس الجماعة الأولى من رجاله ، وكان إقلاعه من سَبْتَة ، بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للانزال على الشاطىء الأندلسي ، وربما كان المكان الذي قصده أولا منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة ، ولكن طارقاً قرّر التخلّي عن الإنزال في هذا المكان القريب ، لأنه وجد جماعة من القوط فيه حاولت منعه من الإنزال ، فأبحر منه ليلا إلى مكان وعرٍ من الشّاطىء . وقد حاول تسهيل عمليّة الإنزال ، باستخدام المجاذيف وبراذع الخيل التي أُلقيت على الصّخورِ لتلافي خطرها ، وبهذه الطريقة تمكّن طارق من الإنزال المفاجىء ، من غير أن يراه أحد على الشاطىء (٢١٥) ، فتمّ إنزال جماعته الأولى بسلام دون خسائر تذكر ، وكوّن بإنزالها رأس الجسر الواجب إقامته ، لتأمين عبور المسلمين وإنزالهم على البر الأندلسي بسلام ودون خسائر تذكر .

ومن هذه العمليّة الصغيرة ، المتمثّلة في عبور الوجبة الأولى من رجال طارق إلى الأندلس ، يبدو قراران سريعان صحيحان : الأول : قراره في تبديل مكان الإنزال من الجزيرة الخضراء إلى جبل طارق ، للتخلص من مقاومة القوط للإنزال . والثاني : في استخدام المجاذيف وبراذع الخيل على الصخور لتلافي خطرها على رجاله .

ويمكن استنتاج قراراته السريعة الصحيحة ، في كلّ عملياته الحربية التي استمرت أربع سنوات في الأندلس ، وهي كثيرة جداً لا تحصى ، فلا عمليّة بدون قرار سريع صحيح ، وإلاّ كانت نتيجته الهزيمة ، ولا نعرف هزيمة لطارق في حياته العسكرية ، مما يدل على أنّه كان ذا قرار سريع صحيح على

(٢١٥) ابن الكردبوس (٤٦) ، وفي البيان المغرب (٩/٢) يورد رواية مشابهة عن عبور طارق ونزوله على الجبل .

الدوام ، ولعلّ تولية طارق مقدّمة موسى في فتح طنجة ، ومقدّمة موسى بعد عبوره إلى الأندلس ، خير دليل على تمتعه بالقرار السريع الصحيح ، لحاجة قائد المقدمة إلى مثل هذا القرار .

ب . وكان طارق يتحلّى : بالشجاعة الشخصية ، وكل عملياته في فتح الأندلس ، تدل على أنه كان شجاعاً مقداماً ، من الطراز الأول شجاعةً وإقداما ، وقد ذكرنا أمثلة على شجاعته النادرة قبل قليل ، ولعلّ هذه الشّجاعة هي التي لفتت إليه نظر موسى بن نُصَيْر وغيره من المسئولين، ولفتت إليه أنظار رجاله من العرب والبربر ، فكان أسوةً حسنةً لهم في الشّجاعة والإقدام .

ج . وكان طارق يتحلّى : بالإرادة القويّة الثابتة ، فإقدامه على العبور إلى الأندلس لفتحها ، على رأس سبعة آلاف مقاتل فقط ، دليل واضح على قــوة إرادته وثباتها . وإقــدامه على خوض المعركة الحاسمة على رأس اثني عشر ألف مقاتل فقط ، لمصاولة القوط ، وهم أضعاف أضعاف قوته ، بقيادة ملك القوط لذريق وحشد من قادته ، على أرض الأندلس التي يعرفها القوط لأنّها أرضهم ، ويجهلها المسلمون لأنها ليست بلادهم ، دليل واضح جليّ على قوة إرادة طارق وثباتها . وتغلغل طارق بالعمق في الأندلس ، وهو في نحو تسعة آلاف مقاتل ، دليل واضح على قوّة إرادة طارق وثباتها .

إنّ تمتّع طارق بمزية : الإرادة القوية الثابتة ، قد لا تحتاج إلى دليل .

د . وكان طارق يتمتّع بمزيّة : تحمّل المسئولية ، وكان لا يتحمّلها حسب ، بل يحبّها ، فهو يتحمّل المسئولية ويحبّها ، ولعلّ قبوله فتح الأندلس ، بقوة لا تزيد على سبعة آلاف مقاتل ، خير دليل على تحمّله للمسئولية وحبّها ، وعدم التملّص منها ، والتهرّب من عواقبها .

هـ . وكان طارق يتحلّى بمزيّة تمتّعه : بنفسيّة لاتتبدّل ، في حالتي النّصر والهزيمة ، والسرّاء والضراء ، واليُسر والعُسر .

لقد كان أحد رجال البربر ، فقدّمه جدّه إلى مصاف القادة المرءوسين ، ثم أصبح والياً على منطقة طنجة الواسعة وقائداً على حاميتها من البربر . واستمر نجمه في الصّعود ، فتولّى قيادة مستقلّة ، لها ارتباط مباشر بموسى بن نُصير . وفي الأندلس ، أصبح قائداً فاتحاً ، تخضع البلاد المفتوحة من الأندلس لسلطته المباشرة . وعبر موسى إلى الأندلس ، فأصبح طارق من جديد قائداً مرءوساً ، ثم بدأ نجمه بالهبوط ، حتى سُحب من قيادته بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان ، وأصبح رجلاً بلا غد ، لا يعرف مستقبله ولا مصيره . وحلّ في الشّام ، بعد أن قطع المسافة الطويلة الشاسعة بين الأندلس ودمشق ، برفقة مولاه موسى بن نُصَيْر ، فما عرف أحد من المؤرخين وغيرهم ، أنّ نفسية طارق تبدّلت في حالتي العزّ والذل ، والسّلطة وبلا سلطة ، والقيادة وبدون قيادة ، بل بقي نفسيّاً صابراً محتسباً ، لم يغترّ بمظاهر السّلطان ، ولا استكان لمظاهر الخذلان ، لأنه لم يكن يعمل لنفسه في جهاده وجهوده ، بل كان يعمل لله من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين العليا ، وليس لمصلحته الشخصية مكانا ولا مكانة حتى يفرح إذا ربحت ، ويحزن إذا خسرت ، وهذا هو سر صبره الجميل وبقاء نفسيّته ثابتة لا تتبدّل .

و . وكان طارق يتمتّع بمزيّة : سبق النّظر ، وهذه المزيّة تجعل القائد يتوقّع ما سيقوم به العدو قبل وقوع الأمر بوقت كافٍ ، ويتّخذ التدابير الضروريّة لإحباط ما يقوم به العدوّ . أي أنّ سبق النظر ، هي عملية اكتشاف نيات العدو المقبلة ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإحباط النشاط المعادي في الزمان والمكان المناسبين .

وقد ظهرت مزيّة سبق النظر في طارق ، بصورة جليّة وواضحة ، في استنجاد طارق بموسى ، حين علم باقتراب لذريق وقوّاته المتفوّقة من مواضع المسلمين ، قبل اشتباك المسلمين بالقوط في معركة لَكّه ، وهي المعركة

الأندلسيّة الحاسمة ، فأرسل موسى إلى طارق خمسة آلاف مقاتل مدداً ، وبهذا المدد قويت نفس طارق ونفوس مَن معه . وبهذه النّجدة التي انضمّت إلى جيش طارق ، استطاع طارق إحراز النصر على القوط .

وتكرّر استنجاد طارق بموسى بعد تغلغله بالعمق في الأندلس ، فعرّض ميمنة المسلمين وميسرتهم وخطوط مواصلاتهم لخطر معادٍ عظيم . وقد سبق طارق النظر ، فاستنجد بموسى ، فبادر موسى إلى نجدته بنفسه ، وعبر إلى الأندلس ، وقضى على الخطر الداهم الذي كان يتهدّد المسلمين قبل عبوره ، وقضى بالتّعاون مع طارق على المقاومات القوطيّة التي أخذت تشتدّ شيئاً فشيئاً بالتدريج .

وما كان بإمكان طارق أن ينتصر على القوط في المعركة الحاسمة ، لو لم يسبق النظر فيستنجد بموسى ، فيصله المدد ، فيقوى المسلمون به مادّياً ومعنوياً ، ويحرزون النصر المؤزّر على القوط .

وماكان بإمكان طارق ، أن ينجو بجيشه المعرّض جناحاه وخطوط مواصلاته إلى تعرّض معادٍ ، لو لم يسبق النظر ، فيستنجد بموسى ، فيعبر موسى بنفسه على رأس قوّاتٍ ضاربة ، يُزيل بها الخطر المحدق بجيش طارق ، ويقضي بالتعاون مع طارق على مراكز المقاومة القوطية ، أو على أخطر مراكزها في جبال الأندلس على أصحّ تعبير .

ز . وكان يتمتّع بمزيّة : معرفة النّفسيّات والقابليات لرجاله ، فأكثرهم من البربر ، عاش معهم ، وعاشوا معه . أما العرب الذين كانوا في جيشه ، فقد كان أكثرهم معه في طنجة يعمل في مجال الدّعوة ، فلما عبر إلى الأندلس ، استمروا على عملهم في مجال الدّعوة ، وتحمّلوا أعباء الجهاد بالإضافة إلى واجبهم الأصلي ، فكانوا كالمجاهدين الآخرين ، إن لم يتفوّقوا عليهم في طلب الشّهادة والاستقتال في سبيل الله . وبهذه المناسبة ، فقد كان علماء

السّلف الصالح ، وهم الدعاة إلى الله ، لا يتخلّفون عن تحمـّل أعباء الجيش بأمانة وإخلاص ، وكانوا حين يذكرون : أنّ الجهاد فرض ، لا يكتفون بهذا الكلام ، بل يطبّقونه عملياً على أنفسهم ، وليس سراً أنّ نسبة القراء من شهداء معركة اليـَمَامة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وبين بني حـَنيفة المرتدين بقيادة مُسَيْلـَمـَة الكذّاب ، كانت أعلى من نسبة شهداء المسلمين الآخرين ، فقد شهد المعركة من المسلمين نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل (٢١٦) ، فاستشهد من المسلمين ألف ومائتا شهيد(٢١٧) ، منهم خمسمائة من القراء(٢١٨) وحدهم ، أي أنّ خمسة وأربعين بالمئة من الشهداء كان من القراء ، وهم علماء المسلمين ، بينما كان تعدادهم بالنسبة للمسلمين الآخرين قليلا (٢١٩)، وهكذا كان علماء المسلمين يُقرنون الأقوال بالأفعال ، بل كانوا يقولون قليلاً ، ويفعلون كثيراً ، وهذا هو سرّ استجابة الناس لهم وإقبالهم عليهم .

وبالإضافة إلى معرفة طارق لرجاله في أيام السّلم ، فقد تضاعفت معرفته بهم في أيام الحرب ، فليس كأيام الحرب تربط المقاتلين وتعمّق تعارفهم وتكشفهم على حقيقتهم ، إذ يستمر الاتّصال المباشر بينهم ليلاً ونهاراً في تعاون وثيق ، فتنكشف نفسياتهم وقابلياتهم ، ويُعرف الشجاع من الجبان ، والصادق من الكاذب ، والمستقيم من المنحرف ، لأنّ التعامل بين المقاتلين يزداد ، والميدان يُظهر الشّجاع ويكشف الجبان .

---

(٢١٦) جاء في كتاب : فضائل القرآن لابن كثير ص (١٢) ملحق بالجزء التاسع من تفسير ابن كثير مايلي : « التف حول مسيلمة من المرتدين قريب من مائة الف ، فجهز الصديق أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في ثلاثة عشر الفاً » .

(٢١٧) الطبرى (٥١٩/٢) .

(٢١٨) الطبرى (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢) .

(٢١٩) انظر التفاصيل في كتابنا : بين العقيدة والقيادة (٢١٢ ـ ٢١٣) .

وقد كان طارق بما عُرف عنه ، من اتّصال وثيق بالبربر والعرب ، الذين يعملون معه . على معرفة بنفسيّات رجاله وقابلياتهم ، لا تكاد تخفى عليه من أمرهم خافية ، فيستخدم الرجل المناسب للواجب المناسب استناداً على نفسيته وقابليته . ولا يكلِّف رجلاً يجهل طوايا نفسه وخبايا قابليته ، إلاّ بعد اختباره ، لمعرفة الواجب الذي يستطيع النّهوض به ، رغبة لا رهبة ، وطوعاً لا كرهاً ، وباقتدار لا بعجز ، لذلك استطاع طارق أن يحقِّق النصر بقوّاته القليلة ، على القوط بقواتهم المتفوِّقة ، لأنّه يستخدم الرّجل المناسب للواجب المناسب بموجب نفسيته وقابليته لا بموجب عوامل أخرى .

ح . وكان يتحلىّ بمزية : الثِّقة المتبادلة ، فقد كان رجلاً مستقيماً صادقاً أميناً ، مجاهدا حقّاً . شجاعاً مقداما ، آلفاً مألوفاً ، يطبِّق أوامره على نفسه . كما يطبِّقها على رجاله . إن لم يكن يحرص على تطبيقها على نفسه أكثر من حرص أيّ رجل من رجاله . وقد كان يردِّد دائماً : اعملوا ما أعمل ، فلا يطالب أحداً من رجاله أن يعمل غير ما يعمل هو شخصياً ، إذ يبدأ بالعمل أولاً . ثم يطالب الآخرين أن يقتفوا آثاره في عمله لا في قوله ، فإذا كان الهجوم ، كان أوّل المهاجمين ، أمام رجال الصَّوْلة في الهجوم ، مستهدفاً قائد العدو بالذات ، غير مكترث بما حول ذلك القائد من حُماة وحماية .

لقد كان في مزاياه يستحق أن يثق به رجاله ، فأولوه ثقتهم الكاملة ، واستحقّ أن يثق به رئيسه المباشر . وهو موسى بن نُصَيْر ، ورئيسه الأعلى ، وهو الخليفة في دمشق . فأولوه ثقتهم الكاملة ، وجعلوه قائداً من قادة الفتح ، وكلّفوه بمهمّة فتح الأندلس ، وكان ذلك المنصب القيادي وتلك المهمّة في الفتح . بالنسبة لطارق باعتباره من البربر لا من العرب ، وبالنسبة للنِّظام الحاكم يومذاك . من الغرائب المستحدثة التي لا سابقة لها ، ولكن مزايا طارق جعلته موضع ثقة رؤسائه ، كما جعلته موضع ثقة مرءوسيه .

وكان طارق ، يبادل رجاله ثقة بثقة ، والثقة المتبادلة هي العمود الفقري لكلٍّ نصر ، وانتصارات طارق وفتوحه دليل على ثقته برجاله ، ودليل على أنّهم كانوا يستحقّون تلك الثقة .

ط . وكان يتحلّى بمزية : المحبّة المتبادلة ، فقد كانت مزاياه تجعله محبوباً من رجاله ، كما انّه كان يبادلهم حباً بحب ، كما كان يبادلهم ثقةً بثقة .

وكان طارق محبوباً من رؤسائه أيضاً ، ولولا ذلك لنحّوه عن منصبه القياديّ ، وولّوا مكانه مَن يُحبّون .

ولعلّ أحسن دليل على حبّ رجال طارق لطارق ، ما وصف به مُغيث الرُّوميّ طارقاً ، فقد ذكروا أنّ سليمان بن عبدالملك أراد أن يولّي طارقاً على الأندلس ، فاستشار سليمان مُغيثاً في تولية طارق ، وقال له : « كيف أمره بالأندلس ؟ » ، فقال : « لو أمر أهلها بالصّلاة إلى أي قِبْلَة شاءها ، لتبعوه ولم يروا أنّهم كفروا (٢٢٠) » .

لقد كان طارق يحبّ رجاله ، ويحبّ رؤساءه ، وكان رؤساؤه ورجاله يبادلونه حبّاً بحب ، مما جعل التعاون بين القيادة والرجال تعاوناً وثيقاً ، لأنّه نابع من القلب ، وليس بسبب إغراء ووعيد وضغط وإكراه .

ي . وكان يتمتّع بمزيّة : الشّخصية القويّة النافذة ، فما كان لمثله ، أن يخترق الحدود والقيود ، المؤدية إلى منصب القيادة ، لو لم يكن ذا شخصية قويّة نافذة .

وقد كان موسى بن نُصَيْر الذي ولّى طارقاً القيادة ، مُلتَزَماً من عبدالعزيز بن مروان الذي كان على مصر ، وكان موسى معنياً بإقناع الخليفة وعبدالعزيز بن مروان بقابليته قائداً ، وأنه قادر على فتح مناطق شاسعة .

(٢٢٠) نفح الطيب (٣/١٣) .

وتزويد الخلافة ومصر بالمغانم ، محاولاً تخفيف الانطباع السَّيِّئ الذي كوّنه عنه الخليفة بسبب العمل الذي اتُّهم به في البصرة . لذلك كان موسى معنيّاً باختيار القادة القادرين من ذوي الكفاية العالية ، ومنهم طارق ، لتحقيق ما يصبو اليه من فتوح ومغانم ، ولايكون القائد القادر إلاّ ذا شخصيّة قويّة نافذة ، لأنّها إحدى مزايا كفاية القائد العالية ، أما القائد الإمعّة المتردِّد الذي يخاف المسئولية ، فلا مكان له بين قادة الفتح في تلك الأيام .

ك . وكان طارق يتمتّع بمزيّة : القابليّة البدنية ، ولا نصوص تشير إلى ذلك في المصادر المعتمدة ، ولكن يمكن استنتاج أنّ طارقاً كان يتحلّى بهذه المزيّة ، من سير أعمال طارق في ميادين القتال .

فقد ولاّه موسى على مقدِّمته في مسيرة فتح طنجة ، وولاّه على مقدَّمته أيضاً بعد عبور موسى إلى الأندلس ، ولا يُولّى قيادة المقدَّمة إلاّ قائد يتّسم بالنّشاط وسرعة الحركة والتنقل من مكان إلى آخر على عجل ، ولا يكون ذلك كما ينبغي إلاّ لقائد ذي قابليّة بدنيّة متميزة .

كما أنّ تولية طارق على جيش من جيوش المسلمين ، متوجِّه لفتح الأندلس ، بما في ذلك من مصاعب ومشاق ، دليل على أنّه كان يتمتّع بقابليّة بدنية متميزة .

وتحمّل أعباء الحرب ، من حركة مستمرّة وتنقل مستمر ، وقتال بما فيه من صولات وجولات ، في مختلف فصول السنة بما فيها من حرّ وبرد وأمطار ، لا ينهض بأعبائها إلاّ مَن كان ذا قابلية بدنية متميزة .

وإقدام طارق على ممارسة القتال في مقدّمة الصفوف الأولى ، ومهاجمة قادة القوط قبل غيرهم ، وانقضاض طارق على أمير إسْتَجَة وهو في ماء النهر ، وأخذه أخذاً بالقوة ، وحمله قسراً إلى معسكر المسلمين ، أدلّة واضحة على تمتّع طارق بمزيّة القابلية البدنيّة المتميزة .

وأكاد أتبيّن بوضوح ، أنّ قابليته البدنية الخارقة ، كانت من أسباب إقدام موسى على توليته منصب القيادة المرموق .

ل . الماضي الناصع المجيد ، من سمات القائد الناجح المنتصر ، ولاشيء عن ماضي طارق في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا . فقد برز طارق لأول مرة سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) حين تولى مهمة قيادة مقدّمة موسى في مسيرته لفتح طنجة ، ثم ولّاه على طنجة بعد فتحها وجعله قائداً لحاميتها من البربر ، ولم يبق مع طارق إلّا القليل من العرب الذين كانت مهمتهم نشر تعاليم الإسلام بين البربر (٢٢١) . ومن الواضح أنّ ماضيه المجيد مرتكز على سجاياه إنساناً وقائداً ، فقد تقدّم بتلك السّجايا لا بحسبه ونسبه ، فهو قائد عصامي بحق . ولا يبـدو أنّه كان من أشراف البربر أو رؤسائهم وملوكهم ، فقد كان مع موسى أبناء كسيلة وملك السّوس الأقصى ، فولّى طارقاً القيـادة دونهم ، فلـو كان موسى يُولي ذوي الحسب والنسب من البربر ، لولّى هؤلاء دون طارق ، ويبدو أنّ سجايا طارق ومزاياه قدّمته ، حين أخّرت سادة البربر وأشرافها .

إنّ طارقاً كان أول جدّ لِعَقِبِهِ في الأندلس ، فكان موضع فخرهم واعتزازهم ، كما كان موضع فخر المسلمين وتاريخهم .

والإسلام كان أباه ، وحَسْبه بالإسلام فخراً وماضياً مجيداً ، وحاضراً حميداً .

---

(٢٢١) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغـرب (٢٠٤ ــ ٢٠٥) وذكر بـــلاد الأندلس (رقم ٨٥ ج ص ٨٣ ــ ٨٤) وابن الأثير (٤/٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٠) والبيان المغرب (١/٤٢) والنويرى (٢٢/٢٢) وابن خلـــدون (٤/٤٠٢) و (٦/٢٢٠ و ٤٣٧) ونفح الطيب (١/٢٣٩) والسلاوى (١/٩٦).

٣ ـ في تطبيق مبادىء الحرب(٢٢٢) :

أ . اختيار المقصد وإدامته (٢٢٣) :

كان مقصد طارق في عملية الإنزال ، ثم الانطلاق شمالاً في الجزيرة الأندلسيّة ، واضحاً جلياً هو : فتح الأندلس ، والبقاء فيها ، أسوةً بالبلاد التي فتحها المسلمون قبل الأندلس . وقد كان هذا المقصد ، من اختيار موسى ، وكان على طارق مهمة وضعه في حيّز التنفيذ العملي ، وإدامة تحقيقه بمراحل متعاقبة ، تبدأ : بحشد القوّة الكافية للإنزال ، وإعداد وسائل نقل الجيش الإسلامي من البرّ الإفريقي إلى البر الأندلسيّ ، وإجراء عمليّة العبور ، وإنزال الجيش الإسلامي إلى البر الأندلسي ، واتخاذ رأس جسر من القوّة الإسلامية النازلة . وتأمين حماية رأس الجسر وتطويره ليصبح قاعدة أمامية متقدمة للمسلمين . وتحصين تلك القاعدة وحمايتها ، والانطلاق منها انسياحاً في البلاد للفتح .... الخ ... كما جرى عملياً في الفتح .

ومن الواضح ، أنّ الفتح هو المقصد الذي جرى اختياره ، ولكنّ إدامة هذا المقصد يجري بمراحل . لكلّ مرحلة من مراحله مقصد واضح أيضاً ، كالرافد يصبّ في النهر الكبير . والرافد يمثّل مقصد كلّ مرحلة ، والنهر الكبير يمثل المقصد الرئيس وهو : الفتح . وتلك الروافد ، تديم النّهر الكبير . الذي هو المقصد الرئيس . وهو الفتح . لهذا فإن مقاصد مراحل

---

(٢٢٢) مبادىء الحرب : هى المبادىء الجوهرية التى تنشىء في القائد السجية السليمة في تصرفاته الحربية . وهى العناصر الأساسية التى يتكون منها مسلك القائد في أعماله القيادية بصورة طبيعية وغير متكلفة .

(٢٢٣) اختيار المقصد وادامته : في كل حركة حربية ، من اللازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح . والمقصد النهائى هو تحطيم ارادة العدو على القتال . ويجب أن توجه كل صفحة من صفحات الحرب نحو هذا المقصد الأعلى ، ولكن لكل صفحة من تلك الصفحات مقصد محدود ، يجب أن يعرف بوضوح .

عملية الفتح بمجموعها تتّفق مع المقصد الرئيس وتديمه ، ولا تتناقض معه وتضعفه في حال من الأحوال .

لقد كان طارق يعرف حقّ المعرفة مقصده ، وقد بذل قصارى جهده لتحقيقه ، وسهر بدأب وعزم على إدامته ، بما عُرف عنه من أمانة وإخلاص .

ب . التّعرض (٢٢٤) :

كان طارق قائداً تعرّضياً في كلّ عملياته القتالية التي خاضها في الأندلس ولا نعلم أنّه خاض معركة دفاعيّة واحدة في الأندلس ، منذ حلّ فيها إلى أن غادرها .

وكان في اتّخاذه مبدأ : التعرّض ، مَسْلَكاً له في قيادة رجاله ، موفقاً ناجحاً ، فقد انتصر على القُوط ، ولم يُهزم في أيّة معركة خاضها ، وأجبر القوط على الرغم من تفوّقهم العَدَدّي والعُدَدِيّ على المسلمين ، على اتخاذ مسلك الدفاع ، فلم يُفلحوا حتى في مسلك الدفاع الذي اتّخذوه ، ودأبوا على الانسحاب من مواضعهم الدفاعيّة إلى مواضع دفاعية جديدة ، لأنهم لم يستطيعوا الثبات أبداً أمام زخم تعرّض المسلمين .

ج : المباغتة (٢٢٥) :

(٢٢٤) التعرض : هو الهجوم على العدو لسحقه ، ولايتم الحصول على النصر الا بالتعرض وحده ، أما الدفاع فلا يؤدى الى النصر .

(٢٢٥) المباغتة : أهم مبادىء الحرب وأبعدها اثراً في الحرب ، وتأثيرها المعنوى عظيم جداً ، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم . وهذه هى بعض الوسائل التى يمكن بها الحصول على المباغتة : أ ـ بكتمان الاستعدادات للخطط الحربية ، وبكتمان جسامة القوات الاحتياطية ب ـ بالتنقل السريع للقوات من مكان الى آخر ، تمهيداً لأنزال الضربة على موضع لايتوقعه العدو ج ـ باستخدام الأرض التى يصعب استخدامها لوعورتها مثلا أو لأنها مغمورة بالمياه ، أو بعبور الموانع التى تعتبر غير قابلة للعبور . د ـ باستخدام اسلحة جديدة غير متوقعة أو اساليب تعبوية جديدة .

المباغتة ، هي إحداث موقف لا يكون العدوّ مستعدّاً له ، والكتمان من أهمّ الوسائل التي تؤدّي إلى المباغتة .

لقد طبقّ طارق مبدأ المباغتة ، في كثير من عملياته العسكرّية ، فقد عبر من سَبْتَة ، وفيها كثير من عيون القوط وعملائهم ، ولم يعبر من ميناء إسلامي معروف مثل طنجة ، لأنّ القوط كانوا يتوقعون عبور المسلمين من طنجة ، باعتبار أنّ المسلمين طهروا المنطقة من عيون القوط وعملائهم ، ولم يكونوا يتوقعون عبور المسلمين من سَبْتَة ، لأنها كانت تعجّ بالرَّتَل الخامس (٢٢٦) من عملاء القوط وعيونهم ، فاستطاع طارق كتمان حركة عبوره ، فباغت القوط بهذا العبور .

كما جرى عبور المسلمين ليلا ، فكان الظلام الدامس ، حجاباً ساتراً للمراكب والقوارب التي استخدمها المسلمون في العبور .

وحين وجد طارق ، أنّ الجزيرة الخضراء ، لا تخلو من مقاومة قوطية ، وقد تعرقل إنزال قواته على البر الأندلسي ، وتكبّدها خسائر في الأرواح ، مما قد يؤدي إلى إخفاق عمليّة الإنزال دون مسوّغ منطقي معقول ، أقدم طارق فوراً على توجيه رجاله بوسائل نقلهم البحري إلى منطقة جبل طارق ، وأجرى إنزال قواته هناك بدون أية مقاومة قوطية تذكر ، لأنّ تلك المنطقة كانت خالية تماماً من القوط ، وكان القوط يفكّرون أنّ المسلمين لا ينزلون قواتهم في تلك المنطقة الوعرة ، لصعوبة الإنزال عليها ، لأنها صخرية شديدة الوعورة ، تعرقل الإنزال ، وتؤذي النازلين عليها من الرجال .

وتطبيق طارق لمبدأ المباغتة كثير جداً ، نكتفي بالأمثلة التي أوردناها ، خشية أن يطول الحديث .

---

(٢٢٦) الرتل الخامس : كناية عن الجواسيس والوكلاء والعيون والأرصاد والموالين وأصحاب المصالح الشخصية ، وأصحاب العلاقة الدينية والعنصرية والمذهبية .... الخ ....

د . تحشيد القوة (٢٢٧) :

عبر طارق على رأس سبعة آلاف مجاهد ، وقبل المعركة الحاسمة التي خاضها على القوط بقيادة لذريق ، أمدّه موسى بخمسة آلاف مجاهد ، فخاض المعركة الحاسمة باثني عشر الف مجاهد . ولما أكمل طارق فتح طليطلة ، أصبحت قوات المسلمين في خطر محدق ، لتزايد وطأة المقاومة القوطية ، ولانكشاف جناحيها الأيمن والأيسر ، ولتعرض خطوط مواصلاتها للانقطاع ؛ فقدم موسى على رأس قوات ضاربة من المسلمين ، لترصين موقف قوات طارق في الأندلس ، واستئناف الفتح ، وهكذا اهتم طارق بتطبيق مبدأ : الحشد ، بما يناسب ظروفه الراهنة (٢٢٨) .

وإذا نوقش أسلوب تطبيق طارق ، لمبدأ : تحشيد القوّة ، على الطريقة العسكرية الحديثة ، من عسكري مختص بمثل هذه البحوث والدراسات ، فربما يتورّط بإصدار استنتاجات خاطئة ، وبخاصة إذا نوقش أسلوب طارق لهذا المبدأ ، اعتماداً على الناحية المادية من التحشّد حسب ، إذ أنّ حشد سبعة آلاف مجاهد للعبور من أجل تحقيق الفتح ، وحشد اثني عشر ألف مجاهد للمعركة الحاسمة التي خاضها طارق على القوط بقيادة لذريق ، حشد قليل لايناسب الموقف الراهن ، إذ ما جدوى حشد سبعة آلاف مجاهد لمواجهة مملكة وشعب وبلاد شاسعة ، وما جدوى حشد اثني عشر ألف مجاهد لمواجهة مائة ألف قوطيّ أو ثمانين ألف قوطيّ ، وكيف يمكن أن ينتصر واحد في

(٢٢٧) تحشيد القوة : هو حشد اكبر قوة أدبية وبدنية ، واعظم قوة معنوية ومادية ، لاستخدامها في المكان والزمان الجازمين .

(٢٢٨) كان تطبيق مبدأ : تحشيد القوة ، بالنسبة للمسلمين ، قياساً على الناحية المادية في القوة وحدها ، غير كاف ، لأن التفوق المادى كان دوماً الى جانب القوط،ولكن التفوق المعنوي كان الى جانب المسلمين،فانتصرت الفئة القليلة على الكبيرة بأذن الله .

الهجوم على سبعة في الدفاع عن بلده ؟ والمعروف أن المهاجم ينبغي أنّ يكون خمسة أمثال المدافع على الأقل ، ليمكن أنيكون الهجوم ناجحا ! .

لقد كان تفوّق القوط على المسلمين (ماديآ) فواقآ ساحقا ، فكان المسلمون مقصرّين في تطبيق مبدأ ، تحشيد القوّة ، من الناحية المادّية . ولكنّ المسلمين كانوا متفوّقين على القوط (معنويا) فواقآ ساحقا .

وكان نابليون يقول : « إنّ الجيش يتألّف من ٧٥٪ معنوياً ، ومن ومن ٢٥ ٪ مادياً » ، وآخر ما استقر عليه آراء الخبراء العسكريين العالميين ، بعد تطور الأسلحة وظهور الأسلحة النوويّة ، هو : « إنّ الجيش يتألّف من ٥٠ ٪ مادياً و٥٠ ٪ معنوياً » ، فلايزال للمعنويات وزن مرموق حتى في العصر الحديث ، الذي يمكن أن نطلق عليه : العصر الماديّ ،لأنّ اهتمام الناس عامةً بالناحية الروحية المتمثلة بالدين ، في هذا العصر ، أقل بكثير من اهتمامهم بهذه الناحية في القرون الخالية .

وقد كان اهتمام المسلمين بالدين الحنيف عظيماً ، في القرن الأول الهجري ، الذي كان خير القرون بلا مراء ، من ناحية التمسك بالدين والاهتمام به : « خير الناس قَرْني ، ثمّ الذين يَلُوْنَهُمْ ، ثمّ الذين يَلُوْنهُم ، ثمّ يجيءُ أقوام تَسْبِقُ شهادةُ أحدهم يمينَهُ ، ويمينُه شهادتَهُ » ، كما قال عليه الصّلاةوالسّلام (٢٢٩) . واهتمام المسلمين بالدين ، رفع معنوياتهم ، لأنّ أحدهم كان يحرص على الموت ، كما كان يحرص غيرهم على الحياة ، وكان كلّ فرد منهم يتمنىّ أن يموت قبل صاحبه لينال الشهادة ، وكان كلّ فرد من غيرهم يتمنّى أن يموت صاحبه قبله ، كما قال خالد بن الوليد لأحد

(٢٢٩) رواه عن ابن مسعود ، الشيخان البخارى ومسلم ، والأمام الترمذى ، والأمام احمد بن حنبل في مسنده ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (١٣/٢) .

قادة الرومّ في معركة اليرموك الحاسمة ، لذلك كانت معنويات المسلمين عالية جداً في ذلك القرن ، وهذه المعنويات اكتسحت أمامهم عدوّهم المادي ، وقادتهم إلى النصر .

إنّ تطبيق المقاييس الماديّة الشائعة في هذا العصر كثيراً ، على أسلوب تطبيق طارق وأمثاله من القادة المسلمين مبدأ : تحشيد القوة ، لا يخلو من محاذير تؤدي إلى استنتاجات خاطئة . ومن المهم في هذا المجال ، أن لاننسى القرن الذي حارب فيه طارق ، والمعنويات العالية التي كان يتحلّى بها المسلمون المجاهدون يومذاك ، وأثر المعنويات العالية في إحراز النّصر .

وصدق الله العظيم : ﴿ كَمْ من فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بإذْنِ اللهِ ، والله مع الصَّابِرِيْن ﴾ (٢٣٠) .

ولعلَّ انتصار المسلمين شرقاً وغربا ، بالرغم من تفوق عدوهم عليم مادياً ، في القرن الأول الهجري ، خير دليل على أنّ المقاييس المادية وحدها ، لا تصلح في التطبيق على المسلمين ، في ذلك القرن بالذات ، للحكم لهم أو عليهم في تطبيق مبدأ : تحشيد القوة . وإلاّ فكيف نعلّل انتصارهم بالقِلّة القليلة في الأندلس ، على الكثرة الكثيرة ، في القرن الأول الهجري ؛ فلما أصبحوا كثرة كثيرة بعد قرون من فتح الأندلس واستيطانهم في ربوعها ، هزموا وخسروا ما فتحه أجدادهم ، وطُرد مَن طُرد منهم ، وشُرِّد مَن شُرِّد . وقُتل مَن قُتل ، ونُصِّر مَن نُصِّر منهم قسراً ؟

إنّ انتصار المسلمين في القرن الأول الهجري ، قرن الفتوح والانتصارات كان انتصار عقيدة بلا براء .

---

(٢٣٠) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٤٩) .

هـ . الاقتصادة في المجهود (٢٣١) :

إذا كان بالإمكان حدوث اختلاف بين الباحثين ، حول تطبيق طارق مبدأ : تحشيد القوة ، فليس بالإمكان حدوث مثل هذا الاختلاف في تطبيق طارق مبدأ : الاقتصاد في المجهود ، إذ أنّ تطبيقه كان مثالياً حقاً ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد تمّ الإنزال بسبعة آلاف مجاهد ، وتم بهذه القوة الصغيرة نسبيّاً بالنسبة للقوات القوطية المتفوقة على قوّات المسَــلمين فواقاً بعيداً : تأسيــس رأس جسر للمسلمين في البرّ الأندلسي ، وتكوين قاعدة أماميّة متقدمة للمسلمين في منطقة جبل طارق وحمايتها ، والانطلاق شمالا ، وفتح المنطقة الشاسعة بين جبل طارق ووادي لَكُّةْ ، كلّ ذلك جرى بسبعة آلاف مجاهد حسب .

وجاء المدد من موسى إلى طارق قبل خوض المسلمين معركة وادي لَكُّه ، وهي المعركة الأندلسيّة الحاسمة ، وكان المدد خمسة آلاف مجاهد فقط ، فخاض طارق المعركة الحاسمة باثني عشر ألف مجاهد ، وانتصر على القوط انتصاراً حاسماً ، بعد أن تكبّد المسلمون ثلاثة آلاف شهيد .

وانطلق جيش طارق شمالاً ، من وادي لَكُّهْ ، حتى تمّ فتح طُليطلة وعدد كبير من المدن الأندلسيّة الكبرى ، بقوات إسلاميّة لاتزيد على تسعة آلاف مجاهد .

وتحقيق هذه الانتصارات المتعاقبة للمسلمين والفتوح ، بمثل قوّاته القليلة في عَدَدِها وعُدَدها . الكثيرة بمعنوياتها ومَددها ، يمكن اعتباره مثالاً

(٢٣١) الاقتصاد بالمجهود : هو استخدام اصغر القوات للأمن أو لتحويل انتباه العدو الى محل آخر ، أو مد قوة معادية اكبر منها ، مع بلوغ الغايــة المتوخاة .
ان الاقتصاد بالمجهود ، يدل على الاستخدام المتوازن للقوى ، والتصرف الحكيم بجميع المواد لفرض الحصول على التحشد المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين .

رفيعاً لتطبيق مبدأ : الاقتصاد في المجهود ، ينبغي أن يكون أسوة حسنة في هذا المجال .

و . الأمن : (٢٣٢)

أمّنَ طارق حماية قوّاته في مراحل عملياته للفتح كافة ، وبذل جهده لمنع العدو من الحصول على المعلومات عن قواته ، واستطاع الحصول على المعلومات الضرورية عن القوط عَدَداً وعُدَداً وتنظيماً وقيادة ، مستفيداً من شتى المصادر لجمع تلك المعلومات ، وبذلك طبق مبدأ الأمن .

وهناك أمثلة كثيرة على تطبيق مبدأ : الأمن ، عملياً ، في عمليّات طارق العسكرية ، تحقيقاً لمقصده الرئيس في فتح الأندلس ، فعمليّة طريف بن مالك المعافري الاستطلاعيّة إلى برّ الأندلس ، هي في جوهرها لجمع المعلومات المفصّلة عن القوط ، وطبيعة أرض الأندلس ؛ وكان طارق يبدأ أعماله العسكرية بالإستطلاع ، ليكون على بيِّنة من أمره ، ولا يخطو خطوة إلّا في موضع أمين ، فهو دائماً يعمل في النّور لا في الظلام .

وقد ولّاه موسى على مقدّمته في عملية فتح طنجة ، وولّاه على مقدّمته بعد عبوره إلى الأندلس ، ومعنى ذلك أنّ طارقاً خبير جداً : بجمع المعلومات عن العدو ، وبحرمان العدو من جمع المعلومات عن قوات المسلمين ، وبحماية المسلمين من مباغتة العدو لها بالمكان أو الزمان أو الأسلوب .

إنّ تَعداد الأمثلة العمليّة ، على تطبيق مبدأ : الأمن ، في عمليات طارق الحربية ، قد يطول بدون جدوى ، إذ أنّ تطبيقه لهذا المبدأ ، لايحتاج إلى

(٢٣٢) الأمن : هو توفير الحماية للقوة ومواصلاتها ، لوقايتها من المباغتة ، ومنع العدو من الحصول على المعلومات عن القوة وتسليحها وتنظيمها وتعدادها وقيادتها ، وعن الأرض التي ستجرى عليها المعارك القادمة .

دليل ، ويكفي أن نتذكّر أنّه استطاع مباغتة القوط في كثير من المواقف ، دون أن يستطيع القوط مباغتته في موقف واحد .

ز . المرونة (٢٣٣) :

كانت قوّات طارق ، تتحرّك إلى أهدافها ، بكفاية وسرعة ، بل كانت سرعتها في بعض الأحيان تخرج عن حدودها ، فتُصبح اندفاعاً لاحركة سريعة ، كما جرى في حركة قوّات طارق بعد المعركة الحاسمة ، حتى تمّ لها فتح طُليطلة ، حيث كان اندفاعها سريعاً ، وكان سببه : الحرص على تشتيت تجمّعات القوط ، لكي لاتُصبح قوّات ضاربة موثّرة من جهة ، ومطاردة فلول القوط لإجبارها على الاستسلام من جهة ثانية .

وكانت عقلية طارق متفتحة مرنة ، فإذا أعدّ خطّة من الخطط ، فرأى الموقف الراهن يقتضي تبديلها أو تحويرها ، لم يتأخرّ أبداً عن التبديل أو التحوير ، لتلائم خطته الموقف الراهن الجديد ، ولا يبقى مُصِرّاً على خطّته الأولى ، لسبب أو لآخر ، دون مسوّغ مقبول .

فقد أبحر طارق من سَبْتَة ، بسبب رغبته في إيجاد مكان ملائم للإنزال في منطقة الجزيرة الخضراء على السّاحل الأندلسيّ ، ولكنّ طارقاً تخلّى عن الإنزال في ذلك المكان ، حين وجد جماعة من القوط حاولت منعه من الإنزال ، فأبحر منه ليلاً إلى مكان وعر على الشّاطئ ، هو جبل طارق ، وتمكّن

(٢٣٣) المرونة : ان المبدا الذى كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية مبدا : قابلية الحركة ، اصبح يسمى في الوقت الحاضر مبدا : المرونة . ذلك لأن : قابلية الحركة ، تدل على الحركة المادية ، وهى عملية نسبية ، لا يعبر عنها تعبيراً صحيحا ، الا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو .
ان المرونة ، تعنى اكثر من ذلك ، انها لاتتضمن قوة الحركة حسب ، بل قوة العمل السريع كذلك ، فعلى القائد أن يكون مرن الفكر ، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته ، وأن تكون خططه بشكل يمكنه من أن يعدل بسرعة عمليات قواته ، حين تضطره الظروف غير المتطورة الى هذا التعديل .

من الإنزال المفاجئ في المكان الجديد ، دون أن يراه أحد على الشاطئ (٢٣٤) .

وهكذا استبدل طارق خطّة جديدة بخطّته الأولى ، فنجح في إنزال رجاله بدون مقاومة معادية تذكر ، ونجح في مباغتة العدو بهذا الإنزال .

والأمثلة على تبديل خطط طارق أو تحويرها ، يغني عنها المثال السابق ، للدلالة على تمتّع عقلية طارق بالمرونة المطلوبة .

ح . إدامة المعنويات (٢٣٥) :

كانت الثقة والمحبّة متبادلتين بين طارق ورجاله ، ليس بالنسبة لرجاله من البربر ، بل بالنسبة لرجاله من العرب أيضاً قادةً وجنوداً ، فقد كانت لطارق مزايا إنساناً وقائداً ، تجعله موضع ثقة رجاله ومحبّتهم ، كما كان يبادلهم ثقةً بثقة ومحبة بمحبّة ، لذلك كان التعاون بين القيادة والرجال وثيقا .

وكانت عوامل رفع المعنويات لجيش المسلمين عامة ، متيسِّرة إلى أبعد الحدود في القرن الهجري الأول ، وهي : العقيدة الراسخة أولاً ، والقيادة القادرة ذات الكفاية العالية ثانياً ، والانتصارات الباهرة ثالثاً وأخيرا .

لقد كان المسلمون متمسكين بالإسلام ، وأثر الإسلام في رفع المعنويات معروف ، ومنه : الحياة المستمرّة للشهداء ، والأجر العظيم للمجاهدين . وكان المسلمون يومئذ يقودهم : أكثرهم تديّناً وأعظمهم كفاية ، وأفضلهم سجايا ، وأحمدهم سيرة ، لذلك كانت الثقة بين الرئيس والمرءوس متبادلة ، والتعاون بين القادة والجنود وثيقاً . وكانت الانتصارات باهرة ، بفضل العقيدة

---

(٢٣٤) ابن الكردبوس (٤٦) ، وانظر البيان المغرب (٩/٢) الذى يذكر ان طارقاً اجرى انزال رجاله في منطقة جبل طارق .

(٢٣٥) المعنويات : الصفات التى تميز الجيش المدرب عن العصابات غير المدربة : بها تظهر الطاعة القائمة على الحب ، وتبرز الشجاعة في القتال ، والصبر على تحمل المشاق ، وتبرز كل المزايا التى تجعل المقاتل مطيعاً باسلا صبورا .

المنشئة البناءة والقيادة الرصينة القادرة . لذلك كانت عوامل تيسّر المعنويات العالية بين جيوش المسلمين واضحة للعيان ، وهي التي يسّرت النصر لطارق منذ إنزال قوّاته على البر الأندلسيّ ، إلى قبل المعركة الحاسمة ، بسبعة آلاف مجاهد فقط ، ويسرت له النصر على لذريق ومَن معه في المعركة الحاسمة ، وكانوا في نحو مائة ألف مقاتل إلى ثمانين ألف مقاتل ، بجيش من المسلمين تعداده اثنا عشر ألفاً ، ويسّرت له فتح المنطقة الأندلسية الممتدة من منطقة وادي لَكُّة إلى طليطلة بقواته التي تبلغ تسعة آلاف مجاهد ، وكان لمعنويات المسلمين وإدامتها أثر حاسم في إحراز هذه الانتصارات (٢٣٦) .

ط . الأمور الإداريّة (٢٣٧) :

مهما تكن خطّة العمليّات دقيقة مرنة معقولة ، فلا توئِي ثمراتها المرتقبة إذا تعذّر تنفيذها من الوجهة الإدارية ، بل يمكن أن نذهب ألى أبعد من ذلك بالقول : إنّ نجاح كلّ خطّة من خطط العمليات مرهون بنجاح خطتها الإداريـة .

والواقع أنّ القوط كانوا متفوّقين إدارياً على المسلمين ، فأرزاقهم وكساؤهم ومساكنهم متيسّرة لهم بشكل أفضل مما هي متيسّرة لدى المسلمين ، لأن القوط يقاتلون في بلادهم ، والمسلمين يقاتلون بعيداً عن بلادهم ، وكانت وسائط تنقل القوط أفضل مما كان بحوزة المسلمين منها ، وبخاصة قبل خوض المسلمين معركة الأندلس الحاسمة في وادي لَكُّه ، فاستعان المسلمون بمراكب يليان للعبور ، وغنم المسلمون خيول القوط ، فأصبحوا فرساناً بعد المعركة الحاسمة ، وكان أكثرهم قبلها من المشاة . كما استغنى المسلمون في عبور

---

(٢٣٦) انظر التفاصيل في بحث المعنويات (١٣ ــ ٢٨) ــ في كتابنا : الأسلام والنصر ــ بيروت ــ دار الفكر ــ ١٣٩٢هـ .

(٢٣٧) الأمور الأدارية : الغذاء ، الكساء ، السكن ، الطبابة ، البيطرة ، التنقل ، السلاح ، التجهيزات .... الــــخ ....

المدد الذي بعث به موسى إلى طارق ، بدلاً من سفن يليان ، وعبروا بالسُّفن التي صنعها لهم موسى في مصانع السُّفن بتُونس .

وكان كلّ مجاهد يتسلّح بأسلحته الخاصة به التي تعود إليه ملكيّتها ، كما كان يتجهّز بالملابس الخاصة به أيضاً . ومع ذلك كان لدى كلّ قائد مستودع للسّلاح والتجهيزات ، يُسلّح بها مَنْ لايستطيع أن يسلّح نفسه ، ويجهّز بها مَن لايستطيع أن يجهّز نفسه بما يحتاج من تجهيزات ، وغالباً ما يكون هؤلاء من فقراء المسلمين المعْدَمين ، الذين لم يسلّحهم ويجهّزهم أغنياء المسلمين ، فقد كان الأغنياء يجاهدون بأموالهم كما يجاهدون بأنفسهم ، ومن الجهاد بالأموال تسليح الغُزاة وتجهيزهم وحملهم أيضاً .

وكانت مشكلة الغذاء بالنسبة للمسلمين غير معقّدة ، فقد كانوا يكتفون بأبسط الغذاء كالتمر والسَّوِيْق (٢٣٨) ، فإذا غنموا ما يُؤكل نَعموا به ، وإلاّ صبروا . أما السّكن ، فكانت الخيمة كافية لهم ، فهي مسكنهم في الصحراء وفي التنقّل من مرحلة إلى أخرى ، فإذا وجدوا سكناً مريحاً آووا إليه ، وإذا لم يجدوا كانت الخيام هي المأوى .

وكان في جيش المسلمين عامة مَنْ يداوي الجرحى ويسهر على شفائهم ، وبخاصة من نساء المجاهدين . وكان هناك مَن يداوي حيوانات المجاهدين من البياطرة ، الذين مارسوا معالجة الحيوانات مدة من الزمن وراثياً مع آبائهم وأجدادهم ، أو بالتعلّم من الذين يمتهنون البيطرة .

لقد كانت الأمور الإدارية بصورة عامة ، في جيش المسلمين ، أقلّ كفاية وإتقانا ، مما هي عليه في جيش القوط ، ولكنها لم تكن مهملة في جيش المسلمين . ولعلّ طبيعة المسلمين زُهداً وتقشّفا ، في أيام الفتوح ، هي التي

(٢٣٨) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمي بذلك لانسياقه في الحلق . (ج) : اسوقة .

سّهلت عليهم نواقص الأمور الإدارية ، وزادت من صبرهم عليها ، إذ لم يكونوا قد اعتادوا ترف العيش ولاتعوّدوا عليه .

ي . التّعاون (٢٣٩) :

كان التعاون وثيقاً بين طارق ورجاله في عمليات الفتح ، منذ بدايتها إلى أن سُحب طارق من جبهة القتال في الأندلس إلى دمشق ، فقد كان طارق كما ذكرنا يثق برجاله ويثقون به ، وكان يحبّهم ويحبّونه ، وكان يتمتع بمزايا قيادية تجعله قريباً من قلوب رجاله أثيراً عليهم ، لذلك كان التعاون وثيقاً بين القيادة ورجالها ، لأنه ينطلق من أسس رصينة ، ولا ينطلق من خوف أو رغبة ، ولا من سلطة أو رهبة .

وكان التعاون وثيقاً أيضاً ، بين طارق ومسئوله المباشر موسى بن نُصَير ، فقد لَبّى موسى كلّ مطالب طارق ، فبادر إلى إرسال المدد إليه فوراً بعد طلبه . فوصل المدد ، إلى طارق في المكان والزمان المناسبين ، أي في ساحة القتال . قبل الاشتباك في المعركة الحاسمة – معركة وادي لَكُّهْ . ولما استنجد طارق بموسى ثانية بعد فتح طليطلة وتعرّض قوّات المسلمين إلى خطر محدق ، من جرّاء تغلغها بالعمق في الأندلس ، بادر موسى بالعبور على رأس المدد ، وبذل قصارى جهده للقضاء على مواطن الخطر الذي كان محدقاً بقوّات طارق في الأندلس ، ولم يتأخر موسى عن معاونة طارق والتعاون معه ، تحقيقاً للفتح .

كما صنّع موسى السّفن محلياً . فأنشأ مصنعاً حربيّاً لصنع السّفن ، واستطاع أن يحمل المدد على سفنه لا على سفن يليان ، كما جرى في عبور جيش طارق إلى البر الأندلسيّ ، في بداية الفتح .

---

(٢٣٩) التعاون : توحيد الطاقات المادية والمعنوية كافة ، لبلوغ الغرض ، وهو احراز النصر على العدو واجباره على الاستسلام دون قيد ولاشرط .

ولم يقتصر طارق ، على وضع مبدأ : التعاون ، في حيِّز التّطبيق العمليّ ، بينه وبين رجاله ، وبينه وبين رئيسه المباشر موسى بن نُصَيْر ، بل وضع هذا المبدأ في حيِّز التّطبيق العمليّ ، بينه وبين يليان ومَنْ معه ، فاستفاد من سفنهم في العبور ، وسخّرهم عيوناً وأرصاداً ومصدراً لاستقطاب المعلومات الضرورية عن القوط وعن طبيعة الأرض في الأندلس ، واستفاد منهم أولاً في مسيرته عبر الأندلس ، كما كان طارق يستشير يليان ويتقبّل آراءه ، وبخاصة بعد نجاح يليان في اجتياز تجربة إخلاصه لطارق ، وثبات إخلاصه ، وقناعة طارق بذلك : « ..... فهربوا إلى طليطلة — يريد القوط — وغلقوا مدائن الأندلس . وأقبل يليان إلى طارق ، فقال له : قد فرغت بالأندلس ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي ، فرِّق معهم جيوشك ، وخذ أنت إلى طليطلة . ففرّق جيوشه من إسْتِجَّة ..... » (٢٤٠) ، فقبل طارق نصيحة يليان ، وأرسل جيوشه إلى مَالَقَة وإلْبِيْرَة ومُرْسِيَة وقُرْطُبَة (٢٤١) .

كما تعاون طارق مع يهود الأندلس ، الذين كانوا متذمِّرين من القوط وملكهم تذمراً شديداً ، فأنصفهم المسلمون بما عرف عنهم من عدل وتسامح ، وأزاحوا عنهم ما كانوا يعانونه من اضطهاد الملك والقوط ، فاستفاد منهم طارق عيوناً وأرصاداً ، ينقلون له الأخبار عن القوط ونواياهم ، ويكشفون له ما يبيِّته القوط للمسلمين ، وقد تطرّقنا إلى ذلك ، وكان يهود الأندلس متطوعين في نقل تلك المعلومات عن القوط للمسلمين ، ولم يثبت لديّ أنّهم عاونوا في القتال ، بل اقتصر تعاونهم على جمع المعلومات عن القوط ، ونقلها للمسلمين نكاية بالقوط وتقرّباً من المسلمين .

(٢٤٠) أخبار مجموعة (٩ — ١٠) .

(٢٤١) الرازى نشر جاينجوس (٦٩) وأخبار مجموعة (٩ — ١٠) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب (٩/٢ و ١١) والنويرى (٢٧/٢٢) ونفح الطيب برواية الرازى (٢٦٠/١ — ٢٦١) .

لقد طبّق طارق مبدأ : التعاون ، تطبيقاً سليماً .

ع . نقطة الضّعف :

تغلغل طارق بقواته القليلة نسبياً تغلغلاً بالعمق في الأندلس ، امتدّ من جبل طارق حتى طُليطلة ، فعرّض بحقّ تلك القوّات إلى خطر عظيم ، لأنّه كشف جناحيها : الأيمن والأيسر ، وعرّض خطوط مواصلاتها للانقطاع فأصبح خطر القوط يهدّد قوات طارق ، ليس من أمام ، باعتبار أنّ العدو في الجبهة أمام المسلمين . بل من يمين الجيش الإسلامي ، ومن يساره ، ومن خلفه ، وأصبح مهدّداً بقطع خطوط مواصلاته ، التي تربطه بقاعدة المسلمين الأمامية المتقدمة في جبل طارق ، وقاعدة المسلمين الأمامية في سَبْتَة وطنجة ، وقاعدة المسلمين الرئيسة في القيروان .

لذلك قرّر موسى بن نُصَيْر ، أن يتولّى تلافي الأمر بنفسه ، بالعبور على رأس قوات المدد . وبذل قصارى جهده بما عرف به من سمات قياديّة متميزّة ، للقضاء قضاء مبرماً على مواطن الخطر التي كانت محدقةً بقوات طارق في الأندلس . وحماية جناحيهما الأيمن والأيسر حماية كافية ، وتأمين خطوط مواصلاتها بقاعدتها الأمامية المتقدمة ، وبقواعدها الأمامية على البر الإفريقي القريب من الشّواطىء الأندلسيّة ، وبقاعدة المسلمين الرئيسة في إفريقية والمغرب في القيروان .

وأسرع موسى بإنزال قواته على البر الأندلسي في منطقة جبل طارق ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة .

وكان مجرّد وصول موسى على رأس قوّاته إلى البر الأندلسيّ ، قد أثّر في معنويات المقاومة القوطيّة . وجعلها تحسب حساب هذه القوّات الإسلامية الجديدة . وتتريّث في التعرّض بقوات طارق . ريثما ينكشف الموقف وتتّضح الأمور .

وزحف موسى إلى شَذُونَة ، فاستعاد فتحها ، وكان طارق قد فتحها بعد المعركة الحاسمة مباشرة ، ويبدو أنّ القوط استعادوها من المسلمين .

وتحرّك موسى من شَذُونَة إلى قَرْمُونَة ورعواق ، ففتحهما أيضاً ، وبذلك أُمِّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء وجبل طارق إلى قُرطبة ، وكان طارق قد فتح قَرْمُونَة ، ويبدو أنّ المقاومة القوطيّة استعادتها من المسلمين ، ففتحها موسى ثانية .

ومن الواضح ، أنّ سقوط شذونة وقرمونة بعد فتحها من طارق لأول مرة ، عرّض خطوط مواصلات طارق للانقطاع ، مما يكبِّدها خسائر فادحة بالأرواح ويجبرها على الاستسلام ، فكان من أول ثمرات عبور موسى إلى البرّ الأندلسي، استعادة فتح هاتين المدينتين من جديد ، تأميناً لخطوط مواصلات قوات طارق في الأمام ، وترصيناً لموقفها في الثبات ، وقضاء على مراكز المقاومة القوطية في مؤخرة قوات المسلمين .

واتّجه موسى نحو الغرب، ليفتح مدينة إشْبِيلِيّة كبيرة مدائن الأندلس بعد طليطلة إذ ذاك ، ففتحها موسى بعد بضعة أشهر من الحصار ، وكان طارق قد فتح هذه المدينة لأول مرة ، ويبدو أنّ القوط استعادوها من المسلمين ، فاستعادها طارق إلى المسلمين بعد قتال مرير .

وسار موسى على رأس قواته إلى مارِدَة ، وكان الهاربون من فلول القوط قد تجمّعوا فيها ، لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فبقي موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالي ، ولم يسلّم البلد إلا بعد عشرة أشهر من الحصار الصّعب المديد ، مما يدل على صلابة عود المقاومة القوطية في هذا البلد المنيع .

وكان الطريق بين ماردة إلى طليطلة جبلياً وعراً ، وكان ملغوماً بالمقاومة القوطية المتنامية ، فتوجّه موسى إلى طليطلة ، وتوجّه طارق من طليطلة باتجاه

ماردة ، فالتقى القائدان في وسط الطريق بين طليطلة وماردة ، بعد مقاومة شديدة وقتال متواصل ، فقد كانت المقاومة القوطية قد اتّخذت من المواقع الجليّة جيوباً للمقاومة ، وساعدت وعورة المنطقة على نجاح هذه المقاومة ، ولكنّ قوات طارق وموسى كبّدوا المقاومة القوطية خسائر فادحة ، دون أن يستطيعوا استئصال شأفتها من الجذور .

وكانت المعركة التي شهدها موسى وطارق في طريق ماردة – طليطلة معركة قاسية ، أُطلق عليها معركة : السَّواقي ، ثبت المسلمون لهجوم القوط ثباتاً راسخاً ، وصبروا على مقاومة الهجوم صبراً جميلا ، ثمّ ردّوا على هجوم القوط بهجوم مُقابل . فانتصر المسلمون على القوط .

ويبدو أنّ اشتباك المسلمين بالقوط في معركة السَّواقي ، شجّع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها . ووثبوا بها . وسيطروا على مقاليدها . فاضطر موسى على استعادة فتحها من جديد . ودخولها دخول المنتصر .

وحين كان موسى محاصراً ماردة انتقضت إشبيلية من جديد ، فوجّه موسى ابنه إلى إشبيلية ففتحها للمرّة الثالثة . ثم نهض إلى لَبْلَة (٢٤٢) وباجَة ، ففتحهما أيضاً . وقد سار عبدالعزيز بن موسى بعد ذلك على رأس جيشه لاستكمال فتح الأندلس غرباً : البرتغال حاليا . فكانت له فتوح في غربي الأندلس(٢٤٣)

---

(٢٤٢) لبلة : قصبة كورة بالأندلس كبيرة . يتصل عملها بعمل أكشونية ، وهي شرق من اكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة ايام اربعةواربعون فرسخاً ، وبينها وبين اشبيلية اثنان واربعون ميلا . وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزروع والشجر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٩/١) .

(٢٤٣) عبدالعزيز بن موسى بن نصير ترجمته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار ، وفيه تفاصيل فتوح عبدالعزيز .

وبذلك أبعد موسى الخطر الذي يهدد جناح قوات طارق الأيسر ، بفتوح عبدالعزيز بن موسى .

كما بعث موسى ابنه عبدالأعلى (٢٤٤) إلى جنوبي الأندلس وجنوب شرقي الأندلس ، وكان ذلك بعد استعادة فتح إشبيلية للمرة الثانية ، فاستطاع عبدالأعلى أن يستعيد فتح مالَقَة وإلْبِيرَة ، وكان التعاون بين الأخوين في الفتح وثيقاً .

وكما أبعد موسى الخطر الذي يُهدِّد جناح قوات طارق الأيسر بفتوح عبدالعزيز بن موسى ، أبعد موسى الخطر الذي يُهدد جناح قوات طارق الأيمن بفتوح عبدالأعلى بن موسى ، وبهذه الجهود المكثفة التي بذلها موسى بمعاونة طارق الذي ثبت في طليطلة بالرغم من إحاطة القوط به إحاطة السِّوار بالمعصم ، وبمعاونة ولدي موسى اللذين فتحا غرباً وشرقا ، فأمّنا جناحي قوات طارق المكشوفين : الأيمن ، والأيسر ، كما أصبحت خطوط مواصلات قوات طارق آمنة أيضاً ، وأصبح المسلمون الفاتحون في الأندلس بعيدين عن الخطر ، قريبين من الأمن ، وبذلك استطاع موسى بمعاونة طارق ، الانطلاق شمالاً لاستكمال الفتح .

أليس هذا الذي حدث في معركة السَّواقي ، بين فلول القوط وقوات موسى بن نُصير ، بمعاونة طارق ، وفتحُ موسى ثانية المدن الأندلسيّة التي فتحها طارق قبله ثم انتقضت ، وفتحُ موسى طليطلة ثانية بعد انتقاضها منتهزة فرصة مغادرتها من طارق بوقت قليل ، دليلاً قاطعاً على أنّ المسلمين بقيادة طارق قد تغلغلوا في الأندلس بالعمق أكثر مما ينبغي ، وأنّهم بعد

(٢٤٤) عبد الأعلى بن موسى بن نصير : ترد ترجمته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار ، وفيه تفاصيل فتوح عبد الأعلى .

تغلغلهم الذي لا يتناسب مع حجم قوّاتهم ، أصبحوا في خطر محدق جسيم ، فكان عبور موسى هو لدرء هذا الخطر المحدق الجسيم ؟

ثمّ أليس بقاء طارق في طُليطلة دون التحرّك لفتح جديد ، ودون التوجّه للقاء موسى ، بالرغم من مرور مدة طويلة من الزّمن على عبور موسى إلى الأندلس ، هو لتثبيت حشود المقاومة القوطيّة في أماكنها ، دون التعرّض بقوات موسى وقوات طارق لأطول مدّة ممكنة ، ولحماية طليطلة بالذات من هجمات المقاومة القوطية واحتمال استعادتها من المسلمين ؟

ثمّ أليس حركة طارق للقاء موسى ، في طريقه إلى طليطلة ، وهو طريق جبليّ وعر . فيه حشود المقاومة القوطية المتربصة بالمسلمين ، كان لمعاونة قوّات موسى ، على اجتياز هذا الطريق المحفوف بالمخاطر بأمن وسلامة ، وضمان إحراز النّصر على القوط إذا اشتبكوا بالمسلمين ، لأنّ اشتباكهم بقوات موسى وقوات طارق . أصعب عليهم بكثير من اشتباكهم بقوات موسى وحدها ؟

لقد كان تغلغل طارق بقواته القليلة نسبياً . بالعمق في الأندلس ، هو نقطة الضعف . في قيادة طارق . فقد كان تغلغل قواته عمقاً لا يتناسب مع حجمها في حال من الأحوال .

ولا يمكن أن تخفى نقطة الضعف هذه على طارق . بما عرف عنه من سجايا قيادية عملية لا تتكرر إلاّ نادرا . ويمكن تعليل أسباب وقوع طارق في هذا الخلل الذي كان يمكن أن يأتي على فتوحه ويكبِّد قواته خسائر فادحة مادياً ومعنوياً . بأنه لم يكن يعمل وحده في الأندلس ، ولا كان فتحها يهمه وحده . فقد كان موسى بن نُصَيْر مسئوله المباشر إنساناً وقائدا . مطلعاً على موقف طارق اطلاعاً مفصلا . فكان لا يتهاون في إمداد قواته بالرجال ، ويحرص على مصير قوات طارق حرص طارق عليها . كما كان مصير فتوح

طارق لا تهم طارقاً وحده ، بل تهم موسى بالدرجة التي تهم طارقاً ، إن لم يكن مصيرها يهم موسى أكثر مما يهم طارقاً ، وبخاصة وأنّ الخليفة يحاسب موسى على مصير قوات طارق ومصير فتوحه ، لو لحق بقوات طارق وفتوحه ضرر من جراء إهمال موسى في المدد أو تقصيره ، لذلك بادر موسى إلى قيادة المدد بنفسه رغم شيخوخته ، مبالغة في حرصه على معاونة طارق والتعاون معه ، وقطع دابر الخطر الذي تعانيه قواته ، والعمل على إكمال الفتوح إلى نهايتها المرجوّة ، التي يتمناها موسى كما يتمناها طارق . ومن الواضح جداً ، أنّ موسى ، كان بإمكانه أن يولّي أحد أبنائه قيادة المدد ، أو يولّي هذا المدد أحد قادته المرءوسين ، وكان أولاد موسى قادرين على تحمل أعباء قيادة المدد عن أبيهم الشيخ ، وكان قادة موسى المرءوسون مجربين في الفتوح والمعارك وقادرين على تحمل اعباء قيادة المدد ايضاً ، ولكنّ موسى قرر أن يتحمل مسئوليته كاملة ، بعد أن وجد مبلغ ما يحيق بقوات طارق من أخطار جسيمة فزج نفسه في معارك واضحة المخاطر ، ولكن حرصه على مصير المسلمين والفتح غطى على ما توقعه من مشقات وأخطار ، فآثر سلامة المسلمين وراحتهم على سلامته وراحته .

لقد كان طارق ، يستند على ركن ركين في قيادته ، فقد كانت الثقة متبادلة إلى أبعد الحدود ، بين طارق وموسى رئيسه المباشر في القيادة ، لذلك كان يُقْدم على النهوض بواجبه قائداً ، حتى إذا كان النهوض به لا يخلو من الأخطار ، لأنه كان يعلم علم اليقين ، أنّ هناك مَن يشاركه في تحمل تلك الأخطار مشاركة تبددها تبديداً ، وتجعلها أثراً بعد عَيْن .

ولو أنّ الثقة لم تكن متبادلة بين طارق وموسى ، لا ختلف الأمر اختلافاً جذرياً ، ولما أقدم طارق على مجازفة عسكرية دون مسوّغ ، ولكنه كان يعلم أنّ موسى لايمكن أن يتخلّى عنه ، وأنّ المدد سيجعل من المجازفة نصراً لامعاً .

وكان هناك ما يسوِّغ لطارق اندفاعه في العمق الأندلسي ، من الناحية العسكريّة الفنية البحت ، فبعد خروج طارق من المعركة الحاسمة ، معركة وادي لَكُه ، منتصراً على القُوط بقيادة ملكهم لذريق انتصاراً حاسماً ، كان عليه أن يطارد فلول القوط بتماس شديد ، وألاّ يفسح لهم المجال للتجمع تحت لواء واحد بقيادة واحدة من جديد ، لذلك طارد فلولهم حول ساحة المعركة الحاسمة ، وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح في مطاردته التي نهضت بها سراياه نهوضاً موفّقا . وقد لجأ قسم من القوط إلى مدينة شذونة القريبة جداً من ساحة المعركة الحاسمة ، فاقتضى الموقف العسكري ، أن يفتح طارق هذه المدينة ، ليُطهِّرها من فلول القوط الذين احتموا بها . وكان فلول القوط قد انسحبوا إلى إسْتِجَّة . فطاردهم طارق إلى هذه المدينة ، وفتحها ،وبدّد فلول القوط التي لجأت إليها .

وبعد فتح إسْتِجَّة ، انسحب القسم الأكبر من فلول القوط إلى طُليطلة ، باعتبارها أكبر مدنهم وعاصمة ملكهم : للدفاع عنها ، والاحتماء بها ، والتعاون مع حاميتها المحلية في صد المسلمين عن فتحها . كما انسحب بعض فلول القوط ، إلى المدن المجاورة لمدينة إستجة ، بأعداد أقلّ من الأعداد التي أخذت طريقها إلى طليطلة . فكان على طارق أن يطارد الفلول في معاقلها الجديد ، وعلى رأسها مدينة طليطلة ، فتوجّه على رأس القسم الأكبر من رجاله إلى طليطلة ، وفرّق السرايا إلى المدن المجاورة لأستجة ، عاملاً بنصيحه يليان ، لأنها تحقق هدفه الحيوي في مطاردة فلول القوط أينما وجدوا وحيثما اتجهوا ، كما تحقق هدفه في الفتح ؛ وهكذا فرض الموقف الراهن نفسه على طارق ، فازداد تغلغه في عمق البلاد ، وتوسّعت جبهته ، وكان هذا التغلغل والتوسّع في الجبهة لا مفر منه ، بالنظر للموقف العسكري الراهن ، على الرغم من خطره الداهم على قوات المسلمين .

لقد اضطرّ طارق على اتّخاذ هذا المسلك اضطراراً ، وهو يعلم حقّ العلم محاذيره . ومن الواضح ، أنّ طارقاً ، بعد انتصاره على القوط في المعركة الحاسمة ، وكانت قوات القوط متفوّقة على قوّات المسلمين تفوّقاً ساحقاً في تلك المعــركة ، كما ظهر لنا من دراسة المعركة وهــو يرى انسحاب فلول القوط بأعداد ضخمة من ساحة المعركة في اتّجاهات مختلفة ، على غير هدى وبصيرة غالباً ، وعلى هدى وبصيرة نادراً ، فكان الموقف الراهن ، يقضي عليه أن يطارد الفلول القوطية ، مستفيداً من حالة انهيارها المادي والمعنويّ نتيجةً لقتل ملكها أولاً ، ولهزيمتها ميدانياً ثانياً ، إذ لايمكن أن يستمر هذا الانهيــار طويلاً ، فمن الواجب استغــلاله بأقصى ما يمكن في مطــاردة سريعة مدبّرة ، خوفاً من أن يستعيد القوط تماسكهم الماديّ والمعنويّ ، ويتجاوزوا مدّة الانهيار الذي يعانونه ، والذي لايمكن إدامته وتعميق آثاره ، إلاّ بالمطاردة الفوريّة ، وهذا ما طبّقه طارق عملياً ، فقاده إلى التغلغل عمقاً ، وإلى توسيع جبهة المسلمين ، بدون أن يزداد تَعداد المسلمين في حينه .

والواقع أنّ طارقاً كان أمامه مسلكان لاثالث لهما : أن يكتفي بانتصاره في المعركة الحاسمة ، ويتّخذ موضعاً دفاعيّاً مناسبا ، ريثما تصل إليه الامدادات ، ثمّ يستأنف مسيرته لاستكمال ما بدأه من فتوح .

ومحذور هذا المسلك ، أن تستعيد فلول القوط رشدهم ، الذي فقدوه من جراء هزيمتهم وقتل ملكهم ، وجسامة خسائرهم بالأرواح والأموال ، وحينذاك يمكن أن يهاجموا قوّات طارق في مواضعها الدفاعيّة ، ويمكن أن يستعيدوا ما فقدوه من مدن أندلسية من المسلمين ، وبخاصة وأنّ التفوّق العَدَدِيّ والعُدَدي مع القوط على المسلمين . وحتى في حالة وصول المدد إلى المسلمين ، وهم بهذه الحالة ، من تجمّع القوط واستعادة معنوياتهم ، فإنّ انتصار المسلمين عليهم يكون أصعب بكثير من حالتهم في تفرّقهم وانهيار معنوياتهم ،

مما يجعل اتّخاذ هذا المسلك من طارق ، غيرمأمون العواقب ، ولا مضمون النتائج .

والمسلك الثاني الذي كان أمام طارق ، هو مطاردة فلول القوط بسرعة وبتماس شديد ، وهذا المسلك هو الذي اتّخذه طارق ، وطبقه عملياً في مسيرة الفتح .

لقد كان أمام طارق مسلكان صعبان ، أحلاهما مُرّ ، فاختار المسلك الذي يناسب المجاهدين الصّادقين في القرن الأول الهجري ، خير القرون ، وقرن الفتوح الإسلامية المجيدة . وما كان بإمكانه أن يختار المسلك الأول ، مسلك الدفاع ، لأنّه كان قائداً تعرّضيّاً لاقائداً دفاعيّاً ، ولا تنطبق مقاييس طارق على مقاييس القادة في العصر الحديث ، فقد كانت أسبقيّة المقاييس بالنسبة لطارق وقادة الفتح الاسلامي قاطبة ، للمقياس الروحي ، فأصبحت أسبقية المقاييس اليوم للمقياس المادّي ، وشتّان بين المقياسين .

ولكل عصر مقاييسه المعتبرة . ولكل زمان دولة ورجال .

٥ ـ مجمل السمات :

(ا) سماته الخاصة :

ذكاء خارق . وكياسة واتّزان وحصافة وحسن التّدبير وحسن السياسة ، والقابليّة على استقطاب الثّقة به إنساناً وقائداً . ونسبه البربري الذي آثر عليه نسبه إلى الإسلام ، فهو طارق بن الإسلام بحق لاطارق بن البربر نسباً ، وإيمانه الرّاسخ العميق بتعاليم الدّين الحنيف . وتجربة عمليّة ناجحة في القيادة ، يقود رجاله من الأمام ويكون قدوة حسنة لهم بالأعمال لا بالأقوال ، يستأثر دون رجاله بالخطر ويؤثرهم بالاطمئنان ، يبذل جهداً في جهاده أكثر من أيّ رجل من رجاله ، حريص غاية الحرص على أرواح رجاله ، يتحلّى بالضبط المتين ، ويتحمّل المسئولية كاملةً ويحبّها ، ويبذل قصارى جهده في رفع

معنويات رجاله ، يهتمّ بأمن جيشه كلّ الاهتمام ، يسبق النظر ويُعِدّ لكلّ ما يُحتمل وقوعه ما يناسبه من حلول ، لايجتاحه الغرور في حالة النّصر ولايستخذي في حالة الاندحار ، يُقدِّر المواقف العسكريّ تقديراً واقعيّاً صائباً، يتميّز بالشجاعة النادرة والإقدام .

(ب) سماته العامة :

كان ذا قرار سريع صحيح ، يتميز بالشجاعة الشخصيّة ، وكان ذا إرادة قويّة ثابتة ، له نفسيّة رصينة لاتتبدّل في حالتي النّصر والهزيمة ، يتحمّل المسئولية ويحبّها ولا يتهرّب منها ويلقيها على كواهل الآخرين ، يتمتّع بمزية سبق النظر ، وعلى معرفة مفصّلة بنفسيّات رجاله وقابلياتهم ، يثق برجاله ويثقون به ويثق برؤسائه ويثقون به ، يحب رجاله ويحبونه ، وكان ذا شخصيّة قويّة نافذة ، يتمتّع بالقابليّة البدنيّة المتميزِّة ، وله ماضٍ ناصع مجيد في ميدان الجهاد .

وكان يعرف مبادئ الحرب بالفطرة ، ويطبّقها في عملياته العسكرية تطبيقاً ناجحاً ، ومن المعلوم أنّ مبادئ الحرب لاتتغير ، ولكن أساليب الحرب هي التي تتغيّر .

تلك هي سمات طارق الخاصة والعامة ، التي قدّمته لتسنّم منصب القيادة، ثمّ جعلت منه قائداً لامعاً من أبرز قادة الفتح الإسلاميّ ، لايُذكرون إلّا ويذكر معهم .

وسمات قيادة طارق تشابه إلى حدّ بعيد سمات قيادة خالد بن الوليد ، فإذا كان خالد بطل فتوح المشرق ، فطارق ، بطل فتوح المغرب . وإذا كان خالد بطل العرب المسلمين ، فطارق بطل البربر المسلمين .

وإذا كان خالد من بني مخزوم من قريش ، فإنّ طارقاً لم يكن من بني مخزوم ولا من قريش ، وإذا كان لنسب خالد أثر في تسنّمه القيادة ، فلا أثر لنسب طارق في تسنمه القيادة ، وهو بحق القائد العصاميّ الذي بنى مجده بمزاياه وكفاياته ، وهو الجدّ الأول لعَقِبِه وعَقِب عَقِبه ، يعتزّون بالانتساب إليه ، ويفخرون بسجاياه وفتوحه .

تلك هي مجمل سماته الخاصة والعامة، ولعلّها تفيد الذين يؤثرون الإيجاز على الإطناب ، ولعلّها تفيد الذين لايتّسع وقتهم لدراسة الشروح والتفصيلات .



طارق في التاريخ

يذكر التاريخ لطارق ، أنّه فتح شطر الأندلس ، وكان أوّل قائد بدأ بفتح الأندلس فتحاً مستداما .

ويذكر له ، أنّه شارك موسى بن نُصير في فتح ولاية طَنْجَة الواسعة الأرجاء من المغرب .

ويذكر له ، أنّه فتح مدينة سبْتَة المغربيّة سلماً ، بعد أن استعصى فتحها على الفاتحين عَنْوَة .

ويذكر له ، أنّه كان إدارياً لامعاً ، برز في إدارته الحازمة على ولاية طنجة المغربية .

ويذكر له ، أنّه كان سياسياً حصيفاً ، استمال يُلْيَان بالحسنى ، حيث عجز السيف عن استمالته .

ويذكر له ، أنّه أوّل قائد غير عربي ، تسنّم منصباً قيادياً كبيرا ، بمجهوده وجهاده ومزاياه ، لابنسبه وحسبه وكفاياته حسب .

ويذكر له أنّه كان قائداً لامعاً ، من ألمع قادة الفتح الإسلامي ، في القرن الأول الهجري ، قرن الفتوح والانتصارات .

ويذكر له ، أنّه أوّل مَن نشر العربية لغةً والإسلام ديناً ، في الفردوس العربيّ المفقود .

ويذكر له ، أنّه كان من أشجع الشجعان ، لايبالى أوقع الموت عليه ، أو وقع هو على الموت .

ويذكر له ، أنّه في سماته القيادية يشابه خالد بن الوليد ، فهو خالد فتوح المغرب ، كما كان خالد بن الوليد قائد فتوح المشرق ، وكان طارق بطل غير العرب المسلمين ، كما كان خالد بطل العرب المسلمين .

ويذكر ، أنه في مزاياه القيادية ، يشابه المثنّى بن حارثة الشيباني ، فهو بطل فتوح الأندلس ، كما كان المثنى بطل فتوح العراق .

ويذكر له ، أنّه غنم مغانم جسيمة في الأندلس ، ولكنه لم يخلّف إرضاً ولا دارا ، ولم يُورث درهما ولا دينارا .

ويذكر له ، أنّه كان محبوباً من البربر ، تتوجّه حشودهم بأمره إلى الجهاد ، بدون سؤال ولا جواب .

ويذكر له ، أنّه لمع سنوات معدودات فاتحا ، ثم سطع حتى بهر الناس شرقاً وغربا، ولكنّه انطفأ فجأة كما لمع فجأة ، فاندثر إنساناً ، وبقيت فتوحه لا تندثر أبدا .

ويذكر ، أنه بقدر حديث المؤرخين عنه قائداً ، بقدر إغفال الحديث عنه إنسانا ، فطارق القائد معروف جداً ، وطارق الإنسان مجهول جدا .

ويذكر له ، أنّ فتوحه الأندلسية ، قوبلت بالعقوق ، وقضى أيامه بعد رحيله من الأندلس إلى دمشق ، مغموراً مجهول المكانة والمكان .

ويذكر له ، أنّه احترق بنار مولاه موسى ، فتحمّل ما تحمله موسى ثابتاً صابراً محتسبا ، دون أن يقترف ما يستحق عليه العقاب .

ويذكر له ، أنّه لم يُحاسب كما حوسب غيره في تصرفه بالأموال ، بل كانت جريمته الأولى والأخيرة ، أنه ذو شعبية طاغية في المغرب والأندلس، فيُخشى على السُّلطة من شعبيته وعواقبها ، ويُخشى من الناس أن يستغلّوه في مصاولة السُّلطة ، ويُخشى من استجابته للناس ، فيضع السُّلطة في اختبار عسير.

ويذكر له ، أن الخروج على السلطة ، كان يدور في خلد حاسديه من الطّامعين في ولاية الأندلس ، ولا يدور في خلده طرفة عيْن ، لأنّه كان أكبر من المناصب ، تسعى إليه ولا يسعى إليها ، ويعتبرها تكليفاً لا تشريفا .

ويذكر له ، أنّ السُّلطة أقصته عن القيادة ، اعتماداً على ما سمعته عنه لا على ما تحققته منه ، فذهب ضحية الوشاية والافتراء ، لا ضحية الواقع واليقين ، وخسر الفتح بإقصائه قائداً لا يتكرر إلاّ نادرا ، وكانت الخسارة بإقصائه قائداً وإنساناً لا تعوض .

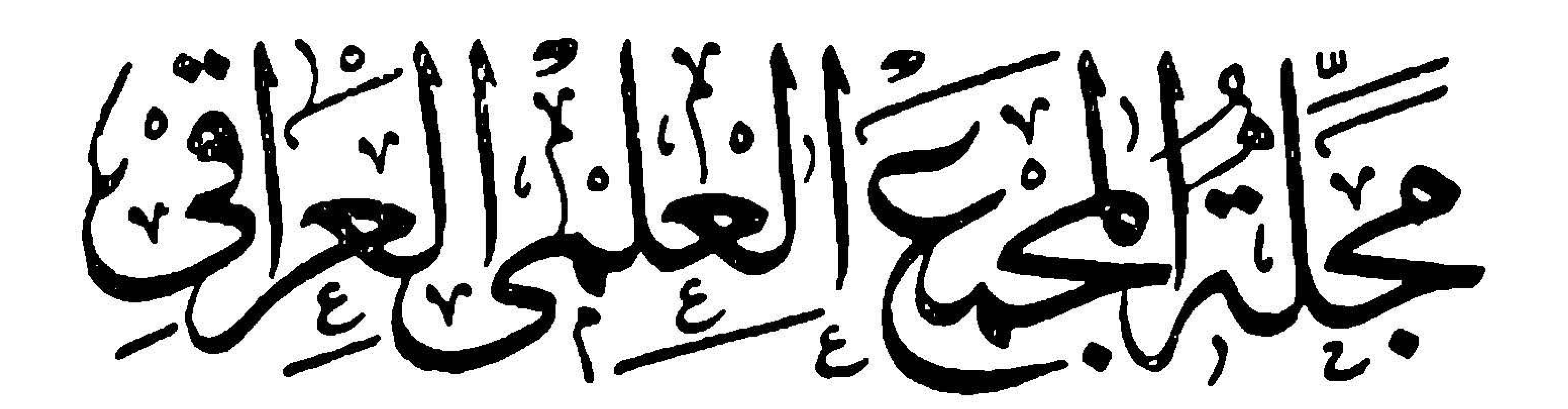
رحم الله القائد الفاتح ، البطل المجاهد ، الإداري الحازم ، السياسي البارع ، التّقي ، النقّي ، الذكيّ الألمعيّ ، طارق بن زياد فاتح شطر الأندلس .



الفهرس

الصفحة

عرض الكتب





الجزء الرابع ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م